المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثاني عشر

العقائد والمذاهب -٢-

يحتوي على

مجمع الأحياء

الإنسان الثاني

هذه الشجرة

إبليس

دار الكتاب اللبناني

بيروت

مكتبة لسان العرب

دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - تجاه فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣ / ٨٦٠٧٩٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

ص.ب: ٨٣٣٠/١١ أو ١٣٥٣٥٢ - برقياً: داكلبان - بيروت - لبنان

TELEX No: DKL 23715 LE - ATT: MISS MAY. H. EL - ZEIN

FAX (9611) 351433 BEIRUT - LEBANON

المجلد الثاني عشر

العقائد والمذاهب -٢-

المجموعة الكاملة لمؤلفات الأستاذ

عباس محمود

العقاد

المجلد الثاني عشر

العقائد والمذاهب ـ ٢ ـ

يحتوي على

مجمع الأحياء

الإنسان الثاني

هذه الشجرة

إبليس

دار الكتاب اللبناني

بيروت

دار الكتاب المصري
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
ت ٣٩٢٢١٦٨ / ٣٩٣٤٣٠١
ص. ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ برقياً كتا مصر
TELEX No. 23081-23381-22181
ATT MR. HASSAN EL-ZEIN
FAX: 3924657 فاكسميلي: ٣٩٢٤٦٥٧

دار الكتاب اللبناني
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
ت: ٨٦٠٧٩٢ / ٨٦١٥٦٣
ص. ب: ١١/٨٣٣٠
TELEX: DKL 23715 LE
ATT: MAY. H. EL-ZEIN
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

عبّاس محمود

العقّاد

مجمع الأحياء

دار الكتاب اللبناني
بيروت

كلمة
في تصدير الطبعة الثالثة

هذه الرسالة وليدة الحرب العالمية الماضية . شغلني موضوعها يومئذ لأنه موضوع الصراع في الحياة الإنسانية بل في الحياة عامة ، وأحببت أن أعرف لهذا الصراع معنى يطمئن إليه الضمير ، فانتهيت بالرسالة إلى معنى فيه بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، وهو أن الحق والنواميس الطبيعية يتلاقيان .

وأعدت طبع الرسالة بعد الحرب الماضية بسنتين فقلت في مقدمة الطبعة الثانية : « لا أزال أعتقد بعد الحرب كما كنت أعتقد قبلها أن الغيرة على الحق هي روح الإنسانية أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها . فإذا هي رضيت لأمة أن تستنزف موارد الأمم بغير الحق ثم اطمأنت إلى هذه الحالة فقد آذن ذلك بانحلالها وكان منها بمثابة ضعف الوطنية في الأمة وضعف الحيوية في الفرد ، وكلاهما نذير الفناء » .

وها هي ذي الطبعة الثالثة لمجمع الأحياء تصدر والدنيا مشغولة بحرب عالمية أخرى هي أشد هولاً وأوسع مدى وأقوى اختلافاً على المبادىء والآراء من الحرب التي نشبت قبل ثلاثين سنة . فإذا كان هناك خاطر يرد على الذهن في تصدير هذه الطبعة ـ خلال هذه الحرب القائمة ـ فذلك الخاطر مما يزكي موضوع الرسالة ويؤدي نتيجتها ، أو يسير بنا في وجهتها ، وهي أن الصراع الأكبر الذي نشهده اليوم سينتهي أيضاً إلى عاقبة فيها بعض الاطمئنان أو كل الاطمئنان ، لأنها تناقض القوة العمياء : قوة الحديد والنار ، وتشايع القوة البصيرة : قوة العدل والحرية .

عباس محمود العقاد

اكتوبر ١٩٤٤

مقدمة الطبعة الثانية
خواطر عامة
حول موضوع الرسالة

كتبت هذه الرسالة في النضال بين الأهواء والمبادىء واستكناه وجه الحكمة التي تبدأ منها وتعود اليها اعمال الناس ومساعيهم في هذه الحياة . وفحواها « أن الخير والشر في هذه الدنيا لا ينفصلان ، وأن أشرف ما يعرفه الناس من الحق غيرتهم على ما يعتقدون أنه الحق ، وأن الحق الذي نعرفه ونغار عليه غير الحق الذي تتوخاه حركات الكون المتجلية في تاريخ البشر ، فليس ما نعتقده حقاً إلا أداة موصلة إلى الحق العميق المكنون عنا والذي يرتسم طرف منه في عقائد الطبائع القوية السليمة . ومهما بلغ من إجحاف هذه العقائد وقسوتها فهي أرحم بالناس من الموت ، والموت كائن لا محالة في خلو الناس من العقائد أفراداً كانوا أو جماعات . وأننا إذا أردنا أن نعرف رحمة القُوى المسخرة لهذا الوجود فلا نعرفها بقياس قوانينها إلى القوانين التي نتخيلها ونفترضها ونود أن نجريها في الوجود لو كان الأمر بيدنا . ولكننا نعرف هذه الرحمة المحجوبة بشيء بين واضح : هو اليقين بأن القانون الذي يوضع لبقاء فرد واحد في عصر واحد غير القانون الذي يوضع لبقاء جميع الأمم في جميع العصور . وإننا لو سألنا ساخطاً متمرداً على الكون أي الحكمتين أعم رحمة وأوفر خيراً : الحكمة التي تضع القانون الأول أو الحكمة التي تضع القانون الثاني ؟ لما تردد في الجواب . وحينئذ نعلم أن نظاماً ترسمه الحكمة الخالدة لا يمكن أن تكون سعادته وقفاً على مخلوق يولد اليوم ويموت غداً ، وأن السعادة المطلقة للفرد معناها الإبادة المطلقة للنوع ، وليس أرحم من حكمة تفدي الوجود الإنساني قاطبة بسعادة واحد منه . ولكنها رحمة لا نعلم أي الناس أحق بظهور آياتها في اعماله وآماله لأننا لا نعلم غايتها ، وإذا جهلنا هذه الغاية فنحن لا نجهل حقيقة ثابتة مقررة لا مراء فيها ولا جدال : وهي أنه ليس في العالم فرد أو شعب مهما

عظم اقتداره واشتد سعيه وضخمت أهبته وأحكمت تدبيراته يحق له أن يزعم أنه قد صنع في مدته الزائلة ما يؤهله لأن يستوعب غاية الكون الأبدية في غايته الموقوتة ، فإذا هو اقتدر وسعى وتأهب ودبر ثم كان من غاية الكون أن لا تتحقق غايته كما يريدها ويتخيلها فكل ما في الأمر أن غاية الكون أكبر من غاية هذا الفرد أو ذاك الشعب ، ومتى تعارضت الغايتان ـ ولا بد أن تتعارضا في حادثة من الحوادث ـ فلا ظلم في تضحية الصغرى منهما لأجل الكبرى ، بل الظلم أن يُدرك بمجهود أحد الشعوب ما لا يجوز أن يُدرك إلا بمجهود الشعوب كافةً ماضيها وحاضرها ومستقبلها . وقد يأسف الإنسان لهذا القضاء أسفاً يقتل نفسه ويغم على عقله ويشل حواسه وطبائعه فيقف حائراً لا يدري بم ينصح الذين يريد لهم الخير ؛ وقد يرى أن الشر والخير سواء في أداء غاية الوجود وأن فوز الشعب الخامل قد يفضي إلى أسباب هذه الغاية كما تفضي إليها خيبة الشعب العامل ، فكيف ينصح لهذا الشعب أو ذاك بالجد والعمل ولا ينصح له بالتواني والجمود ؟ ! وكيف يقيس الأعمال بعضها إلى بعض وليس لديه المقياس الذي تقدر به نتائج هذه الأعمال ؟ ! وماذا يقول وماذا يصنع وكل قول ككل قول ، وكل صنع ككل صنع ! ! وهذا أعظم ما يبتلى به العقل من ضروب الحيرة ، وربما غله وقيد حركته وأيأسه . ولكن العقول الكبيرة لا تلبث أن تنصل من هذه الحيرة مطمئنة صافية ولن تضيرها شيئاً إذا سلم الجسم من رجة صدمتها . فتعلم أن الظلام الذي كان يغشاها ويلفها في كفن الخبال والتردد ليس هو ظلام العماية المخيمة على أعين الأقدار ، وإنما هو ظلام ينتهي إليه كل بصر يرمي إلى ما وراء طفاوة النور المفاضة حوله ، ويثبت عنده أن ما أعنته من الألم اللاذع ، إنما هو ألم العجز عن استشفاف حجب المستقبل البعيد ، لا ألم الكون المتخبط في فوضى ذلك المستقبل ، ويعزيه عن هذا العجز أنه لم يؤت العقل ليضبط به أعنة الحوادث ، ويصرف به مقادير الخلق ، ويسيطر على قوانين الأرض والسماء ، وليس من الحرمان أن تنقصه هذه القدرة ، ويعوزه الحكم على أمور لا سلطان له على تصاريفها ، ولا يد له بتعديلها . فهو إما أن يعلمها ويقبض على أزمتها ليطمئن ويهدأ ـ فلعمري ما أعظم الثمن الذي يطلبه من الكون جزاء اطمئنانه وهدوئه ! إذ هو ثمن لا يقل عن التحكم في نظامه تحكم الأرباب الخالقين . . . وإما أن يجهلها ، وهذا قصاراه ومبلغ حقه على

الكون ، فلا يذهب به القلق وراء حده ، ولا يحسب أن كل مجهول فريسة الجهل وان كل مخبوء ضائع ، وان البلاء كل البلاء على من يجيئون بعده انه جهلهم ولم يشرف عليهم . ولعله بعد ذلك يرتاح إلى هذا الذي كان يحيره ويضله ، ونعني به اختلاف الجزاء عن العمل ، فيأنس فيه أثرا من اللطف بالناس ومدعاة إلى التعادل بين أنصبتهم ، لأنهم لو جزموا بفوز كل متفوق في مقدرته وأهبته لما بقي لمن تسد في وجوههم أبواب التفوق أو تحول الحوائل يوماً من الأيام بينهم وبين المقدرة والأهبة سبيل إلى مطمع في الحياة ـ على أن يأس المغبون ، إذا تمادى به الحزن ولج في الاستسلام ، لن يجتث من طبائع الناس بواعث الحياة والتجديد ، ولن يطمس ذلك المعين الفوّار في صدر الإنسان . فهو من قديم الزمن ينحسر من جانب ليطغى من جانب آخر ، ويغيض هنا لينبع هناك . ومهما سلم لهذا المخلوق كيانه وهواؤه وأواصره التي تربطه بالمخلوقات أشباهه فينابيعه معه موفورة وافية ، وأصوله فيه مستقلة نامية ، بل معه على غير علم منه مبادئه ومصائره ، وأسلافه وسلائله ، ونعيمه وعذابه ، وأصنامه وأربابه ، لا يضعفه حملها بل يقويه ، ولا يثقله احتواؤها بل ينشطه ويحييه ، وما هو بضائره أن يختل حكمه على حكمة الوجود ، أو يكثر من التأويل في افتراض أوائله وأواخره ، مادام ذلك لا يخرجه من قلب هذا الوجود أو ينحيه عن مؤثراته ، فليبدأ أول الوجود أي مبدأ ، ولينته آخره أي منتهى ، فإنما قلبه هو قلبه وصميمه على تعاقب الأزمان هو صميمه ، والإنسان عالق بحياته في هذا الصميم لا في أوائله الأزلية ولا في نهايته الأبدية . فهو أيان عاش أحاط به هذا العالم ، وحيثما نظرت له عين تحسن أن ترى فثم شيء لها تراه ، وأينما وجدت نفس تحسن أن تدرك فثم حقائق أمامها تدركها ، ولن تظمأ حاجة من حاجات النفس وهذه الموارد باقية . اللهم إلا تلك الحاجة المحكوم عليها بالظمأ الأبدي ، والتي تموت إن رويت : وهي الحاجة إلى الكمال ، وبها تتم الحاجات جميعاً ، ومن قبلها يجذبنا زمام الغيب القدير ـ هذه ينابيع الإنسان التي يعول عليها : كلما أضاع أملاً أخرجت له أملا جديداً . وكأنها خزانة الجدة العجوز تتربص بالابناء المسرفين حتى يقنطوا ويضيقوا ذرعاً فتفرج أزمهم وتسرّي عنهم وتزودهم بالنصائح الموفقة لهم . وهذه الجدة العجوز لا تبض لك بأمل وعندك أمل خلافه ، ولا تفتح لك بابها وأمامك باب

سواه ، وربما أقنعتك في كل مرة بأنك تحرز الأمل الأخير فلا تكاد تصدقها حتى يتبين لك أنها خزانة لا تنفد ، وكنز ذو أوان لا يفتأ يتجدد ولا يتبدد ! »

في هذا المعنى وما ذهب مذهبه كتبت هذه الرسالة . ولم أزل منذ دارت في نفسي هذه الخواطر أسمع حجة واحدة هي أكثر ما يورده الناس على فساد نظام الكون ، وهي مع ذلك أوهن الحجج وأظهرها بطلاناً ، وتلك الحجة هي تباين موازين الجزاء ، وتنزلها على خلاف المقرر المسلم به في عرفهم . فهم يقولون : أما كان العدل يقضي بالتسوية بين الناس في منازلهم وحظوظهم ؟ أليس من الغبن أن يغتضر الشاب ويؤخر الهرم ،وان يحرم العامل ويُغدَقُ على العاجز ،وأن يرتفع الوضيع ويبتذل الكريم وإن كان هذا مراد الأقدار أفما كان في وسعها أن ترضي كل مخلوق بنصيبه ، وتغني كل طالب عما ليس في يده ؟ وازدادت هذه الشكوى بعد الحرب الكبرى فسُمعت في كل مكان ، وكان لها فعل عجيب في تغير الاحوال ، وستسمع فى كل حين ما دام الاختلاف بين الناس ، فتكون من أقوى دوافع التيار الانساني .

والشاكون بهذا اللسان لا يداخلهم الريب في عدل شكواهم بيد أنهم ينسون أن أنانيتهم هي الشاكية المتلهفة على التغيير ، وأن ليس العالم هو المفتقر إليه ، المتوقف نظامه عليه ، وإن أحدهم ليقول في أيام رضاه ما لا يقول في أيام سخطه ، ثم يتقلب أمله في حالتي الرضى والسخط . . . فهل يريد أن يتحول العالم معه كلما تحولت به الصروف وتقلبت عليه الآمال ؟

يشكون من تفاوت الأعمار والحظوظ ، وهم إنما تعجبهم من الرجل شجاعته وهمته وجوده ، لأن الأعمار مجهولة ، ولن يكون لرجل فضل بشجاعة أو همة أو وجود لو زالت المخاطر من الدنيا وتساوى الناس في الآجال أو أمنوا بالموت إلا في وقت معلوم . فإذا أمن الشيب والشبان فهل يرضيهم هذا العدل الذي لا تعيش معه فضيلة ، والذي يجعل الإنسان أشبه بالإنسان من اللبنة باللبنة ، فتبطل مزايا البأس والذكاء والأريحية والمروءة : لا قائد ولا مقود ، ولا سيد ولا مسود ، ولا حاسد ولا محسود ، ولا تتشعب علوم أو تتنوع صناعات أو تتعدد خصال وأعمال أو تتفرع أجناس وأديان . فأي دنيا تكون هذه وأي حياة ؟ إن هؤلاء الشاكين ، لو أسند إليهم أمر الكون ، لحاروا في تصور هيئة غير هيئته ،

ولهدموه قبل أن يؤسسوه ، لأنهم يحسبون أن العالم إذا احتاج بعض أجزائه إلى متمم من أجزائه الأخرى كان ذلك حجة على نقصه في مجموعه ، فتراهم ينكرون الفوضى والفوضى ما يطلبونه ، ويريدون العدل والعدل ما يتبرمون به . إذ كيف يكون العدل في غير نظام ، وكيف يكون النظام في غير اختلاف ؟؟ أليس قضاءً على الكون بالعدم ألا يختلف جزء منه عن جزء في شيء من الأشياء ؟ ثم أليس من الجور والخلل أن تتفاوت أجزاؤه في خصائصها وصفاتها وتتساوى في أعمالها ومزاياها ؟ ومتى علمنا هذا فلنعلم أن من تمام هذا العدل في هذا النظام أن يسلب الناس الرضى به كما سلبوا التساوي فيه . لأن الرضى عائد بهم إلى التساوي ، والتساوي عائد بهم إلى الفناء . ولن يرضى الناس إلا كرهوا التحول ، وكفوا عن العمل ، ولن يكف الناس عن العمل إلا تلفوا واضمحلوا . ولنعلم كذلك أن سلامة الأشرار وسوء عقبى الأخيار ، بعضَ الأحيان ، هي قوام الخير في هذه الحياة . وإلا فكيف يكون في الأخلاق فضيلة ورذيلة إذا تحقق جزاؤهما في كل عمل وفي كل يوم ؟ وأي فضيلة هذه التي يحملها صاحبها أولاً فأولاً لينال ثوابها كما يحمل الأجير دفتره يوماً فيوماً وهو على ثقة من قبض أجرته ؟ أو ليس جديراً إذن أن يحمدوا هذا الخلاف . وإن كانت طبائعهم لتتألم منه على رغمها ؟ وأن يزداد حمدهم له متى علموا أن هذا الألم هو بغية تطلب لذاتها لا عرض يأتي في طريق ذلك الخلاف المحمود ؟ ولست أقول إن هذا الألم قربان على مذبح غرض أسمى من الحياة ، ولكني أقول : انه قربان الفرد للنوع في سبيل الحياة نفسها . وقد يترقى النوع بهذا القربان أو يقتصر الأمر فيه على التجدد المتكرر ، ولكن الحياة وحدها كافية لمن يحيا ولو لم يتحقق بعدها الكمال المنشود . . . انظروا إلى الفرق الذي لا حد له بين العدم والوجود ! ثم انظروا إلى الفرق الذي لا يحاط به بين الوجود المجرد والحياة الشاعرة الناطقة . انظروا الى هذا الفرق ما مسافته من الزمان ، وما عمقه من الإحساس والإدراك ، وما حده من الجمال ، واذكروا انكم تتمتعون في كل لحظة من لحظات عمركم بالفرق السحيق بين العدم والحياة . . . اذكروا أن روح الوجود تثب فيكم كل لحظة من تلكم اللحظات من هاوية العدم إلى قلب الدنيا النابض الجياش ! ويالها من وثبة . . . ما أعظمها وأجلها وما أكبر فرح النفس بها ! ! ! واذكروا أن أحقر عمل يأتي به المرء

في حياته بينه وبين العدم مسافة لا تُعبَر ، وأن من جلائل أعمال الحياة ما يجعل الحياة الحقيرة كالعدم فترى ان الموت أهون عليها من فقده. ولعل أضعف ممن يحتقر الحياة إيماناً بعظمتها أولئك الذين يجعلون بعض الحياة غرضاً لكلها : أولئك الذي يحسبون أنهم إذا قالوا إن غرض الحياة اللذة أو السعادة أو القوة كانوا أبعد عن الهذر ممن يقول إن الغرض من النبات امتصاص زبدة الطين أو اجتذاب ألوان النور . الذين يزعمون أنهم إذا فرقوا بين حياة مرضية في نظرهم وحياة أخرى غير مرضية لا يطالبون بالفرق بين الحياة والموت ـ هؤلاء ضعاف الإيمان بالحياة لأنهم يتجاوزون عنها اكتفاء ببعضها ، ومثلهم في ذلك مثل المختلفين على الغرض من تكوّن البحر : فيقولون تارة إنه اللآلىء والجواهر ، وتارة إنه إنشاء السحب وتلطيف الهواء ، وتارة إنه التيارات والرياح ، وتارة إنه المد والجزر ، وتارة إنه نقل السفن عليه ، والحقيقة بعيدة عن كل هذا ، وليس البحر بحرا لجملة هذه الأغراض أو لواحد منها . وكذلك الحياة لا تحصر أغراضها ولا تدفع بنا الى الأغراض التي تفهمها عقولنا . فمن أراد أن يفهم غرضها فليسألها تجبه في نفسه ، لأن السائل هو الجواب ، بل هو كلمة من لغتها المكتوبة الناطقة بغرضها ، وعلى قدر ما في هذه الكلمة من المعنى يكون حظ السائل من فهم جواب الحياة .

فلنفهمها بلغتها ولا نحاول التعبير عنها بلغتنا ، وأقرب ما نشبه به تلك اللغة المبدعة أنها وحي ناطق بالمجاز ، كامن في العقول والقلوب والأرواح والحواس ، تكتبه بطريقة تصويرية كطريقة المعبرين عن المعاني برموز الكتابة المصورة : فتنبت شجرة لتقول النضرة والنماء ، وتنشىء ربيعاً لتقول الحب والرواء ، وتسعر حرباً لتقول التنازع على البقاء ، بل تبدع كوناً لتقول الّله والسماء . أو هي تصور ولا تلفظ ونحن نفسر ولا نقرأ . وقد صورت حقائقها مرة واحدة في كتاب واحد نحن حروفه وكلماته وأرقامه فلا نحاول أن نكون قارئين محيطين بهذا الكتاب وَحسبنا منه ما نطوي عليه من مغزاه .

* * *

ولقد كان تأليف هذه الرسالة وطبعها في إبان الحرب الكبرى : تلك الحرب التي بلغ فيها الصراع بين المبادىء والأهواء ما لم يبلغه في حروب العالم قديمها وحديثها . فبعثت مخلفات القرون الأولى في نفوس الناس ، وقلقلت دعائمها كأنها اعتزمت أن تنشئها نشأة جديدة ، فشككت قوماً كانوا يؤمنون ، وجذبت إلى الإيمان قوماً كانوا يشكون أو ينكرون ، وخيل إلى أناس أنها الوقعة الفاصلة بين الحق والباطل لا تقوم للمقهور منهما قائمة بعدها . وربما كانت هواجسها هذه مما حركني إلى استعراض الخواطر التي كانت تدور بخلدي من قبل ثم إلى تدوينها في هذه الرسالة ـ والآن وقد انتهت الحرب نهايتها وجاءت بما في الحسبان وما ليس في الحسبان ـ أراني لا أجد في أسبابها أو أدوارها أو نتائجها تفسيراً جديداً للمنازعات بين الناس . فالحريق هائل ولكن النار قديمة . وإن عود الثقاب ونظام المجموعة الشمسية ليستمدان النار من مصدر واحد . وقد يلخص كل ما صنعته الحرب في جملة وجيزة : وهي أنها عجلت التدرج القديم المطرد في نقل الحكم من أيدي الأقلين إلى أيدي الأكثرين ، وسوف يكون لذلك شأن خطير في تصريف أعمال الأمم وضبط معاملاتها وعلاقاتها . إذ من البديهي أن الفرق بعيد بين حكومة لا تحتمل خطراً كبيراً أو صغيراً ما لم تحتمه مطالب الأكثرين ممن تلحق بهم مغبته ، وحكومة أخرى كالحكومات المعهودة تحتمل كل الأخطار إرضاء للأفراد المعدودين من المتربعين في دسوتها .

ولا أزال أعتقد بعد الحرب كما كنت أعتقد قبلها أن الغيرة على الحق هي روح الإنسانية أو هي مظهر أنانيتها وحب البقاء فيها . فإذا هي رضيت لأمة أن تستنزف موارد الأمم بغير الحق ثم اطمأنت إلى هذه الحالة فقد آذن ذلك بانحلالها . وكان منها بمثابة ضعف الوطنية في الأمة وضعف الحيوية في الفرد . وكلاهما نذير الفناء .

وأختم هذه المقدمة كما ختمت الرسالة قائلاً : اسمعوا صوت الطبيعة : اسمعوه همساً قبل أن تضطركم إلى سماعه زمجرة ووعيدا . وليسمعه كل حي على شاكلته : يسمعه الشرير فيتمادى في شره وتسمعه الأمة فتقضي على ذلك الشرير ، وتسمعه الإنسانية فتنحي على الأمة التي تفرط في حقوق الحياة ، أو

التي تمسخ عناصرها الباقية في الأمم إيثاراً لمنافعها المحدودة . وما دام هذا الصوت مسموع النداء . فالعالم الإنساني ممدود البقاء .

عباس محمود العقاد

القاهرة في ٨ يناير سنة ١٩٢٠

الغاب

أين أنا ؟ وماذا أرى ؟ ومن ذا جاء بي إلى هنا . . ويقظة هذه أم حلم في الكرى ؟ أم جاء بي إلى هذه الأرض النائية متصرف فعال لما يريد أحب أن ينزل في روعي أن الدنيا ليست كلها قصوراً باذخة ، وأرائك شامخة ، ومعامل وأسواقا ، ومحابر وأوراقا ومحافل وجحافل ، ومساهر ومساخر ، ودرهما ودينارا ، وفضة ونضارا ، وأن المرء قد يحيا حفل حياته ، وينظر مدى عينيه ، ويسمع شبع أذنيه ، ويحب ويبغض ملء قلبه ، وينتعش وسع نفسه ، وهو لم يعطف على لندن ونيويورك ، أو يسمع ببابل وبغداد ، ولم يقرأ فلسفة أرسطو وسبنسر ، أو يطرق أذنه اسم هومر وشكسبير ، وأنه يقصد كل القصد في إنفاق ساعاته وهو لم يركب البخار ولا طار في الهواء ، ولم يستخدم النار ولا سخر الكهرباء . فهل هذه إرادة ذلك المتصرف الفعال لما يريد ؟ وهل أفلح فيما أراد ؟

أنا الآن في قلب أفريقية ، والذي أراه حيالي غاب أشجارها باسقات تطالع السحاب من أمم ، وجذورها غائرات تذهب في طباق الأرض ذهابها في القدم . يلجأ إليها الهواء فكأنه لاجىء إلى حصن ، ويقع عليها الضياء فلا ينفذ إلا باذن . اشتبكت أعاليها فكأنها السقوف ، وهالت مداخلها فتقول هي سراديب أو كهوف ، ظلالها أثبت على أديم الغبراء من أصباغ الفراعنة القدماء ، لا تنسخها الشمس الساطعة ولا القمر الزاهر . وأصولها أعمق في قرار الأرض من قبر آدم وحواء ، ولا يلحقها ظن الفاحص ولا يتعلق بها وهم الحافر . وفيها من الأحياء مالا يوجد في أعمر الحواضر عداده ، ولا ينتهي على طول الزمن امداده . كواسر صارخة ، وعصافير صادحة ، وهوام صافرة ، زاحفة أو طائرة ، ووحوش زائرة ، ودواب هادرة . يضرب كل منها على نغمته فيتألف من لغطها المختلف موسيقى الطبيعة المبدعة التي لا تعبأ شيئا بصناعة الموصلي ودحمان ، ولا تحفل فتيلا بأفانين واجنر وشوبان . والأزهار نافحات

العطر تثني على الشمس بآلائها ، وتبرز لها بما كستها من حلل أضوائها ، فكأنما هي بأشجارها وأزهارها وأمواهها وثمارها جنة متوحشة متأبدة تؤوي صنوف الحيوان وتأنف أن تكون لهواً ونزهة لبني الانسان .

أوغلت فيها وبي من حب الاستكشاف فوق ما بي من محاذرة الخطر ، فما توسطت رحبتها حتى لاحت لي على بعد امرأة جليلة الهيئة شريفة الطلعة فدنوت منها فلم أكد أصدق ما أرى . ـ رأيتها مفتوحة العينين لكنها ضريرة لا تبصر ولا تحيد ، وتمثلت لي وقد أخذ بيمينها قائد خفي يتبينه النظر بعد التأمل المضجر والتفرس الشديد . فأدهشني حالها واختبأت أنظر ما شأن تلك المرأة في هذه البقعة . فاذا هي تقول بصوت جهير مطاع .

سلاماً يا ساكني الغاب . سلاماً يا أبناء الحياة . سلاماً يسل غل الصدور ويصلح ما بين الواتر والموتور ! إليّ يا أبنائي فأنا أمكم الحياة جئتكم في يد القدر أدعوكم لأمر خطير !

وما كان الا كلمح البصر حتى مادت الغاب بكل شاهق وزافر ، مما يمشي على قدمين ، أو يدرج على أربع ، أو يطير على جناحين ، أو يزحف على بطنه ، أو يتلوى على نفسه . أقداراً متفاوتة وأشكالاً متباينة وألواناً متنافرة من حيوانات وأناسي ، فيهم الشمالي والجنوبي ، والشرقي والغربي . كلهم ينسلون صوب ذلك النداء ، نداء الحياة المطاع .

فلما علمت أن المرأة الماثلة أمامي هي الحياة ! الحياة التي يعبدها الناسك في الصومعة ، والعربيد في الحانة ، الحياة التي تحبها الدودة المتقلبة في الأقذار ، والشاعر العارج في ملكوت الخواطر والأفكار ، والحياة التي يضن بها الطفل ابن ساعة ، والشيخ ابن مائة وعشرين حجة ، والحياة التي لا شبيه لها في الكون ولا نظير . تقدمت أتأملها فلا أكذبك أيها القارىء أني وجدت بها شيات ومعائب كثيرة لا تبدو لأول نظرة ، ووجدتها تموه تلك الشيات والمعائب خفية وجهرة ، وكأني نظرت على صدرها تميمة من تمائم السحر أظنها لبستها لتغرم الأنظار بها ، وتعمى القلوب عما لا يستحسن منها ولكنّ لمحاسنها مع هذا معاني ماكرة يفتتن بها عاشقوها وهم أبناؤها ـ مهما خدعتهم وعذبتهم وعبثت بهم . فلو سألت أيا كان في ذلك الحشد المختلط لقال لك إنها فتانة

القبح والجمال ، قتالة الصد والمطال ، هذا وهي ما لاحت قط لواحد منهم كما تلوح لجاره ، ولا ظهرت لأحدهم في زي واحد بين ليله ونهاره .

وقفت تلك المرأة العمياء المقودة بيد القدر وقد لزم كل مقامه وأنشأت تقول : ـ

خطاب الحياة

أتدرون يا بني لم دعوتكم ؟ دعوتكم لما شجرت بينكم شواجر البغضاء ، وتقطعت بكم أسباب الرحم ، فعدا بعضكم على بعض ، وأصبح الحي منكم ينظر إلى سائر الأحياء ، كأنه الحي وحده وهي أحجار صماء ، لا شعور لها ، ولا رغبة في البقاء عندها ، أو هو لا يعرف فيها الحياة إلا ليراها أصلح لخدمته ، وأهيب من المادة الجامدة لسطوته .

هذا وأنتم جميعا أبنائي ، أرضعتكم لباني وسرت في عروقكم دمائي . وميزتكم عن الجماد فجعلتكم جنداً لي على أعدائي . يؤلمني الألم في أصغركم وأوضعكم كما يؤلمني في أضخمكم وأرفعكم ، وأعالج من الأوجاع والحسرات لمفارقة الجثة الناقصة الدقيقة ما أعالجه لمفارقة البنية التامة القويمة .

غركم تباين خلقكم ، وتعدد سماتكم وسحنكم ، فخلتم أنكم شتيت مفلول ، ونثير مبدد ، لا تفيئون إلى أصل ، ولا تلتقون عند غاية ، فهل نسيتم أن كلمة الأحياء تشملكم ؟ وأن الموت عدو لكم ؟ وأنتم بين جنوده وعناصره في هذا الكون وحدكم ؟؟

فاليوم أجمعكم في هذه الغاب ليمشي بعضكم إلى بعض بالسلم فتعتصموا به . وتتناصحوا فيما باعد بينكم وأولع بعضكم ببعض فتقلعوا عنه . ذلك أولى لكم من هذه الشحناء التي شقت عصاكم ، وأشمتت الجماد بكم ، وصيرت بعضكم يتمنى لو أنه صخرة جامدة أو جثة خامدة ، ويحسب الحياة لعنة عليه وعلى الخلق أجمعين .

إنكم تفهمونني جميعا وتفقهون ما أوحي إليكم به الآن . لكنكم لا يفهم بعضكم بعضاً ، ولا يعي أحدكم سريرة صاحبه إلا رجماً بالغيب وأخذاً بالظن . فليكن لكم ما دمتم في هذا الحشد علم الإنسان وبيانه وبصيرته ، ولتشرب أرواحكم فنونه وتواريخه وأديانه . تتعاونون بها على التفاهم والإبانة عما في سرائركم : أما طبائعكم فحافظوا عليها جد المحافظة فإنها دليلكم فيما سينطق به كل منكم عن رغبته وفكره ، والمعالم التي تميز بين أحدكم وغيره ، وهي قوام أنفسكم وملاك وجودكم ، وليس التجاوز عن هذه المعالم بأسهل عليَّ أو عليكم من التجاوز عن الحياة .

فأبدأوا باسم الخلاق الحكيم . وتكلمي يا يمامة فإنك رمز السلم والسلامة . قرن الله بهما عملكم وأظل بهما في التفرق والاجتماع شملكم .

فجأروا بلغة واحدة وصوت واحد بين زئير الأسد وصرير الجندب : آمين آمين .

* * *

وقبل أن تبدأ اليمامة خطابها نظرتُ أتصفح ما حوته الغاب من تلك الوجوه ، فسرعان ما توسمت العقل والمعرفة والتؤدة في الأناسيِّ منهم والوحوش ، فقلت تالله لقد أخطأت الحياة فإني لا أرى هنا إلا خلقاً واحداً . سوى أن هذي دواب في أشكال الأناسي وهذي أناسي في أشكال الدواب !

ثم صعدت اليمامة على ذؤابة شجرة عالية وهتفت قائلة : ـ

خطاب اليمامة

معشر الأحياء :

قال تعالى « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض »

ومصداق هذه الآية الكريمة يا بني أمي قائم في ملك الله الواسع أنى ذهبتم

بأبصاركم . فقلبوا الطرف فيما حولكم هل ترون اليمام والزرازير أكثر أم البواشق والنسور ، وهل البقر والشاء أبقى على القتل والذبح أم الأسود والنمور ، وهل صغار الأسماك أوفر وأغزر أم كبار التماسيح والحيتان ، وهل أنواع الحيوان أجمّ وأنمى أم قبائل الإنسان ؟؟

فإن تبينتم ـ ولا بد أن تتبينوا ـ أن الكثرة في جانب الضعف ، فتدبروا ذلك تعلموا أن الله لم يخلق المخلوقات المستضعفة عبثاً ، وأنه لم يقدر عليها الفناء مذ خلقها ضعيفة كما يفتري أولاة الشر ومستحلو دم البريء . بل وهب لها من إرادة البقاء ما وهب لعامة الأحياء ، وتمت فيها هذه الإدارة بالكثرة كما تمت في سواها بالقوة . فالجناية عليها جناية على إرادة البقاء ، والسطو على حياتها انتحار في صورة اعتداء .

ولقد سمعتم أمنا الرؤوم تناديكم قائلة لكم : إننا رضعنا جميعاً من لبانها ، وإنه إذا نسب الأبناء فكلنا بضعة من جثمانها ، وإنها تتألم في أصغر حي إذا مسه الألم ، ويشق عليها أن تخرج منه ليستولي عليه العدم . وقالت لكم إن أخذكم الحي أخذ الجماد الذي لا يحفل حالة من حالاته مضيع لمعنى الحياة ، حاطٌ من شرفها . فميزوا بين المادة الصماء واخوانكم في رغبة البقاء .

إن بعضكم ليقلق أحشاءه الجوع ساعة فما هو إلا أن يساق إليه حيوان ساع نام فينقض عليه فيزهق روحه لينال منه ملء فمه لحماً ثم يتركه جيفة لا حراك بها . وليت هذه الأكلة تغنيه عن الطعام بعدها ، ولكنه يفعل ذلك كلما جاع ، ويجوع في اليوم مرات ، أفمن أجل شبع ساعة تسلبون حياة هي كل ما يملك صاحبها من الوجود ؟؟ أليس هذا أقصى ما تنتهي إليه عبادة الغرض وتحكم الشراهة ؟؟

ولا يقولن متهكم منكم : لشد ما تغار اليمامة على تأييد فلسفة الرحمة بيننا ؟ أفإن خلقها الله نسراً أو أسداً أيكون هذا رأيها وهذه غيرتها ؟ فأقول لهذا المتهكم : إنني لا أدري ماذا يصير من رأيي لو كنت خلقت نسراً أو أسداً . على أن الذي أتحققه الآن وأؤكده أنه لا نسور الذرى ولا ليوث الشرى ينبغي لها أن تترفع عن فلسفة الرحمة . إذ ليس من قدير بئيس فيكم إلا وثم من هو أقدر منه وأشد بأساً . وليس من غالب بالقوة اليوم إلا وهو مغلوب بها غداً ، وهب القوة

انتهت إلى أحدكم واجتمع له الحول والحيلة فهل أعطاه الدهر أماناً على نفسه أن لا تقهره الكثرة أو المكيدة يوماً فلا ترعى فيه عهداً لإحسان ولا ذماماً لحق ؟ وتذره ينادي العدل فلا يجده ، ويناشد قاهريه الذمة فلا تنجده ، فاذا نسي الرحمة وهو قادر عليها فبأي وجه يذكّر بها سواه وهو محتاج اليها ؟

أنا إنما أدعوكم إلى دين سواء بينكم يرضيكم جميعاً ولا يظلم منكم أحداً . دين يحوطكم بحارس من العدل والحق ويرصد عليكم وازعاً من الواجب والضمير ، فإن صدكم حارس العدل أو وازع الضمير مرة عن أعدائكم صدهم ألف مرة عنكم . والعاقل من لم يغتر بيومه وتدبر عواقب أمره ؛ ولأن تسمعوا هذا الهتاف مني أجمل بكم من أن تسمعوه من الضرورة القاسرة وأنتم بحكمها عالمون .

ولما سكتت اليمامة كان وقع كلامها مختلفاً بين خشوع وموافقة واستهجان وسخر وجمود . ولم تطل هذه الحال إلا ريث أن وثب الثعلب قائلاً :

خطاب الثعلب

معشر الأحياء :

أنا لا أجهل يا بني أمي أن بينكم كثيراً يتهمونني بالخبث والخسة ، فمن خطر له من هؤلاء أن يشك فيما سأقوله الساعة فليفعل فإني لا أحاول تبرئة نفسي !

وعظتكم اليمامة وأوصتكم بالضعفاء وقالت لكم إن الله بارك في مخلوقاته الضعيفة ليحرم عليكم قتلها . أما أنا فاسلوبي في الوعظ غير هذا الأسلوب ، وطريقتي في المنطق خلاف هذه الطريقة . أنا أقول لكم إن الله أكثر من مخلوقاته الضعيفة لأنه قدر على أكثرها الفناء في هذا المعترك العصيب . فإن رغبتم في المزيد فاسمعوا ما أقول :

إن شئتم أن تستقيم أحوالكم ، ويهدأ بالكم ، ويعرف كل منكم مقداره ،

فانبذوا من بينكم هذه الكلمات الفارغة : العدل والحق والواجب والضمير . فإنها أوهام يضيع الجهد وراءها هدرا ، وعلالات تخدع أصحابها ولا ترد عنهم ضرراً .

فما دام في الدنيا القوي والضعيف ، وما دامت المساواة مستحيلة ، حتى بين الفردين من جنس واحد ، والأخوين من نبعة واحدة ، فلا عدل .

وما دام الجهل يغطي على أبصار الجاهلين ، والخوف والاضطرار يلجمان أفواه العارفين ، والأمر يحسن اليوم ويقبح غداً ، فلا حق .

وما دامت البرية تحيا بالأهواء وتموت طبائعها بموتها ، والغاية من الوجود مستورة عنا ، والطبيعة لا تكشف لنا بواطنها القصوى فلا واجب .

ومادام العدل مستحيلاً ، والحق معدوماً والواجب مجهولاً ، فلا ضمير .

فاطرحوا عنكم هذه الترهات التي ما أظن مخترع الغول والعنقاء والشيطان أوسع من مخترعها خيالاً ، أو أقدر منه على تمثيل المعدوم وتصوير شيء من لا شيء .

أطلقوا القيود عن غرائزكم المستقرة في فطرتكم ، فهي أفضل من هذه الفضائل التي لا ترجع من طبائع النفوس ، عاليها وسافلها ، إلى أساس مكين .

إنكم تذمون الحسد وهو الحافز للكمال والمرغب في المزيد ، وهل كان امتعاض الحي من أن يسبقه سابق إلا صورة أخرى لبغض النقص وحب الكمال ؟ ولعمري كيف كان الخلق يتزاحمون على التقدم ، إن كان أحدهم لا يسوءه أن يتقدم عليه سواه ، ولا يشعر من نفسه بالكراهة له والنقمة عليه ؟ ولا أكثر يا قوم مما قيل في ذم الحسد . فلو كانت خلة من الخلال يستدل على شيوعها أو ندرتها بما يقال فيها مدحاً أو ذماً لكان حرياً بالحسد أن لا يوجد في صدر مخلوق ، لكني أراه عميق المنبت في الطباع . وما كان إجماعنا على مقته وإخفائه لأنه خلة ذميمة في ذاتها ، بل لأن إظهار الحسد فيه غضٌ من قدر الحاسد وإقرار بتفوق المحسود عليه . والخالق القدير أحكم من أن يودع هذه الصفة في النفوس عبثاً ، فلا بد لها من منافع ترجح بما فيها من المضار . وأقل

ما يقال فيها أنها تستفز الحاسد وتغري المحسود بالحرص على ما في يده والازدياد منه خوف الشماتة .

وأنتم تنكرون البغض وهو مسبار المقاومة ، وعنوان مناعة الحوزة ، وسياج النفس من أعدائها . فمن لم يبغض عدوه لم يحبب نفسه ولم يحم حوزته ، ومن لم يحبب نفسه ويحم حوزته فهو جدير بالفناء .

وأنتم تعافون النفاق والنفاق ديدن الطبيعة ، والتلون قانونها الذي لا تستحي منه . ولو لم يكن النفاق أصلاً من أصول الطبيعة لما كانت جلود الحيوان تتلون بألوان الأشياء التي تكتنفها لتخدع فريستها أو مفترسها ، بل لما زينت الطبيعة صغار الذكور والإناث لينخدع بعضهم بجمال بعض فيندفعوا جميعاً في قضاء غرضها ولا غرض لهم منه ؛ ولما حببت الآباء في الأبناء ليدوم النوع ولا أرب لأنفسهم في دوامه ، بل لما كان لكل مخلوق سر يضمره ويظهر للعالم خلافه ، ولما كان لكل أمة سياسة مجهولة وسياسة معلومة . وأعظم من هذا أن الوجود نفسه له وجهان : وجه واضح ينكشف لأول وهلة ، ووجه غامض لا تراه الأنظار مهما نقبت عنه وحدقت فيه . ولست أنظر في هذا القول إلى نتائج النفاق القريبة ولكني ناظر إلى النتائج البعيدة التي نجهلها نحن وتعلمها القدرة التي تسخرنا فيما تريد . فنحن نحب أحياناً أن نخدع غيرنا بلا سبب نعرفه ، وأن نستر الحقيقة بلا موجب لكتمانها ، ولو كان مدار الأمر على فائدتنا القريبة التي نعرفها ونسعى إليها لما خفي عنا كنهها ، والحقيقة أننا نفعل ذلك مسوقين مرغمين . وليس من شأننا معرفة أسباب ذلك النفاق ، وإنما هو شأن تلك القدرة العالية وحدها .

وأنتم تستنكفون من الملق والدهان فهلا ذكرتم أن من لم يعرف قدرته فهو الغبي الجاهل ، وأن من عرف قدرته فصادم بها من هم أعلى منه يداً فهو الطائش المغرور المستحق لجزاء الطائشين المغرورين . وأن من يتملق اليوم عدوه قد يتحكم به غداً ، ولكن من يعاند القادرين يموت فلا هو قضى أربه ولا هو أبقى على نفسه .

وأنتم تمقتون الكبرياء ومن لم يمقتها منكم مقتموه . وهذا وايم الله من ظلم الضعفاء ! لأن الكبرياء حق الكبير ، والإدلال بالمقدرة مزية القادر على

العاجز ، والقوي على الضعيف ، لو حرمناه إياها لظلمناه وجعلناه كالضعيف ، فلحقت القدرة بالعجز ، والقوة بالضعف ، ورغبت النفوس عن موضع الفاضل إلى موضع المفضول ، وجنحت عن البطش والجبروت إلى الضؤولة والاستكانة . ولعمري إن زهو العظيم بعظمته لأمر طبيعي معقول ، ولكن الأمر المستهجن المقبوح هو أنفة الصغير من الإقرار بتفوق الكبير عليه كأنه يريد أن لا يحس الكبير بكبره ، لا لشيء إلا أنه يحس بصغره إزاءه . وهذا عين الظلم والافتئات (تصفيق من جانب الأسد) .

وأنتم تحنقون على الأنانية ، ولولا الأنانية لكنتم الآن في خبر كان ، ولانقرض الأحياء وفاز الموت على الحياة في هذه الأرض . إن الخالق لم يودع الحياة في نفوسنا لنبغضها ، ونخجل من حبها ، وننضوها عنا لأول من يطلبها منا . كلا بل أودعت فينا الحياة لنفتتن بها ، ونتفانى في حفظها ونحتجن إليها كل ما حولها ، ونطبع صورتها على البعيد والقريب منا . والظافر الظافر من غلبت أنانيته على كل أنانية ، وانطبع أثره على كل موجود . فإن الوجود لا يقوم بقولي إن غيري أحق بالخير مني ، بل هو قائم باعتقاد كلٍ أنه أحق بالخير من الخلق قاطبة . ومتى أصبح كل حي ينبذ عنه الحياة ليأخذها غيره فمن هو إذن الذي يعيش ويحيا ؟ ؟ وعلى أننا لو فرضنا على المخلوقات أن تتخلى عن الخير لغيرها ، فما هي في الواقع إلا أنانية مقلوبة تمشي على رأسها ، وكأننا جعلنا كل مخلوق ينتظر الخير من غيره لنفسه . فأي شيء صنعنا ؟ ؟ وماذا غيرنا من طبيعة الأنانية ؟

وأنتم تتذمرون من القسوة والاعتداء لأنكم متشبثون بحياتكم ، ولو أنصفتم القاسي المعتدي لعرفتم عذره ، فإنه هو أيضاً يحب أن يحيا كما ينبغي لمثله . وإذا كان خوف القسوة والاعتداء من لوازم الجياة عند الضعفاء فلا حياة بغيرهما عند الفاتك الصؤول . وإن جعله قادراً على الفتك بغيره هو الذي أمره بالفتك به وخلوه ذلك حقاً لا منازع فيه . وما قتل المرهّق المغلوب إلا الذي منحه الحياة وأعجزه عن رد عادية المعتدين .

وأنتم تشمئزون من السرقة ولكنكم تعظمون الاغتيال . إذا تسور لص في ظلام الليل بيتاً فأمسكتموه على هذه الحالة فضحتموه وشهرتم به ، فكأنكم

تحقرونه لاعتقاده أنه يأتي عملا حقيراً يجب إخفاؤه ـ فإذا سرق فرد أمة أكبرتم دهاءه وأجللتم حيلته وذكاءه . وإذا سطا رجل على شعب سجدتم لهيبته وتمسحتم بأذياله . . . فكأنكم لا تستطيعون أن تحتقروا إلا من يبالي باحتقاركم واحترامكم ، وأما من يحتقركم ويستعبدكم فأنتم وأموالكم طوع يديه ورهن أمره . ولست ألومكم على ذلك فهذا هو الحق عنديَ . إذ من شأن الحقير أن يشعر بحقارة كل عمل يأتيه ، لأنه لا يحق له إحراز ما عنده بله السلب من غيره . وأما العاتي المتجبر فليس يصدر منه عمل حقير ، لأن من شأنه أن يأمر ويتغلب على من لا يستطيع رد أمره والتغلب عليه ، فهو لا يشعر بخجل من انتهاب غيره ، بل يدع المنهوب يخجل من نفسه ، ويتوارى عن الأنظار ، أما هو فيرفع رأسه ويشمخ بأنفه على الراضين والمنكرين ، بلا حياء ولا مبالاة . وانكم ما اتفقتم على أن يكون لكل منكم ملكه ، لا يعدو عليه أحد ، ولا يشاركه فيه غاصب ، إلا لأنكم وجدتم في ذلك مصلحتكم . فما هي حجتكم على من لا يجد مصلحته في قبول هذه الشريعة ؟ أو على الذين يرون أنكم ظلمتموهم بسماحكم لمن هم أقل منهم استحقاقاً وأحط فكراً بأن يكونوا أوفر حظاً وأجل قدراً ؟ أما والله إن العدل ليقضي بأن لا تلزموهم شريعتكم وتتركوهم يدينون بما يرون فيه مصلحتهم . . . بيد أنكم لا تقضون بالعدل بل تقضون بالغلبة . وأنتم تجبرونهم على الإذعان لشريعتكم لأنكم أكثر منهم عدداً ، وليس لأنهم يتمسكون بمبدأ في التماس الرزق والقوة يخالف مبدأكم . فما من حجة لكم أو لهم إلا المصلحة دون سواها .

وأنتم تستقبحون الغدر فهل قام أمر خطير قط بغير غدر ؟ ومن كان يطمح إلى المراتب التي يكثر حولها الطلاب ، وتتقطع دونها الرقاب ، ويقف الخلق للطامح إليها بين منافس وحاسد ومتزلف وكاره . فكيف يجرؤ على إظهار ما يضمر والوفاء بجميع ما يعد ؟ ومن كان يرغب في التسلط على الخلق بما فيهم من المحاسن والخبائث فكيف يلتفت إلى محاسنهم وحدها ، ويغفل عن خبائثهم فلا يعبأ بها ؟؟ أليس هذا من الحمق والغفلة ؟ سلوا الشيوخ وذوي التجارب الذين طال تمرسهم بالأهوال والمصائب ، وحفيت أقدامهم سعياً وراء الآمال والرغائب : كم غدروا ونكثوا وظلموا وكذبوا مكرهين أو طائعين لأجل أمل صغير أو خوفاً من ضرر يسير . فما بالكم بمن يتصدى لأعظم الأوطار

ويتعرض لأهول الأخطار ؟ ولا أقصر القول على الشيوخ لأن الشبان لا يغدرون ولا ينكثون ولا يظلمون ولا يكذبون ، بل لأن هؤلاء يأثمون وهم جاهلون ما يفعلون . وهم يسمون الأشياء بغير أسمائها ، ويأتون الأمور من غير أبوابها . فإن كان فيهم من هم أطهر من الشيوخ قلباً ، وأصدق لساناً ، فذلك لأنهم لم يخوضوا غمرات الدنيا ، ولم يتجرعوا مرارتها ، ولم يطأطئوا رؤوسهم لضروراتها التي لا تقبل عذراً ولا تسمع للضمائر والأخلاق صوتاً . ولو علموا كما يعلم الشيوخ أنهم قلما يقدمون على عمل ، إلا وهم بين ضرورتين أو أكثر ، لكان الشبان كالشيوخ والشيوخ كالشبان .

وأنتم تقولون لا تخن من ائتمنك ، فليت شعري إن كانت لك لبانة لازبة ، أتقضيها ممن يوجس منك ويستعد لغدرك ، أم ممن يطمئن إليك ويثق بك ؟

وأنتم تزدرون من لا غيرة له ولا حمية عنده لعرضه . وكأي من لامز فيكم يهمس : هذا فلان العظيم كان يعلم عن زوجه ما يكره ، وكان يتغاضى عن الشبهة وإن كانت لتفقأ عينه ، طمعاً في مسعدة أو اتقاء لمناوأة . . . فهو نذل يدنس العظمة ويلوث الرئاسة ! . . رويدكم أيها السادة !! هلا قلتم إن شغفه بالمجد أكبر من شغفه بزوجه ، وإنه أشد على المجد غيرة منه على امرأة ؟ وهلا عرفتم أن البصقة تلوث الكوب . ولكن ألف جيفة لا تلوث البحر المتموج اليعبوب ؟ وزعمتم أنه نذل مزدرى ، فهلا قلتم إنه يزدري العالم حين يترفع عن أحكامه ومصطلحاته ، ويستجهل الدنيا حيث يراها تعبد المجد ثم لا تأنف أن تضع مفاتيحه بعض الأحيان في يد السفاسف والشهوات ؟

وكم ذا أفصل لكم ايها الاحياء ما أنتم مليئون بعلمه لو انتبهتم إلي . فاعلموا يا إخوتي أن الحسد والبغض والنفاق والملق والكبرياء والأنانية والقسوة والسرقة والغدر والخيانة والتغاضي عن العورات ألصق بكم ، وأقرب إلى طباعكم ، وأجدى لكم ، من العدل والحق والواجب والضمير . فهلموا بنا نقذف بهذه الأوهام في عرض اليم ولا تأخذنكم باليم رحمة . . . فيطلق القوي يده غير حاسب حساباً ولا متوقع عتاباً أو عقاباً . ويخلد الضعيف إلى ضعفه فيرضى بالخسف ولا يشكو من العسف متعللا بالعدل الذي لا يسمع نداء الضعفاء ، والحق الذي لا يقوى على كبح جماح الأهواء ، متعلقاً بالواجب الأعمى

والضمير الموسوس . والنفس إذا علمت أن لا مفر لها مما يصيبها ، وأن الأقوياء لا يتجاوزون حقهم ولا يخرجون عن حدهم في عدوانهم عليها ، وأنه لا مهرب لها من هؤلاء الأقوياء إلا إلى قوة مثل قوتهم لا قبل لها بخلقها ، هان عليها احتمال بلائها وصبرت على بغي ظالميها ـ فاسمعوا أيها الأقوياء : هذه حقوقكم ومزاياكم . واسمعوا أيها الضعفاء : هذه علالتكم وسلواكم . وآمنوا إن كنتم تعقلون .

ولما فرغ الثعلب من خطابه بهت الجمع ، فوجموا ساعة لا ينطقون لفرط ما بدهتهم آراؤه المرعبة ، فلما ثابوا إلى أنفسهم ضجوا وصخبوا ، فعلا التصفيق من جانب ، والصفير من جانب ، وكادت تكون فتنة . ولبثوا كذلك في اختلاط ولجب حتى هدأت ثائرتهم ، فسمعوا القرد يقهقه قهقهة عالية ويقول : لله درك يا ثعالة : ما أدهاك في صراحتك ، وأعظم كيدك في نصحك ، وأشد محاباتك وتدليسك في إخلاصك ! . . لقليلٌ والله عليك أن يجزيك أبو الحارث على هذه الخطبة البليغة بقفص من الدجاج . . وتوجه إلى الجمع وهو يقول : لعلكم تضحكون من تصدِّيَّ للثعلب وتولّيَّ الرد عليه والذب عن الفضيلة ، فاضحكوا ما بدا لكم ، فما هي بأولى مضحكاتي وما أنتم عن الضحك بممسكين . ثم ظهر عليه الجد وتهيأ لإلقاء خطاب طويل جليل فقال :

خطاب القرد

معشر الأحياء :

ليس بأهلٍ لعظيم من الحظ ولا يسير من لم يكن عنده من صدق العزيمة وحسن البصيرة ما يلهمه شراء الأجل الكبير بالعاجل اليسير .

ألا وإن الحياة ، معشر الأحياء ، لا تسلم لمن طلب الحياة فحسبُ ، أما من طلب غاية فوقها فتسلم له الحياة ، ويسلم له ما فوق الحياة .

ومن تمسك بالقوة وحدها أضاع القوة وتدلى إلى الضعف . وأما من تطلع إلى أعلى منها ، فذلك الذي تدين له القوة ، ويدين له ما هو أعلى من القوة .

كذلك ، يا قوم ، من قنع بالكفاف عز عليه الكفاف ، ومن طمع في الغنى ينال الكفاف وينال الغنى .

فإذا علمتم هذا ، فاعلموا أن العدل والحق والواجب والضمير لو كانت مجهولة لوجب اختراعها ، ولو كانت أوهاما مخترعة لوجب اتباعها ، لان العدل فوق المصلحة ، والحق فوق القوة ، والواجب فوق الهوى ، والضمير فوق الشريعة . فمتى أردنا أن نظفر بالمصلحة ، ونتصرف بالقوة ، ونتمتع بالهوى ، ونصون الشريعة ، فعلينا بما فوقها علينا بالعدل والحق والواجب والضمير .

أنا لا أنهج أيها السادة ، نهج المجادلين ، فأتتبع كل كلمة قالها الثعلب بالتفنيد ، وأبطل كل حجة أتى بها ، وأدحض كل رأي ندب إليه ، كأن الحق لا يقوم بين اثنين حتى يكون أحدهما مصيباً لا موضع عنده للخطأ أو مخطئاً لا موضع عنده للصواب . فقد أرى الصواب في كثير مما قال الثعلب ، وأوافقه على معظم مقدماته بل على ظاهرها كله . ولكني أراه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء . وربما نظرت مثله إلى العالم فألفيته طافحاً بالشر ، مكتظاً بالرذيلة ، حتى إذا نظرت إلى النتائج البعيدة والغايات الأبدية احتجب الشر عني فلا أرى إلا خيراً محضا .

فأما أن القوة عماد الحياة وأساس الحق وبغية كل نفس ، وأنه يحل لها ما لا يحل لغيرها ، ويدرك بالجور والغدر أحياناً ما لا يدرك بالعدل والوفاء ، فهذا صحيح لا ريب فيه . ولكن أية قوة ؟ وإلى أي حد ؟

ليست القوة ضرباً واحداً ولكنها قوتان : قوة السيل الجارف العرم ، تجتاح السدود ، وتدمر الصروح ، وتهلك الحرث والنسل ، وتطغى على العامر فتخربه ، وعلى الغامر فلا تعمره ، ثم تسيح على وجه الرمال فتذهب جفاء وينتهي بذلك أمرها ، كأن لم تكن شيئا مذكوراً . وهذه قوة الخراب .

وقوة الينبوع العذب المتفجر الفياض ، تنسرب في مجاريها ، وتسري سريان الدم في العروق ، فتروي العطاش ، وتصلح الموات ، وتنبت على ضفافها الخيرات ، وتنشأ فوقها المدن الآهلة ، فيها سكن للناس ومستراد ، والمروج

الناضرة فيها مسرة للناظرين ورزق للعباد ـ وهذه قوة العمار .

القوة قوتان ـ قوة البخار الهائم تعمي الأبصار هبوته ، وتلفح الوجوه وقدته ، وتتبدد في الهواء حركته . ثم يمحي أثره وتغيب عن الأبصار صورته ـ وهذه القوة الطائشة .

وقوة البخار المضطرب في المراجل ، يسير الجبال ، ويضاعف ثمرات الأعمال ، ويصل الغرب بالشرق والجنوب بالشمال ، ينهض بما لا تنهض به الألوف المؤلفة من السواعد والمعاول ، ويقضي في ساعة ما لم يكن يقضى في الدهر المتطاول ـ وهذه القوة الحكيمة .

القوة قوتان ـ قوة الطاغية الغشوم ، والجبار الظلوم ، يسوق الصفوف اللجبة تصخب بالحياة فإذا هي جثث يحوم عليها الحمام ، ويطرق المدائن الفخمة فتندك آكاما على آكام وركاما من فوقه ركام . ثم يقف فوق الأشلاء الممزقة والكواهل المرهقة يعجب بما بلغت إليه قدرته على الخراب والإرهاب ، ويختال بما أوتيه من سطوة التنكيل والعذاب ـ وهذه قوة الهمجية .

وقوة الجواد الغيور يرى المساكين يدلحون بالعبء فيسره أنه قادر على رفعه ، ويبصر الضعفاء يئنون من الظلم فيطربه أنه زعيم بدفعه . وينظر العتل الجهول شامخاً بأنفه فيلذ له أن يطأه بقدمه ، ويسمع دلاّل المحامد ينادي عليها في سوق الفخار فيشتريها بلحمه ودمه ، ويقصده الناس فيرى أنهم أقروا له بنهاية القدرة ساعة عرفوه بحاجتهم إليه ، ووفوه أجره حين مدوا أيديهم مستعينين به . ثم يقف بين غرس أياديه وثمار مساعيه فيستروح من شكر الناس له غبطة لا يستروح مثلها ذلك العتل من خشيتهم إياه ـ وهذه قوة المدنية .

فيا من يعبد القوة ! أي القوتين أحق بالسيادة وأولى من الخلق بالعبادة ؟

فلقد مضى زمانٌ كانت فيه القوة كلها من الضرب الأول : قوة خراب طائشة همجية . كان ذلك وركب العالم في أول مراحله ؛ فلما تقدم الركب اصطبغت القوة بصبغة أخرى أبقى لها وللعالم من صبغتها الأولى ، واستقامت الفطر على هذه الوجهة دهوراً وأجيالا بأمر الطبيعة أم القوتين الطائشة والسديدة ، لا بأمر عامل فضولي من خارجها ، لأن هذا العامل الفضولي غير موجود . بيد أنه كما

ينثلم المجرى أو يعوقه عائق فيتدفع الينبوع المروي سيلاً جارفاً ، وكما ينشعب المرجل فينطلق البخار المحرك دخاناً عاصفاً ، كذلك تفسد الطبائع ، فتنقلب قوة العظيم بلاء على قومه ووبالاً لبني جنسه ، فيقال لها حينئذ قوة مدبرة من المدنية إلى الهمجية ، وتعد نكسة في الخلق ، وأعجوبة نصفها بشري ونصفها حيواني وحشي . وهذه هي قوة الغشمة الطامعين الذين لا يبالون شيئاً في جانب قضاء أوطارهم وإظهار أنانيتهم .

وإن شئتم برهاناً على أن العمل بالقوة فحسبُ هو خلل في الطبع ورجوع إلى حال خلَّفها الإنسان وراءه ليتبدل حالاً خيراً منها ، فانظروا أي الناس يظهر فيهم حب التدمير ، ويغلب عليهم العمل بالقوة منفردة عن الضمير . أليسوا هم الطفل والهمجي والمجنون ؟؟ فانظروا في أي مرحلة من مراحل الخلق هؤلاء الثلاثة ـ أما الطفل فهو في أول عهده بالحياة الفطرية ، وأما الهمجي فهو في أول عهده بالحياة الاجتماعية ، وأما المجنون فهو مدني سلبت منه المدنية فارتد إلى الهمجية أو الوحشية . إذ ليس الجنون إلا نوعاً من المسخ والرجعة ، وآية ذلك دور المجانين ، ترون فيها من يمشي على أربع تقليداً للدواب ، ومن سلبت منه قوة النطق فأصبح يعوي عواء الذئاب ، ويحاول الكلام كمن لم يعرف قط ما هو النطق والخطاب . ومن يأكل لحم أخيه حياً كما ينهش السبع فريسته ، ويتنمر لأخيه المشفق تنمر الضيغم أخطأ قنيصته ، وترون أمارات الوحشية بادية في ملامحهم ونظراتهم وإشاراتهم فتعلمون أي مسافة بين القوة والضمير ، وتهولكم هذه الهوة التي يريد الثعلب أن يسقط الخلق عامة فيها

أرأيتم ، أيها الصحاب ، لو بقيت كل قوة في الأرض والسماء فوضى على نشأتها الأولى ، أين كانت تكون الآن الكواكب الساطعة والأنهار الجارية والصناعات المعجزة والأئمة المصلحون ؟

ولو أن الثعلب ألقى خطبته هذه في مستهل الخليقة وفجر الحياة ، لدن كانت كل قوة حرباً على نفسها وعلى غيرها ، وكان كل ضعيف قائما وحده عزلاً أمام كل قوي ، لما عدا الواقع ولا قال غير الحق . أما والقوة قد هجمت في ألف ناحية قبل أن تنتهي إلينا ، وحاولت كل محاولة تستطيعها قبل أن تحل بنا ، وعرفت جهد ما تقدر عليه إذا انفردت بنفسها وقصارى ما تبلغ إليه إذا أعلنت

حكمها باسمها . فاليوم قد اضطرت أن تلقي مقادتها لشيء أكبر منها ، وخرجت من تلك التجارب مهذبة مستقيمة ـ ويا للعجب يا قوم ! إن الذي هذب القوة وأبطل حكمها الأعمى هو القوة لا سواها . .

أقول يا للعجب ، ولا عجب هناك ، لو أنعمتم النظر معي في الأمر ، وعرفتم أن القوة إنما سلمت للحق بعد أن أذعنت لقوة أكبر منها ، فكأنها نقضت شريعة القوة من جهة لتؤيدها من جهة اخرى ، وما ظلمها الحق ولا غلب عليها الضعف ، ولكنه نظم صفوفها وحمى الكبير والصغير منها ، فحفظها من التخاذل والضياع .

معشر الأحياء :

كأني بأول قوي عرف نفسه فاعتز بسطوته وأعجبته قدرته وأقبل يهز سيفه على رأس الضعيف ويقول له : إنك أضعف مني ، فاصدع بأمري ، وألحق وجودك بي ، وسلمني زمامك ، واعمل لي لا لنفسك ، وإلا أبدتك وهشمتك وجعلتك ترابا لقدمي . فرعب المسكين مما سمع ، وتلفت الضعفاء بعضهم إلى بعض وقد علموا بعد حين أنهم مقصودون بهذا الوعيد فرداً فرداً ، فأجلبوا وتألبوا وصاروا باجتماعهم أقوى من أقوى الأقوياء ، فكرّوا إلى ذلك المتمرد الجبار قائلين : إنك أضعف منا ، فاصدع بأمرنا ، وألحق وجودك بوجودنا ، وسلمنا زمامك ، واعمل لنا لا لنفسك . فان أطعت أطعنا ، وانتفعت بقوتك وانتفعنا . وإن أبيت أبدناك وهشمناك وجعلناك ترابا لأقدامنا . . . فعلم القوي منذ ذلك الحين أن عليه واجباً كما أن له حقاً . وكذلك نجم الحق بجانب القوة .

لا تقولوا يا قوم : حسدوه . فليس من الحسد أن يرفع القتيل يد القاتل عن عنقه .

ولا تقولوا : ظلموه . فما ظلمك من ردك إلى الحكم الذي ترده أنت إليه . ولا جار عليك من يعاملك بالقسطاس الذي تعامله به .

ولا تقولوا : أخطأوا وضلوا . فان ما تفعله النفوس بداهة بوحي الطبائع وإلهام الحياد ذوداً عن كيانها وإبقاء لجنسها وإعلاء لشأنها لا يكون خطأ أو ضلالا . ولو جاز ذلك لكان الخطأ أصدق من الصواب والضلال خيراً من الهدى .

معشر الأحياء :

إن كان في الدنيا شيء معصوم من الخطأ فهو فطرة النفوس السليمة ، لأنها لا تريد إلا ما تريده الطبيعة لها ، ولا تهم إلا بما تهم به القدرة العظيمة التي ركبتها ودعتها إلى الوجود .

سموا حنق الجماهير على العظماء كيف شئتم فانما هي أحرف تتغير ولا تتغير الحقائق والغايات . سموه حسدا أو أنانية أو اضطهاداً أو انتقاما أو غيرة أو جهلا . سموه كيف شئتم ثم انظروا إلى الباعث وانظروا إلى النتيجة ، فان كان الباعث مستمداً من الطبع والنتيجة حفظ النوع فغيروا لغتكم فهو أيسر وأجدى من تغيير قوانين الطبيعة وإرادة الخالق الحكيم .

انظروا إلى الأمم التي سادت فيها فلسفة الثعلب ، ونسي الجماهير أنفسهم فأقروا للأقوياء بالحق المطلق في التصرف بهم ، ثم أخبروني هل أفلحت تلكم الأمم ؟

انظروا إلى الهند ومصر في العهد القديم ، ألم يكن السوقة رجزا لا يجوز مسه في نظر رؤوس البراهمة ؟ ألم يكن الشعب متاعا زهيداً في نظر كهنة الفراعنة ؟ أما كان ساداتهم آلهة وأبناء آلهة ؟ هل تأشب بين الطبقات حجاب أصفق وأصلب مما تأشب بينها في هذين البلدين . فماذا أورثهم ذلك ؟ هل دام لأولئك السادة بأسهم ، واستتب لهم مدى الدهر مجدهم ؟ كلا بل أمن الأعلياء على منازلهم فأفسدهم البطر والدعة فسفلوا . وحجرت المسكنة على نفوس جماهيرهم فلم ينبغ منهم خلف لأولئك الأعلياء ، فتهافتوا ، فكانوا جميعاً من الخاسرين .

والعالم ، وفقكم الله كالقدر الفائرة لا تزال تعلو وتهبط ما دام في مائها حرارة . ادخروا أعلاها وأريقوا ما دونه ينفد الماء ولا تدخروا شيئاً . ودعوا ماءها يهدأ أو تستقر طباقه تفتر الحرارة وتخفت الحركة . والجماهير أصلحكم الله هم من كل نوع مادته وذخيرته : منها تتجدد حياته ومنها يكمل نقصه ، فمن قضى عليهم بالهوان الدائم فقد قضى على النوع بأسره قضاء يحيط ضرره بالأعلين والأدنين على السواء .

فها أنتم أولاء ترون أن التسليم للقوة يهزمها ويضعفها ، وأن مقاومتها تشحذ سلاحها وتضاعفها . فاذا كانت رحمة القوي للضعيف الإبقاء عليه فرحمة الضعيف للقوي منازعته ، وكذلك تشمل رحمة ربكم الخلق جميعاً .

ولقد يقول قائل منكم : إن المقاومة شأن الجماهير مع كل عظمة يناوئون العظيم سواء كان جباراً طاغياً أو إماماً هادياً أو مفكراً واعياً ، فان لم يقدروا على مناوأته ، أضمروا له الحقد ، وانطووا له على البغض ، وتربصوا به الدوائر ، كأن لهم ترة عنده ، أوكأنه أخذ العظمة منهم وأساء إليهم بالتفوق عليهم .

أقول لهذا القائل أصبت ونعم ما يصنع الجماهير !

إنكم تكرهون مناوأة الجماهير للعظماء مع أنه لا تثبت لعظيم عظمة إلا بالثبات على المناوأة . وتلومون الجماهير في التريث عن تلبية النوابغ كأنهم يستطيعون أن يغيروا أنفسهم كلما خطر لنابغ منهم أن يدعوهم إلى ذلك . وهم في الحقيقة لا يتريثون عن أمر يدعوهم إليه نابغ أو مسيطر إلا لأحد سببين : فإما أنه لا يلائمهم أو لأن أسبابه لا تتهيأ لهم . وعذرهم واضح في الحالتين ـ أليس الخيرُ قبل ان تتهيأ أسبابه وتتمهد مواضعه شراً عاجلاً أو مطلباً مستحيلاً ؟ فلو أنصفتم الجماهير لرأيتم في تباطئهم عن إجابة نداء النوابغ دليلاً على أن الوقت لم يحن بعد لإجابته . فكم من عظيم يرى ما لا يروقه من أحوال العالم فيخاله عيباً وما العيب إلا في تفكيره ، ويتعجل إصلاحه ثم يحسب إصرار الناس عليه جهلاً وما الجهل إلا في تعجله . ويظن أن ما يدعو إليه من بداهة العقول ، وما بديهة الفرد مهما عظم بأصدق من بداهة النوع برمته . فهو إذا أصاب أصاب من جانب واحد ، وهم بعد لا يعرفون جانب الصواب منه إلا إذا ناوأوه ، فإن ثبت أخذوا به وإن لم يثبت فقد كان الضرر في الأخذ به لا في نبذه وإهماله ـ هذا هو محك العظمة ولا محك سواه ـ على أنني لا أقول للعظماء : كفوا عن دعوة الجماهير . بل أقول لهم : ادعوهم إلى ما تظنونه صلاحاً لهم ، ثم أقول للجماهير : قاوموهم حتى يثبت لكم أنهم أهل لغير المقاومة منكم . فمن هذا وذاك يصيب العظماء الإجلال من الجماهير ويصيب الجماهير النفع من العظماء . ولولا ذلك لاشتبهت علينا الظواهر فخلطنا بين الجليل والحقير والنافع والضار والباقي والزائل .

كذلك يا قوم يصطدم الشر بالشر فيتجلى الخير ، ويلتحم الباطل بالباطل فيتضح الحق ، وتتزن القوة بالقوة فيظهر العدل ، والخير والحق والعدل قواعد لا تقوم بغير واجب . والواجب أبو الضمير .

معشر الأحياء :

سمعتم من الثعلب أن مبادىء الخير أوهام ملفقة مخترعها أوسع خيالاً من مخترع الغول والعنقاء والشيطان . فيا لتلك القريحة الهائلة ! لوددت لو تستطيع الحياة أن تنجب عقلا فذاً يقدر على اختراع العدل والحق والواجب والضمير فنفديه بنصف الأحياء ! أو يقدر إنسان واحد على أن يستعرض أمامه ميادين العصور المقبلة قبل أن يماط عنها ستار الغيب فيرى كيف تصطرع فيها القوى وكيف يراوغ بعضها بعضاً ، ويقتفي خططها المعوجة إلى أقصاها ثم يتنبأ عن الخطط القويمة التي ستضطر إلى اتخاذها فيصورها أصدق تصوير في مبادىء خالدة . مبادىء فوق ما تصف الأهواء المختلفة وتزين المصالح المتناقضة . مبادىء تصلح للنوع والفرد والقوي والضعيف والسر والعلن والحاضر والمستقبل . أيقدر على كل هذا إنسان ؟ ما هذا بشراً إن هذا إلا إله قدير .

ولكن انصار الشر قد اعتادوا ، يا قوم ، أن يصفوا أنفسهم بالدهاء والحزم ، ويصفوا أنصار الخير بالغرارة والتفريط . وسبب هذا الاغترار بأنفسهم أنهم ينظرون وراء ألفاظ الخير والفضيلة والذمة وما يشاكلها ، فيروعهم الكفاح والخديعة والظلم والغيلة ويحسبون أنهم عرفوا ما لم يعرفه أحد من قبلهم ، ويعجبون لدعاة الخير كيف تعمى عيونهم عن هذه الشرور الملموسة والظلم الواضح ، فيقولون عنهم إنهم تباع خيالات وعشاق أحلام . هذا ودعاة الخير يضحكون من قصر نظرهم مع ادعائهم بعد النظر ، ويقولون لهم انظروا وراء الكفاح والخديعة والظلم والغيلة ألا ترون هناك غرضاً واحداً عميما يشمل هذه الأغراض ويدمجها في أطوائه ؟ نعم قد يظفر الاشرار بالاخيار ، وقد يموت الأخيار قبل أن يظفروا بخصومهم لقصر الحياة واتساع مجال النضال . إلا أن الخير يتغلب على الشر في نهاية الأمر ، وإنما يمهله ويملي له املاء الواثق المطمئن إلى سلطانه ـ الاخيار يموتون والخير لا يموت ، والأشرار قد

ينتصرون والشر لا ينتصر . فالنظرة الأولى أيها القوم للخير والثانية للشر . أما النظرة الثالثة فتردنا إلى خير لا كالخير الأول الذي يظهر على وجوه الأشياء ، ولكنه خير واسع شامل بعيد القرار .

يقول السيد المسيح : « مثل ملكوت السموات رجل زرع في أرضه حنطة ، وبينما الناس نيام دب إليها بعض عدوه فدس الزؤان في بذور الحنطة ، فلما اعتم النبت وأخرج شطأه ظهر الزؤان معه . وجاء العبيد مولاهم يقولون : أولست أيها السيد قد زرعت حباً صالحاً في أرضك ؟ فمن أين له الزؤان ؟ قال : تلك دسيسة عدو . قالوا أنذهب فنجمعه ؟ قال لا ! لئلا تقتلعوا الحنطة معه وأنتم تجمعونه . ولكن تصبرون حتى يحين الحصاد فآمر الحصادين أن يجمعوا الزؤان فيطرحوا به في النار ثم يضموا الحنطة الى البيدر » .

***

فالانبياء وهم أوسع دعاة الخير بصيرة وأعمقهم نفساً وأبعدهم بديهة لا يزعمون وهم يدعون الناس إلى الخير ويأمرونهم بالبر أنهم سيمحون الشر ويقتلعونه من جذوره . ولم يجهلوا أن الخير بالشر مختلط اختلاطاً لا سبيل إلى فصله وفرزه ، ولكنهم حببوا الناس في العمل الصالح لأن الناس لا يحتاجون إلى من يحثهم على العمل القبيح ، وقالوا لهم : لا تنسوا غيركم ، لأنهم في غنى عمن يقول لهم : اذكروا أنفسكم ولينطلق كل منكم وراء مصلحته ولو صغرت لا يبالي أدركها قاتلاً أو سارقاً أو خائناً فذلك خير له من أن تفوته بحال من الأحوال . فهل يلامون على ذلك أو يقال إنهم غفلوا عن الشر الملموس ؟ أم يلام لائموهم ويقال إن هؤلاء الدعاة العلويين لمسوا الشر البعيد الذي خفي عن أعين أولئك اللائمين ؟

إنما يعمل الأنبياء على تغليب بواعث الخير على بواعث الشر . ولتعلموا أن الأنبياء لم يرسلوا إلى فلان وفلان بل هم مرسلون إلى الناس أجمعين ، فلا جرم ينصحونهم بما فيه صلاحهم جميعاً . وما اجتهد الأنبياء قط في إزالة الشر ولكنهم أنذروا الشرير بعاقبته وعلموه كيف يتجنبها ، وبشروا البار بجزائه وعلموه كيف يسعى له . وعلموا أنهم سيموتون والشر والخير باقيان إلى يوم

يبعثون . وأحسبهم لو استطاعوا إزالة الشر لما أزالوه لأننا لا نكاد نتصور الخير في الدنيا إن لم نتصور الشر بجانبه ، ولعله لا فرق بين القضاء بالموت على الناس وبين تفرد الخير بالسلطان عليهم من غير مغالبة أو مجاذبة أو ترقب نصر أو خشية خذلان .

وبحسب الخير أنه منذ اهتدى إليه الناس تراجعت القوة وتمردت النفوس على شريعتها فأصبح أقوى الأقوياء لا يجرؤ على الاعتداء والجور باسم القوة العمياء : إلا أن يتمحل لها المعاذير ويتذرع لها بسبب من الحق والعدل . فبطل القول القديم : اعمل ما تستطيع ، وخلفه القول الجديد : اعمل ما يحق لك عمله ، وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به .

ولست أعني أن القوة العمياء قد خضعت للحق كل الخضوع ، ودانت له في الصغائر والكبائر . فهذا ما لا يدعيه الحق وما ينبغي للحق أن يدعي ما ليس له . ولكن عنيت أن الناس لا يسلمون اليوم بظلمها وإن اضطروا إلى الخضوع لها ، ولا تقتنع ضمائرهم بشريعتها وإن لم تكن لهم حيلة في تبديلها . ويا ضيعة العالم إن سلموا ، ويا سوء المنقلب إن اقتنعوا . إذ ليس وراء ذلك إلا أن يسترخي الأقوياء فيفقدوا العزيمة والمضاء ، وينزل الضعفاء عن الحياة بنزولهم عن الرجاء فتنعدم القوة الحافزة المجددة بين هؤلاء وهؤلاء ، وينهار سلم النشوء والارتقاء ، إلى حضيض الموت والفناء .

فاذكروا يا قوم ـ أقوياءكم وضعفاءكم ـ أن التسليم للقوة الغاشمة يفسد القوي منكم والضعيف ، وأنه لا شيء يشرف التسليم له الأقوياء كما يشرف الضعفاء غير الحق . فاجعلوه لكم قبلة وإماماً ، واتخذوه لكم صاحباً ولزاما .

واذكروا أن العالم لم يسلك طريق هذه الآداب وله ندحة عن سلوكها ، ولم يلجأ اليها وفي وسعه الاستغناء عنها ، لأن الطبيعة لا تملك الخيار بين طريقين ، وليس لها إلا طريق واحدة هي أهدى الطرق وأقربها ، بل هي الطريق التي لا طريق سواها . فإن قال لكم أنصار الشر : نحن ننظر إلى الواقع فقولوا لهم : هذا هو الواقع أمامكم فما لكم لا تنظرون .

ولقد خصصت الإنسان بأكثر كلامي ، فلا يعتب عليّ عاتب ولا يتهمني منكم

متهم ، فإنكم لا تنكرون أن الإنسان سيد المخلوقات ، وأن الصراع بين القوة والحق لا يظهر في حياة جنس من الأجناس ظهوره في الحياة الإنسانية ، وأنا أقرب الخلق إليه وأعرفهم به وأعلاهم رتبة بعده . . .

فلم يمهله النمر حتى يتم كلامه ورفع يده ليهوي بها عليه ، فتعلق القرد بأطراف الشجر ، وترك النمر الهائج يهدر ويزمجر ، حتى وقف الأسد ، فهابه النمر ، وأصغى إليه الجمع وهم يعجبون من قوة النمر الشرس الأغم عجبهم من عجز القرد الفيلسوف عن دفعه .

وقف الأسد موقف الخطيب وألقى على الجمع الخطبة التالية :

خطاب الأسد

معشر الأحياء :

ربما انتظر بعضكم مني أن أتقدم إلى الترجيح بين حزب وحزب من المتكلمين بين أيديكم - ألا فاعلموا أن هذا ليس من شأني وما نويت التعرض له حين وقفت للكلام . وليس كلامي الذي سألقيه عليكم متوقفاً على رجحان واحد من الحزبين على الآخر . فسواء صح قول الثعلب إن العبرة بالنجح لا بكيفيته ، أو صح قول القرد إن الحق ظافر بالباطل ولو بعد انهزامه ، فأول الواجبات عندي على الحي أن يكون قوياً ، وآخر الواجبات عندي على الحي أن يكون قوياً ، لأنه لا ظفر لحق أو لباطل إلا بقوة .

وهما حالتان لا بد للحي من إحداهما في هذه الدنيا : القوة والضعف . ولئن خيرت بينهما لأختارنَّ أن أكون قوياً ظالماً ، ولا ضعيفاً مظلوماً . بل إني لأوثر أن أكون قوياً مظلوماً ولا ضعيفاً ظالماً ، لأن القوة رائعة في انخذالها والضعف مخز حتى في انتصاره .

ولقد أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن الطبيعة نفسها تحب الظلم وتقلد الظالمين آلاته وأسلحته ، ولولا ذلك لما كانت حيوانات الفتك والافتراس ، وإن صغرت ، أشدَّ وأجرأ من آكلات العشب ، وإن كبرت ، وهاكم إخوتنا

الفيل والزرافة والجمل ، فإنها مع جسامة أبدانهـا وصلابـة أركانهـا لا بطش عندها تفزع به أعداءها ولا أنفة لها تنخّيها عن إعطاء مقادتها لأصغر طفل من بني آدم . ولم ذاك ؟ أليس لأنها تتغذى بالنبات ولا تأكل من لحوم الحيوانات ؟ فكأن الطبيعة تهب الحيوان البطش والشجاعة لغرض واحد هو الاعتداء بهما . فإن لم تكن به حاجة إلى السطو وإزهاق الأرواح سلخت عنه البطش وجردته من الشجاعة . فإن بقي له بعدهما قوة فتلك قوة الصبر على البلاء لا قوة العزم على الاعتداء : قوة تحتمل الضيم من القاهرين . ولكنها لا تقدر على قهر أحد .

فيا معشر الأحياء : عليكم بالقوة لا تنيطوا لكم أمـلا بغيرهـا ـ عليكم بقـوة الاتحاد إن تخطتكم القوة في الانفراد ، وعليكم بقوة الحيلـة إن أعيتـكم قوة الاتحاد . إنما كونوا في كل حال أقوياء من عقاب الضعف المبـرم . ولسـت أغلق على الضعفاء باب الأمل فيما بين الأقوياء الطامعين من فرجات الخلاف التي لا تنسد أبداً . ولكني أقول لهم أولا وآخراً : كونوا أقوياء ثم كونوا أقوياء يكن أملكم بأيديكم لا بأيدي الأعداء والأصدقاء .

فلما انتهى الأسد من كلامه تهيبت الحيوانات أن تعقب عليه وظل كل منهـا ينتظر أن يتقدم غيره للكلام بعد الأسد . . . إذ كانوا لا يريدون أن يوافقوه على رأيه وحكمه ، ولا يهتدون إلى وجه الحيلة في مناقشته . وقد كانت المرأة تهم بالكلام بعد كل خطيب فيسبقها حيوان إلى الخطابة ، فلما رأت سكوت الحيوان في هذه المرة لم ترد أن تضيع الفرصة فبادرت إلى وسط الغاب وباغتت الجمع بهذا الاستهلال العجيب :

خطاب المرأة

سبع يخطب بين السباع ـ وهذا السبع هو هذه القائمة بينكم الآن ـ ألم يدعني بعض الرجال سبعـاً جميلاً ؟ فأذنـوا لأحـد السبـاع أن يبسـط لكم شكواه من الرجال .

شغلـكم البحـث في النـزاع بين القـوة والضـعف ، والغـلاب بين الحـق

والباطل ، عن البحث في علاقة هي ألصق بكم من كل علاقة ، أعني بها علاقة الزوج بزوجه . فرب قوي منكم لا يعرض له ضعيف في غدواته وروحاته ، ورب ضعيف لا يمنى بقوي طول حياته ، على حين لا يوجد بينكم ذكر لم يسكن إلى أنثى أو أنثى لم تسكن إلى ذكر .

ولا غرو ان سهوتم عن هذه العلاقة فإنكم لا تبخسون لاناثكم قدراً ، ولا تهضمونهن حقاً ، وأكثركم يكل إليهن اختيار من يعجبهن منكم ، فتنتخب الأنثى من تحب وتصدف عمن تكره ، فهن معكم في حال لا توجب الشكوى ولا يستحب معها التبديل .

أما نحن بنات حواء فليت لنا عند رجالنا حظوة إناثكم من ذكوركم - نحن نساق سوقاً إلى أغراض ليست بأغراضنا ، وتغمض أعيننا عمداً إلا عما يروق أزواجنا . نحن معطلات إلا عندما يشتهينا الرجال ، مقصورات إلا عما يرضونه لنا من ضروب الكمال ، لنا رؤوس ، ولكنهم يقولون إنها لم تجعل للتفكير بل لإرسال الشعور ، وحواس ، ولكنهم يزعمون أنها لأجلهم ركبت لا لإدراك الحقائق والأمور . ووجوه ، يلفونها في الحجاب لف الثياب في العياب ، وأحداق لم تخلق لننظر بها بل لينظر إليها الأزواج والأصحاب ، أخضعتنا الهمجية بالقسوة ، وأذلتنا المدنية بالحاجة ، ولكن الهمجية كانت أعدل معنا وألطف بنا من المدنية . فقد كانت توقعنا في أحضان أشد الرجال أسراً وأمتنهم خلقاً وأحماهم أنفاً . ولم يكن أفضل لنا ولنوع الإنسان من هؤلاء الرجال في تلك الأجيال . أما المدنية فإنها تجرنا إلى فراش أوفر الرجال حطاماً وأسناهم مقاماً ، من كل أعجف أصلف ، محدودب الظهر مأفون الفكر ، مرذول الخلقة والخليقة ، نقبلهم لنا عشراء ؛ ونتخذهم لأبنائنا وبناتنا آباء . لأنهم يجلبون لنا الطرف الثمينة ، ويكفلون لنا اللهو والزينة : حاجات المدنية الخاوية ، وعلالاتها الخاطئة الغاوية . أما حاجات الطبيعة المكتوبة في كل ذرة من ذرات أجسامنا : من رونق للصبا يرقص له قلب المرأة ، ونضرة للعافية تتشوق إليها جوانحها ، وخصال نبيلة وصفات رائعة وروح خلابة يسرها أن تنقلها إلى أبنائها وأن تنجب جيلا كله مصوغ في قالبها ، فقد علمتنا المدنية أن ننزلها المنزلة الثانية بعد حاجاتها . فإذا نسينا انفسنا طرفة فتغلبت إرادة الطبيعة القهارة علينا

فنلنا من تلك الحاجات نصيبنا ، كان أول من يسفهنا ويهجرنا آباؤنا وأهلونا ـ أو نحن نحتال كي ننال منها خلسة فنغتنمها ما خفي سرنا ، فإذا انكشف أمرنا للناس كان القضاء القائم بالعدل الكاذب بين الناس أول من يضطهدنا ويسمنا بميسم خزي لا يمحى .

ظلمتنا الهمجية فجعلتنا إماء للرجل نعيش في رقه مَا عاش ، ونهلك معه متى هلك ، كأنها لا ترى لنا حياة مستقلة عن حياته ، وقواماً يجوز أن يستمر بعد مماته ، وقد يورثنا أبناءه كما يورثهم الشاء والنعم ، أو يئدنا رضيعات كأن وجودنا ضرب من التهم . وكان المعول في تلك الأجيال على العنف وبسطة الجسم فلم يخصنا هذا الظلم بل شاركنا في أكثره كل ضعيف مغلوب على أمره : رجلا كان أو امرأة ، حراً كان أو أسيراً . وكنا لا نعقل ما المساواة بل كنا نحسب أن العدل ما يصنع بنا . فلما تعاقبت الأجيال ؛ وحالت الأحوال ، واشتدت الملاحاة بين المقهور والقاهر ، وزالت الغشاوة عن الأبصار والبصائر ، عرف المغلوبون أنهم هم الأقوياء ولكنهم مسحورون بالطلسم المدثور ، وعرف الغالبون أنهم هم الضعفاء ولكنهم جالسون مجالس النفوذ والظهور ـ يهابهم الناس لمكانهم لا لجسارة جنانهم أو صلابة أبدانهم أو طلاقة لسانهم أو رجاحة أذهانهم ؛ ووقف كلاهما أمام صاحبه بادي المطاعن عاريا إلا عما فيه من فضل واستحقاق ، فنزع الأولون عن تلك الغطرسة ، ونفض الآخرون غبار تلك المسكنة ، وأصبحوا منذ ذلك الحين سواء بين يدي القانون : لأذلهم مثل ما لأعزهم من الصوت في اختيار الحكام ومراقبة الأحكام . . أفما كان ينبغي حينئذ أن تشمل هذه المساواة كل من كان مغبونا بالأمس ، نعم ولكن هذا ما لم يكن . فقد بقي النساء مستثنيات من هذه الرحمة العامة حتى في أرقى الأمم وأعرقها مدنية ـ وإن تعجبوا معشر الأحياء فاعجبوا لامرأة تملك الضياع الفيحاء والرباع القوراء والمتاجر الجوابة والمصانع الدوارة ، وتسن القوانين لإصلاح هذه الأموال وحياطتها فلا تخول في سنها صوتاً يخوله رجل لا يملك أصبعاً من ضيعة أو لبنة من دار أو علبة في متجر أو مسماراً في مصنع ؛ وتحرز إحداهن أسمى شهادات العلوم والفنون ثم لا يسعها إلا أن تيأس اليأس كله من منصب قد يتطاول إليه رجل لم يمر في حياته بشارع فيه مدرسة ـ فهل حالٌ أعجب من هذه الحال فيما تعلمون ؟ أنبلى بسيئات

الهمجية ثم نحرم حسنات المدنية ؟ فأين إذن يكون إنصافنا ومتى نخلص من أسرنا ؟

أسألوا هؤلاء الرجال معشر الأحياء : أيستكبرون على أمهاتهم وأمهات أولادهم حقاً ناله خدامهم وأجراؤهم ؟

إنهم لا يدعون أنهم أجمل منا استواء خلق وأكمل منا هندام شكل . ولو أننا ادعينا ذلك لما كان منا بدعاً في الادعاء . ومع هذا فنحن لا نزعم أن كل امرأة أجمل من كل رجل ، فما بالهم يزعمون أن كل رجل أعقل وأحزم من كل امرأة ؟

على أننا لا نذكر أن المجال اتسع لنا مرة لمجاراة الرجال فيما يباهون به من أعمال العقل والحزم فقصرنا عن شأوهم ولم نفر فريهم ، فمنا نساء الحرب اللواتي كن يقاتلن مع الرجال كتفاً لكتف نضحاً عن أوطانهن ومحاماة عن بعولتهن ، ومنا الشواعر والرياضيات والكواهن والملكات والبواحث والطبيبات . فإن كان عدد هؤلاء لا يضاهي بعدُ عدد أمثالهن من الرجال فليس هذا من خطئنا ، وانما هو خطأ الرجل الذي أهمل فينا تلك المواهب وشغلنا بما هو أحط منها شأناً وأقل نفعاً ، موافقة لأهوائه ومرضاة لكبريائه .

ونحن بعد أصلح للحياة الاجتماعية لما ثبت من ندرة الجرائم بيننا في جميع الأمم . وأصح تركيبا ومزاجا لما تقرر من قلة الوفيات منا في الطفولة والهرم ، فنحن غبينات إن رضينا بهذه القسمة الضيزى ، نحن خليقات بالغبن إن لم نطالب لأنفسنا بخير منها . وها أنتم أولاء مجتمعون ههنا لتبعدوا أسباب التخاصم وتقربوا وسائل التفاهم ، فهلا أهبتم بالرجل أن امنع الغبن من بيتك قبل أن تمنعه من الدنيا وارفع الصغار عن أمك وزوجتك قبل أن ترفعه عن الناس ؟ إنكم لا شك فاعلون .

وجلست المرأة وهي توهم نفسها أن إناث الحيوان ستهب على الفور للأخذ بناصرها ، فلم يحصل شيء من ذلك ، ونظرت كل أنثى إلى صاحبها ، وهي تبتسم ابتساماً لم يعزب عن السامعين مغزاه . ثم بادر الرجل فقال :

خطاب الإنسان

معشر الأحياء :

كنا نحذر كل الحذر من يوم تصل المرأة فيه إلى نصيب ولو قليل من الحرية ، فتنظر إلى نفسها بعين المعجب المفتون كما كانت تنظر إلى وجهها بهذه العين آلافاً من السنين . لأننا نعلم أن المرأة شديدة الطيش والغرور ، لا تنال القليل حتى تطمع في الكثير ، ولو أنها حرمت كل شيء لما طمعت في شيء ما . ثم هي لا تجد ما يساعد غرورها حتى تذهب فيه أبعد مذهب ، ولا ترى مسألة مهما ضخمت أكبر من أن تخلطها بسفسافها وألاعيبها .

قامت المرأة بينكم اليوم تطالب بشيء ليس من ضروريات حياتها ، ولا هو مما يلزمها لأداء وظيفتها الطبيعية ، وإنما نراهاتطالب بضرب جديد من الزينة سمعت باسمه فتعلقت به كما يتعلق الطفل بما يسمع عنه ولو كان مقره وراءالنجوم . فلا تصدقوا معشر الأحياء أن المرأة تطلب الحرية لأنها تفهم الحرية ،ولكنها تطلبها كما تطلب قرطاً نفيساً أو ثوباً من الزي الأخير ، ولو صبغنا لها الحرية باللون الذي ألفت به الاستعباد لما استطاعت أن تميز بين هذين النمطين من الثياب . ثياب النفس لا ثياب الجسد !

إنكم قد اجتمعتم هنا لتتشاوروا في أمر ليس أجل منه ولا أصعب . اجتمعتم للنظر في مسألة الحياة كلها ومعضلة الخلق أجمع . فما كان يدور لي في حساب انني حين أتقدم للخطابة بينكم أجد نفسي أمام حماقة من حماقات المرأة المعهودة . ولكن ما العمل وهذه الحماقة لا تفارقها في موقف من المواقف ! حدثها عن كواكب السماء تقل لك ما أحلاها ! إنها تشبه اللعبة التي يلعب بها ابني أو ابنتي . . وهي تدخل في كل أمر مطالبها التافهة التي يخيل إليها أن الوجود يدور على محورها ولا ينبغي للناس أن يأبهوا لشأن من شؤون الدنيا غيرها .

لقد طالما صبرنا أحقاباً مديدة على حماقات المرأة صبر المرء على شيء لا مهرب منه . ولا بد لنا أن نصبر بعدُ على ما يمتحننا به الله من هذه البدعة التي جاءتنا بها في هذه العصور الحديثة . نصبر على كل حماقة إلا قولها إنها قد

اصبحت فجأة ـ ولا ندري كيف ؟ ـ مثلنا في كل حق وواجب ، لها ما لنا وعليها ما علينا ، وإنها اليوم لن تحل في الهيئة الاجتماعية محلا أوضع من محلنا أو تتجاوز عن حق نحن نتمتع به دونها ـ هذا لا نطيق الصبر عليه أو تطيق هي أن تكون رجلاً وامرأة في آن واحد . ونطيق نحن أن نكون لا بالرجال ننفرد بحقوق خاصة للرجولة ، ولا بالنساء نخلف المرأة في وظيفتها التي تريد أن تتخلى عنها .

أي مساواة للرجل تدعيها المرأة وهي إلى اليوم لا تجاريه في صناعة الطهي لو شاركها فيه ؟ فما اشتغل رجل وامرأة بهذه الصناعة إلا برعها واستحق أضعاف أجرها ، مع أنها قضت الدهور والأجيال لا عمل لها سوى طهي الطعام ، واشتغل الرجل في هذه الدهور والأجيال بكل الأعمال سوى هذا العمل .

لا فرق يا قوم بين أن تقول المرأة إنها مثل الرجل في كل شيء ، أو تقول إنها أرجح منه وأكمل . فلو سلمنا لها أنها قادرة على أن تجمع صفات الأنوثة من لطف ووداعة وعطف وملاحة واستعداد للحمل والحضانة ، إلى صفات الرجولة من همة وعزم وحكمة وحزم وأخلاق متماسكة وطبائع نزاعة ومواهب متنوعة ، فهل يقدر الرجل على أن يجمع مثلها بين هاتين المزيتين ؟ إن كان الجواب (لا) ، وهو حتم لا مراء فيه ، فما بالها زادها الله تواضعاً تقنع بمساواة الرجل ولا تدعي التفوق عليه ؟ وهي امرأة ورجل معاً وهو رجل فقط ؟ أليست هي حينئذ أجدر بأن تتولى السيادة في ميدان هذا العالم الكبير فوق سيادتها في عالم الحجال والمقاصير ؟

لو قام رجل فادعى أنه يستطيع أن يزاحم المرأة في الولادة والرضاع لقام في وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته وأعضائه . أما صفات الرجولة التي قدمناها فليس لها جهاز خاص ظاهر للنظر أو لعلم التشريح ، فلذلك ظنت المرأة أن ادعاءها الحزم وسعة العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع ـ مع أن الأمرين بمنزلة واحدة من الصعوبة والاستحالة ، وكل ما بينها من الاختلاف أن مزية المرأة في التركيب الجسمي ظاهرة للحس وان مزية الرجل لم تظهر بعد في شكل خصوصية جسمانية . على أن هذا لا ينفي أن آثار هذه الخصوصية تظهر في أعمال الرجل ومراميه وإن

لم تظهر أعيانها في أعضائه وجوارحه . هذا إذا كابرنا مكابرة المرأة وقلنا إن الرجل والمرأة فيما عدا الحمل سواء في كل صفة جسمية ، ثم جاريناها في القول بأن ما يبدو بينهما من الفروق حتى في هندام الجسم وهيكله الظاهر إنما هو عبث لا يشير إلى حد طبيعي بين عمليهما في الحياة .

ولقد والله أنصف (انا كريون) المرأة حيث قال وهو أسبر الناس لسرها وجهرها وأخبرهم بحولها وحيلتها : « إن الطبيعة الحكيمة قد وهبت الثيران القرون ، والجياد الحوافر ، وجعلت للأرانب سوقاً دقيقة سابقة تنجو بها ، وللأسود نيوباً حديدة قاطعة تمزق بها فرائسها ، وقد علمت الأسماك كيف تنفتل في الماء ، والأطيار كيف تنجدل في الهواء ـ والرجل أودعت قلبه الشجاعة والبأس . أما المرأة فلم تجد عليها بشيء من كل ذلك . فبم جادت عليها ؟ بالجمال . . . الجمال سلاح المرأة ومغفرها ، فمن عرفت من النساء كيف تعمل هذه الشكة السابغة فإياك إياك من سلطانها ، فالسيف والنار بعض أعوانها . . »

وليس هذا القول من قبيل المجاز لأن حقيقته محسوسة بارزة للعيان . فالجمال في المرأة كالسيف في يد الرجل . وكثيراًما صارع الجمال السيف فثلمه وفل حده وأخذ بمقاده ولا عار في الانهزام أمامه . لأن في هذا الانهزام انتصاراً للطبيعة والمهزوم أمام سلاح الطبيعة غير مغلوب ـ ما بال المرأة جهلت قدر هذا السلاح في هذا الزمان ؟ وما بالها تراه لا شيء عندها في جنب قوة الرجل ؟ هل يعجب المرأة الجميلة أن تخلع الجمال وهي امرأة لتتقلد السيف ؟ إنها لا تستحق حينئذ حب الرجل وهيامه لأنها عدو له يغلبه بسلاحه أو يزاحمه في مفاخره ، ولا تثير شغف المرأة وإعجابها ، لأن المرأة لا تشغف بامرأة مثلها ـ ألا فلتعلم أن المرأة المترجلة تصول بسلاح غير الذي قلدتها الطبيعة إياه ، فهي لا تصل بهذا السلاح الصناعي إلى غرض من أغراض طبيعتها ، وهي خاسرة بما لها من مزية على سائر النساء وليست برابحة ، فما حظها في هذا الخسران ؟

أيتها المرأة : قد أصغر هذا الزمان سلاحك في نظرك فهل تظنين أنه أنصف الرجل ؟ كلا ! ما نصيب الرجل من زماننا هذا إلا كنصيبك ، وما ظلمك هذا

الزمان بشيء إلا بعد أن ظلم الرجل بأضعافه - إن العيوب الاجتماعية التي أصغرت سلاح الرجل الطبيعي في نظره وجعلت الدينار فوق الأخلاق والمواهب والقوى ، هي العيوب التي جعلت المال فوق جمالك وفتنتك ، فلا تحسدي الرجل على قسمته ولا تزاحميه في شقوته ، بل عاونيه على الرجوع إلى حالة ترغبينه فيها لشجاعته وقدرته ومزاياه لا لقصوره وضياعه ، ويرغبك فيها لشجاعته وقدرته ومزاياه لا لقصوره وضياعه ، ويرغبك فيها لجمالك وشمائلك لا لميراثك ورتبة أبيك .

أيتها المرأة : ارجعي إلى أعماق نفسك ، هل تجدين نعمة من النعم تسرك كما يسرك الجمال ؟ هل تصبين في نفسك إلى غرض أحب إليك من تملك قلب الرجل ؟ فبماذا تملكينه ؟ أبالعلم والفلسفة والصناعة ؟ لا بل بالطبيعة . . . بالجمال سلاحك وعدتك . وكل جمال لا يبلغك هذه الأمنية جمال عقيم لا تنتفعين به ولا تغبطك عليه أترابك .

أيتها المرأة : كأنك قلت منذ هنيهة متباهية : أنا أجمل من الرجل . . . نعم أنت أجمل من الرجل في عين الرجل ، أما في عين أختك فأقبح رجل أجمل منك وأحب إليها ، ولو كنت تمثال الزهرة حسناً وحوراء الجنة شباباً . فلا تظني أنك كنت تتحلين بهذه الحلية لو لم يردها الرجل لك . أليس جمالك الأنثوي هو الثوب الذي أعجب الرجل أن يراه على جسدك قد ألبسك إياه فلبسته ؟ وهل أنت التي تحبين هذا الجمال لنفسك أم هو الذي يحبه لنفسه ؟ وهل كنت ترين مسحته على وجهك ورواءه على أعضائك أم هو كان يراه فيختار منه ما يحلو له فيبقى عليك ويزهد فيما لا يلائمه فيزول منك ؟

أيتها المرأة : لا تقفي بثوب العرس تقولين للرجل إن ثوبي أفخر من ثوبك ، فإنه هو الذي أهداك إياه ولو لم يعجبه لما أعجبك !

معشر الأحياء :

قالت المرأة بين ايديكم : إن الرجل يظلمها إذ لا يرى لها من المحاسن إلا ما يروقه ، فإن كانت المرأة تعد ذلك ظلماً فهو العدل جد العدل في حكم الطبيعة .

نعم نحن نشنأ المرأة المترجلة . ولكنا لا نشنؤهـا اتباعـاً لنـزوات الشهـوة الطائشة أو التماساً للّذة العاجلة . ولو فرضنا أننا نشنؤها لذلك أفلا يعوزنا أن نعرف لم كانت خصال الأنوثة في المرأة ألذ للرجـل وأجلـب لاستمتاعـه من الترجل وخشونته ؟ وما دام الرجال كلهم مجمعين على شناءة المرأة المترجلة ألا يشير ذلك إلى أن في باطن هذا الهوى سراً فوق إرادة الرجل والمرأة جميعاً ؟

نحن نشنأ المرأة المترجلة لأن الطبيعة علمتنا ان نشنأها علـى الـكره منـا . الطبيعة تبذل لكل جنس ولكل نوع من المزايا ما يحتاج إليه وتحرمه ما هو في غنى عنه . الطبيعة تقسم هباتها بميزان دقيق لا يختل قيد شعرة . والطبيعة هي التي تحببنا في المرأة الخفرة العروب ، فسبيلنا أن نعلم من ذلك أن هذه المرأة الخفرة أجمع لصفـات الأنوثـة من سواهـا . وأن خلوهـا من صلابـة الرجـل وخشونته دليل على أن صفات الأنوثة ملأتها وحافت فيها على صفات الرجولة . فهي لذلك أوفى بغرض الرجل من كل امرأة أخـرى ، وهـي أصلـح لغـرض الطبيعة الذي تريده منها ومنا . وأي غرض لها من النساء إلا ان تجعلهن أمهات صالحات لولادة أحسن النسل وإفراغ البنين في أحسن قالب ؟ فكأن الرجل اذا بصر بامرأة مترجلة أدرك بالغريزة أن رجولتها تحيف على أنوثتها ، وأنها لا تليق أن تكون أماً لأولاده فنفر منها قلبه واجتواها طبعه . وقد يألف عشرتها ولكن كما يألف صديقه أو صاحبه لا حليلة أو حبيبة .

لم تنفر المرأة من الرجل المتأنث المترهل ؟؟ أليس لأنها تعرف بفطرتها أن استجماعه لأوصاف الأنوثة ناقص من أوصاف الرجولة التي تنشدها فيه ؟ فما لها إذن تلوم الرجل على كراهية المرأة المترجلة كما تكره هي الرجل المتأنث؟ وما هو الظلم الذي تشكوه منه ما دام كلاهـما مسوقاً إلى غاية واحدة ؟

إنكم ربما وجدتـم المـرأة تخـوض في بحـار الثـروة ، وتلعـب بصولجـان السلطة ، وترفل في سرابيل الجاه والسمعة . فإن فقدت مع هذه النعم شيئاً من شمائل المرأة التي يحبها الرجال في النساء كالملاحة والخفر والطراءة والظرف والولادة والحب ، حزنت لفقدانه حزنا لا يعادله سرورها بتلك النعم الجليلة التي لا يتوق رجل من الرجال إلى أعظم منها . لأن شمائل المرأة أرسخ في تكوينها وأقر لعينها من هذه المطامع والجدود . وقد لا يسرها أن تكون أحسن

من أحسن رجل إن لم تكن أحسن من أحسن امرأة . بل هي متى وثقت من أنها أحسن النساء لم تبال أن يرجح عليها أحقر رجل تحت السماء . يروى أن الملكة الياصابات لما نقل إليها أن ملكة ايقوسية وضعت ولداً وسيما ؛ قالت لمن حولها بغم وكمد لم تحاول إخفاءهما : « ها قد أصبحت ملكة ايقوسيا أماً لولد وسيم ، وأنا بعد ذلك الشيء المقفر العقيم » وما أدراكم ما الياصابات ؟ هي أذكى الملكات في العصور المتأخرة ، وأكيدهن وأرشدهن وأعرفهن بالحكم . أنتج رأسها لما عقم بطنها ، ونضجت فيها الملكة لما تعطلت فيها المرأة ، وحيي طمعها لما مات قلبها ، فعاشت وماتت وهي تعزي نفسها بما قالته لمجلس النواب يوم اقترح عليها الزواج : حسبي أن أعيش وأموت فيكتب على قبري : « هنا مثوى الياصابات الملكة البتول » ولكنكم رأيتم كيف كانت حسرتها على البنين وهي أم السلطة والمال .

تذكرنا المرأة بالمساواة الحديثة ، وقد تعني بها مساواة الانقلاب الفرنسي ، فحباً وكرامة : نحن لا ننسى مبادىء هذا الانقلاب الجليل . ولكن المرأة نسيت أن تبين لنا هل كان الانقلاب الفرنسي انقلاباً اجتماعياً أو انقلاباً طبيعياً ؟ وهل كانت غايته تحويل مواقف الطبقات أو نسخ خواص الأجناس والمخلوقات ؟ فأما وقد علمتْ وعلمنا أنه انقلاب اجتماعي فحسب ، فلتعلم أنها قد نالت من هذا الانقلاب ما ينبغي أن تناله من المساواة حسب مركزها الاجتماعي . فمالها اليوم موفور ، وأمنها مضمون ، وحقها يصونه القانون كما يصون حقوق الرجل . أما أن الانقلاب الفرنسي يبيحها الخروج عن جبلتها ، وأن لا تلد وأن لا ترضع أولادها وأن تهجر المنازل إلى الدواوين ـ فهذا ما لا يفعله هذا الانقلاب ، وإنما هو يحتاج إلى انقلاب في جسم الطبيعة يقلب عاليها سافلها والعياذ بالله !

معشر الأحياء :

هل لكم في فكاهة أسوقها إليكم مما أحفظه من حكايات القدماء . . . . يحكى أنه فيما سلف من الزمان وقف جماعة من أهل الفضول على ساحل البحر اللجي . والسابحون في غمرته تتقاذفهم أمواجه . وتنفغر تحت رؤوسهم فجاجه . فيهوي فيها الغريق تلو الغريق ،وهم يرون الطريق الى الساحل ولا

تنفتح لهم الطريق . فأومأ أولئك الفضوليون بعض لبعض يقولون : تالله لنحن أمهر في السباحة من هؤلاء السابحين ، إذ نحن لا نغرق وهم يغرقون . . . أليس هذا أيها الإخوان مثل المرأة والرجل إذ تقول له إنها أصلح منه للحياة الاجتماعية لأنها أقل منه جرائم وأسلم جانباً ؟ ما للمرأة والجرائم وقد أعفاها الرجل من مضانك الكدح وكفاها مؤونة النزول في زحام الحياة ؟ شاطرها ماله وجاهه وقاسمها سعادته وصيته وهي في كسر بيتها لم تشمر معه ذيلا ولم تجرد سيفا . وهبوها كانت بحاجة إلى الجرائم فمن أين لها القلب الذي به تجترىء ، والساعد الذي به تصول ؟ والحق أن المرأة ليست بأسلم جانبا من الرجل كما تقول لأنها أميل منه إلى الشحناء والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاقم الجسيم ولم تتفق أمرأتان على الهنة الواهية الطفيفة . ولقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها ، لأن أكثر الجرائم إنما يقع بسببها ولأجلها . فهي تدرك ما تشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعتها ، وقلما تقع مصيبة كارثة إلا كان وراءها وطر لامرأة تقضيه بيد المجرم بعيدة عما يتعرض له من العقاب . وهي وإن كانت أقل من الرجل عيثاً وإجراماً فما هي بأقل منه خطايا وآثاما . فلها من الجريمة أخس الجزءين وأضعف الجانبين ، لأنها تشارك الرجل في خبث النية ، ولا تشاركه في القلب الجريء واليد القوية . والرجل قد يفعل فعلته مغمض العين بباعث الغضب أو الألم فلا يهمه آلمت غيره أو لم تؤلمه . مثله في ذلك مثل السبع الذي يوثبه الجوع إلى قتل الفريسة وهو لا يسيء النية بها . أما المرأة فالإيلام همها الأول ، والنكاية عندها غرض مطلوب لا زيادة عارضة . وذلك لؤم معروف في الضعفاء لا يخجلون منه لأنهم يجهلون مكانه من الفسولة والرداءة .

ولقد نرى أن المرأة ما برحت أبعد عن أوضاع المدنية وفروضها من الرجل . مثال ذلك أن المرأة كما يعلم الخبيرون تؤتمن على كنتها وقد لا تؤتمن على بنتها . لأنها لا تبالي من أي الرجال تلد بناتها ، ولكنها تبالي كل المبالاة أن تلد كنتها من غير ولدها . وذلك لأن الطبيعة لا تندبها لغير إنتاج الذرية سواء كان إنتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه .

ولا نتكلم عن رعاية الحدود والواجبات فقد عرف الناس ان المرأة في ذلك

كالطفل تتشبث بما تروم ، وتولع بما ترضى وتشتهي ولو كان لغيرهـا فيه حق مهضوم .

وثم فكاهة أخرى أيها الرفاق مما أحفظه من حكايات القدماء . . . فقد قيل إن النبات صاح بالحيوان عام كذا وكذا قبل ميلاد آدم عليه السلام ، فقال بصوت سمعه الثقلان : أيها الحيوان ـ أنا أصح منك مزاجا وأقوم تركيباً ، لأنني أطول أعماراً وأثبت في الأرض قدماً . فمني ما يعمر خمسة آلاف سنة وليس منك ما يناهز المائتين ! فلم ينشب أن صاح بهما الجماد من ورائهما قائـلا : بل أنـا أصح من كليكما لأنني أعمر أدهاراً لا تعرفون ما أوائلها وما أواخرها ، إلى آخر ما قال . . . . . . أليست هذه أيها الرفاق حكاية المرأة والرجل حين استدلت بطول العمر على صحة التركيب واستقامة المزاج؟ لا ننكر أن العلماء لاحظوا في الزمن الأخير أن النساء أطول أعماراً من الرجال ، وأن الوفيات بين البنين أكثر من الوفيات بين البنات ، ولاحظوا أيضاً أن الأولين أنشط وأصعب مراساً من أخواتهم ، ولكنهم لم يهتدوا إلى تعليل بات لهذه الحالة ، فمنهم من عللها بأن رؤوس المواليد الذكور أكبر من رؤوس الإناث ، فلذلك كانت ولادتهم أصعب والخطر عليهم أثناء الولادة أشد . . . ومنهم من عللها بأن النساء لا يتعرضن للمتاعب ولا يتجشمـن المعاطـب ، فلا يسـرع المـوت إليهـن إسراعـه إلـى الرجال . وهما تعليلان وجيهان في هاتين الحالتين . أما في حالة الطفولة فلا نسمع بتعليل مقنع مقبول . ولا يعجبنا رأى القائلين بأن علة الموت الكثير في البنين قلة غذائهم وأنهم لا يصيبون من الغذاء ما يصيبه البنات . فإننا لا نفهم لماذا يأخذ البنون كلهم دون كفايتهم من الأكل ويستوفي البنات كلهن كفايتهن منه . أليس في المسألة سبب آخر ؟ .

نعـم . سبـب ذلك فيمـا نرى مرتبـط بتفـاوت سن البلـوغ بين الجنسين . فالجارية تراهق قبل الغلام ، والمرأة تستكمل نماءها قبل الرجل ، لأن وظائف بنيتها أقل من وظائف بنيته ، فهي تبلغ حدها الأوفى وهو لمـا يبلغـه لتشعـب جهات قوته واختلاف خصائص بدنه ؛ وكذلك يكفي غذاء الطفلة لوقاية جسمها من الآفات ، لأنه ينصرف إلى جهة واحدة وهي إشباع الجسم ، فتكون أسرع نموا وأمنع على الأدواء بنية . أما الطفل فلا يكفيه غذاؤه ، لأن بعضه ينصرف

إلى إعداد قواه العقلية والنفسية التي يتفوق بها الرجل على المرأة ، فيكون نصيب جسمه من غذائه وإن كثر أقل من نصيب الطفلة من غذائها وإن قل . ويغلب أن ينصرف غذاء الطفل إلى توثيق الأعصاب والعضل ، وينصرف غذاء الطفلة إلى تربية الأنسجة اللحمية وإصلاح الدم . ولا يخفى أن النشاط والارادة من أعمال الجهاز العصبي ، وأن الوقاية من الأمراض ومقاومة جراثيمها من أعمال الدم والأنسجة . فلا جرم كان الولد كما لاحظ أولئك العلماء أنشط وأصعب مراساً ، وكانت البنت أمنع بنية وأغضر جسما .

وكأننا أيها الرفاق قد وصلنا من هذا التعليل إلى نتيجتنا التي نكررها وندعمها : وهي أن الفرق بين الرجل والمرأة أصيل مستتسر يبدأ منذ سن الطفولة الأولى . ولئن قلنا فيما مضى إن مزايا الرجل لم يظهر لها في التشريح خواص بدنية محسوسة ، فالآن يسوغ لنا أن نقول إن هذه إحدى خواصها الباطنية التي تبين لنا أن الرجل يتغذى بالحزم والشجاعة ورباطة الجأش في طعامه ؛ وأن المرأة لا تكتسب مزايا الرجولة أو تستطيع أن تهتدي بنيتها إلى وجوه النماء وترشد غذاءها إلى مجاريه في عروقها ، وأن القدرة التي خلقت الرحم في جوف المرأة هي القدرة التي خلقت العقل والبأس في رأس الرجل ونفسه ؛ وبثت الهمة والاستعداد لكفاح الحياة في جسمه .

ولو لم نصل إلى هذه النتيجة من هذا الباب لوصلنا إليها من كل باب سواه . فما نظن عاقلا يتصور أن الاختلاف بين الرجل والمرأة في التركيب لا يستلزم اختلافاً بينهما في الاستعداد من شأنه أن يفرد كلاً منهما بعمل مستقل في الهيئة الاجتماعية ـ هذا ما لا يجوز في العقول ـ ولله در تنيسون حيث يقول : خلق الرجل لنيران الوقائع والمرأة لنيران المواقد ، وخلق الرجل للسيف والمرأة للابرة ، وخلق الرجل برأس مدبر والمرأة بقلب عطوف ؛ وخلق الرجل للأمر والمرأة للطاعة . وما عدا ذلك خبط وهراء . . . »

فاذا غمت علينا أيها الرفاق مقاصد الطبيعة ، وتشابهت علينا الأمور فلم نعرف في حاضرنا أسائرون على صراط الطبيعة أم ناكبون عنه ، فليكن لنا من حالة الرجل والمرأة مقياس لا يغلط ولا يكذب ، ولننذر الأمة التي تكون فيها المرأة مرأة والرجل رجلا بأنها ناكبة عن صراط الطبيعة السوي ، وأنها حقيقة بأن يحيق

بها عقاب الذين ينكبون عن هذا الصراط . وهو الاضمحلال والفناء .

***

والآن وقد فرغنا من حساب المرأة فلنرجع إلى ما كنتم فيه .

معشر الأحياء :

صدق الأسد حيث يقول إن الواجب الأول والأخير على كل حي أن يكون قوياً ـ فهذه حقيقة لا تتغير سواء أكان العدل هو الغالب على الدنيا أم الجور ، وسواء أكانت العاقبة للمتقين أم للظالمين . ولو فرضنا كما يفرض الواهمون أن التقوى عمت هذه البرية حتى أصبحوا لا يستحقر قويهم ضعيفاً ولا يخشى ضعيفهم قوياً ، فأين من يؤامن غيره باختياره ، ممن لا يأمن على نفسه إلا بعفة في غيره .

وصدق القرد حيث يقول إن الأخلاق قوة فوق القوة ـ إذ أي شيء يغل يد القاهر المنتقم عن عدوه بعد أن تتمكن من عنقه إلا قوة عليا فوق قوته الدنيا ؟ أليس العفو والحلم والصبر وما شاكلها من الخصال ، هي القوة التي لا يحمد على الخضوع لها إلا القادرون ؟ هل يوصف بالعفو والحلم الضعيف ؟ كلا ! وإنما يوصف بهما القادر الذي تغلب نفسه نفسه . وأي شيء أجمل من أن يكون الانسان مزيجاً من قوتين إحداهما رقيبة على الأخرى ؟ فيملك قوته ولا يدعها تملكه فتسخره كالآلة الصماء ؟

وصدق الثعلب حيث يقول إن مصالحنا الخاصة أظهر لحواسنا وأقرب إلى أهوائنا من المصالح العامة ، ولكنا نقول إنه حيثما وجد شيء يسمى أمة فلا بد هناك من شيء يسمى مصلحة الأمة . ولعمري كيف تقوم هذه المصلحة إن لم تقم برعاية أبناء الأمة لها ؟ وهل يقال إن هذه المصلحة قائمة إن كان أبناء الأمة يعبثون بمصلحتها كلما عنت لهم فائدة قريبة ؟ إذن لا علامة على وجود الأمة قط ، وإنما هم آحاد مبعثرون وجسم مفكك لا تدب في عروقه روح مؤلفة ، ولا تشده بنية موصولة ، ولا تعمل أعضاؤه بإرادة واحدة . وكما أن الرأس إذا أصابته ضربة مؤلمة ارتفعت اليد إليه من تلقاء نفسها لتحمل عنه ألم الضربة ، كذلك يجب أن تكون الأمة التي تشبه في مجموعها مجموع أعضاء الجسم الشاعر

الصحيح : يجب أن تنغرس في كل فرد من أفرادها غريزة تدعوه إلى تقديم نفسه لاحتمال الأذى متى تعرضت مقاتل الأمة لخطر من الأخطار، ولهذا تكثر الأريحية والمفاداة بالمآرب الخاصة في الأمم الحية القوية ، وتكثر الخيانة والجشع وعبادة المنافع في أيام انحلال الدول وتدهورها .

إن الثعلب ينظر إلى الفرد وحده ؛ فلو أننا نظرنا مثله بهذه العين الضيقة لغبطنا الرجل على فوزه ، ولو وفق إليه بالإسفاف والخداع والاحتيال . ولكننا متى نظرنا بعين الأمة لم نجد قط أمة تغبط أخرى على مصلحتها الضائعة بين مصالح أفرادها المتدابرة ، وحياتها التي يزهقها أبناؤها قبل اعدائها ، فإن لم نقدر على أن ننظر بهذه العين فذلك آية على موت روح الأمة فينا أو على أن الأمة قد شارفت الهلاك . وفي هذه الحالة يجوز لنا أن نسخر من الحق ، ونهزأ بالضمير ، ونتهكم على العدل ، ونقصر في الواجب ، فإن الميت لا يأسى على الجراح والغريق لا يحذر البلل .

وأزيد على ما تقدم أن مبادىء الحق الخالدة متجددة، وأن المصالح بائدة متقلبة . الحق مرتبط بحياة الإنسانية ، والمصلحة مرتبطة بحياة الفرد . فلو أننا أخذنا اليوم في استئصال الحق فمحونا مدلولاته من الكتب ، وحذفنا أسماءها من اللغات ، وحرمنا على الناس تخيلها والتفوه بها ، لما لبثوا جيلا أو أجيالا حتى يثوبوا فيخرجوها من حيث أخرجوها أول مرة . لأن الإنسانية كلها لا تستغرق نفسها في حزب فذ أو عصر واحد ، ولا غنى لها عن ركن تعتصم به على تداول الأحزاب وتقلب العصور .

لا الإنسانية ، أيها الرفاق ، ولا القوة نفسها تستغني عن الحق . فأي قوة أعظم وأرهب من القوى التي أعدتها أمم أوروبا في هذه الأيام ليظفر بعضها ببعض ؟ ملأت الامم البرور والبحار والأجواء ناراً وحديداً ، واستنفدت رجالها وأموالها ، وتركت مضاجعها وأعمالها ، والتفتت إلى إعداد القوة ، فجمعت في حرب واحدة ما لعله لم يجتمع في حروب العالم أجمع . ومع ذلك لم تكف أمة منها عن درء وصمة الظلم عنها ، والجهر بأنها مسوقة إلى الحرب على الكره منها وأنها لم تأت إلا حقاً ؛ ولم تعمل إلا أمراً واجباً ! فإن كان الحق وهماً كما يقول الثعلب وأشياعه فما حاجة الأمم إلى الاستعانة

بالأوهام ؟ أليس هذا برهاناً على أن القوة لا تستغني عن مؤازرة الحق ولو بلغت غايتها ؛ وأفرغت وسعها في استتمام وسائلها ؟

نعم معشر الأحياء . إن الانسانية كلها تنصر المحق على المبطل ، والإنسانية كلها تميل إلى المظلوم وتكره المعتدي . ولسنا ننكر أن الإعجاب بالقوة كثيراً ما يطغى في صدور الناس على حب الحق . ولكننا نقول إنهم إنما يعجبون بالقوة ريثما تأخذ حقها من العظمة ؛ ثم يكرهونها ليعجبوا بقوة اخرى أحق بالعظمة منها . هم ينصرون القوة الحقة على القوة الكاذبة ، ويكرهون أن تنخذل القوة ظلماً وهي خليقة بالانتصار ، فلا ضير على الحق في الاعجاب بالقوة لان الحق لا يكون في جانب قوة واحدة أبد الزمان . ولا تنسوا يا قوم ان الانسان قد يعجب بالقوة وهو يحبها ، وقد يعجب بها وهو يبغضها ، فهو يحبها اذا اعتقد ان الحق معها ، ويبغضها اذا اعتقد انها على غير حق . فأي ضير على الحق في ذلك ؟ أليست القوة حقيقة بالاعجاب ؟ إنه يعجب بها ! ! أليس الجور حقيقاً بالبغض ؟ إنه يبغضه ! فلا تسرعوا الى اتهام الفطرة الانسانية في ميولها فإنها متى اتفقت على ميل ما لم تحد فيه عن الصواب .

ولا أخفي عنكم أيها الأحياء أن الحق لفظة شائعة ليس لها مفاد معين محدد . فلقد نعلم ما هو الحق في هذه المسائل الصغيرة التي يتناوبها الناس في معايشهم آناً لهذا وآناً لذاك . فأينما عرفت هذه الحقوق فيجب وجوباً لا مثنوية فيه أن تنزه عن الليّ والبخس ، وتوضع بمعزل عن المحاباة والهوادة . فإنه ليس أقتل للهمم ولا أفسد للأخلاق ولا أكسد للمساعي والأعمال من شعور قوم بضياع الحق بينهم .

بيد أننا قد نجهل وجوه الحق المطلق المشرف على الوجود بأجمعه . لأن هذا الوجود لا يكاد يبين لنا حكمته فيما كان فكيف بما سيكون ؟ وكأيٍ من نهضة كبرى شغلت التواريخ ، وصعدت بأناس إلى أفخم مقاوم السؤدد ، إذا كشفناها تكشفت عن عميم من المساوىء والأوضار ، وألفيناها منطوية على كثير من الكذب والجهل والاقتسار ، فإذا نحن قسناها بما نتحاكم إليه من مبادىء الحق اليومية ، لاحت لنا كأنها عمل باطل من البدء إلى النهاية ـ وما خلت قط نهضة

دينية أو اجتماعية من هذه الأشياء ، فكيف تكون نهضات الإنسانية كلها باطلة مزيفة ؟ وعلام المعول إذن في الاهتداء إلى هذا الحق أيها الرفاق ؟

ثم إننا نجهل الغاية من تنازع الأمم ، ومتى جهلنا الغاية فكيف نحكم على الواسطة ؟

نقول أيها الأحياء إن الوجود الذي أخفى عنا كنه أعماله لم يحرمنا من بصيص نلمح بنوره حكمته الخالدة . ونحن نعلم علم اليقين أن العقيدة هي قائدة الأمم إلى بلوغ أغراضها . فما من نهضة قط قامت على غير عقيدة ثابتة فأفلحت . وحسبنا من هذا دليلاً على أن العقيدة هي الابرة التي تتجه بنا إلى قطب الوجود : هي الهادي إلى نياته ومقاصده ، فلا معول في الاهتداء إلى الحق الأعلى الشامل الخالد إلا على العقيدة . فهي رائده وعليها سمة من سماته الأبدية . ذنوبها مغتفرة عند أياديها ، ونقائصها منسية في جنب كمالاتها . على أنها لا تذنب إلا متى تزعزعت ، ولا تنقص إلا إذا تشككَت . أما وهي قوية مكينة فلن تراها إلا وفي جوفها نار تصهر أوشاب الطبائع فتطهرها ، كما تصهر نار البركان أوشاب الأرض فتفجرها سيلا أحمر يتأجج ناراً ، ويتدفق تياراً ، ويطير في الفضاء إعصاراً . فلا تعرف أماء هو أم لهب ، وحديد هو أم ذهب ؛ لكنه على أيّ صورة قوة جارفة صادعة ، وحركة من صميم الأرض ثائرة ، وإلى عنان السماء نازعة . كذلك العقائد تصهر الطبائع المختلفة ، وتحيلها إلى طبيعة مدمجة حارة ، لا فرق بين عقيدة في مذهب أو رجل أو وطن أو دين أو أمل كبير .

ولا عجب ـ والعقيدة علامة نية الوجود ـ أن لا يكون أثرها مقصوراً على قوم دون قوم . فلعل الشعب الذي تظهر فيه لا يكون أوفر الشعوب قسطاً من نفعها . وهذه المانيا عدوة فرنسا اللدود قد انتفعت بالثروة الفرنسية أكثر مما انتفع بها الفرنسيون ، فضمت شملها وألفت وحدتها . ولولا الثورة الفرنسية لما أحست ألمانيا بحاجة إلى الانضمام ، ولما صارت شيئاً مذكوراً في قليل من الأعوام . فالعقائد تتجمع حيناً بعد حين إلى أن تهب هبوب الصرصر العاتية ، فتحرك الحياة الإنسانية الراكدة ، وتستفز العناصر العاملة في الشعوب والأقوام من كل فج عميق . وهي عناصر طبيعية ، كالرياح التي لا تقف في مهابها ،

والسحاب الذي لا يهطل في مناشئه ، والأنهار التي لا تجمد في منابعها . ولكنها تجري حيث يجريها القدر المجهول ، من وراء حجابه المسدول . وكأنه ليس على العقائد إلا أن تتحرك فتأتي من العجائب بما لم يخالج أنصارها المتشيعين لها ، ولم يدُر في حسبان أعدائها الحانقين عليها . فالانقلاب الفرنسي لم ينشر في ألمانيا الحرية والإخاء والمساواة ، وهي المبادىء التي كان زعماء الانقلاب يرمون إليها ويعنون بنشرها ، ولكنه نفعها من هذه الطريق التي ما نظر إليها الفرنسيون ولا حلم بها الألمان . وكان له في كل أمة يد خلاف يده في سواها .

إن الفكر يقودنا إلى حيث نعرف . أما العقيدة فتقودنا إلى حيث تعرف الطبيعة ، وهي أهدى منا وأبصر بغايتنا ـ كفلتنا ردحا من الدهر أيام كنا في غيابات الجهالة لا مرشد لنا إلا ما تأمرنا به أو تنهانا عنه ، ولا تزال تكلؤنا وترعانا كلما أضلنا الفكر بنوره الضعيف . وما أضل الذين يرون أن الفكر وحده يحكم الدنيا . . . . لا أيها المفكرون ! الفكر لا يحكم الدنيا ولا الإنسان . نحن بالفكر قد نفهم الحياة ولكننا إنما نحيا بالخوالج والعقائد ، وإنما يحيا الذين خلقوا للحياة . أما الذين خلقوا للفكر فقد يكون حظهم من فهم الحياة كبيرا ولكن حظهم من الحياة غير كبير . فما أخسر أمة عندها الفكر وليس عندها العقيدة ! . . . ما أظن فكرها هذا إلا مودياً بالرمق الباقي فيها من الحياة .

وأي شيء بعيشكم أظهر ليد العقيدة في العالم ، وأبين عن كنهها المعجز العجيب ، وأنها لا وازع يساويها ولا باعث يفعل فعلها ، من هذا الإجلال المقدس الذي يخص به الناس رسل الأديان وأصحاب الملل دون عامة العظماء والمشاهير ؟ كم خلا في أرضنا هذه من فلاسفة مصلحين وحكماء مرشدين وعلماء محققين وشعراء مفلقين وسواس محنكين وقواد مدربين وصناع مخترعين ؟ كم خلا من أمثال هؤلاء في الأرض ثم نسيهم الناس وأذالوهم وبقي ذكر هؤلاء النفر المعدودين أسيرَ من كلَ ذكر يرام ، ومقامهم عالياً فوق كل مقام ، متفرداً فوق رؤوس الألوف من الأقوام ، الذين ما زالت تقذف بهم الأرحام ، وتتلقفهم الرجام ، من قديم الأزل إلى هذه الأيام ؟ إن خلد أولئك أحقاباً خلد هؤلاء ادهاراً وآباداً ، وان ذكر اولئك بين الدراسين والقراء ذكر

هؤلاء في الجهر والخفاء ، وظهروا في كل أرض وسماء ، كأنهم كواكب السماء ، لا ذرية آدم وحواء . وإن قرنت أسماء أولئك بالثناء والتكريم ، قرنت أسماء هؤلاء بخالق الكون القديم كأنهم جزء من ذلك الوجود السرمدي . وكأنهم شهدوا معه خلق العالمين العلوي والسفلي ، ـ فهل نقول إن الفطرة الإنسانية بنيت على الزيغ . وأشرجت على الزلل ، أو نقول خدعة صادفت غفلة كما يقول الثراثرة المتفيهقون . . . . يسر الله لهم الأمور ما أيسر عللهم وأريح بال الباحثين معهم ! أما نحن فنقول إن هؤلاء النفر الأعلام يتبوأون بين البشر هذا المحل الأوحد الذي لا يدانيه الملك والفتح والحكمة لأنهم جاؤوا إلى البشر بما لم يجئهم بمثله الفاتحون والحكماء ، ولأن البشر أحوج إلى العقيدة منهم إلى ثمار الأستاذين والرؤساء ، وأنهم إن كان لهم تاريخ في صحيفة الحياة ـ فذلك تاريخ العقائد والأنبياء لا تاريخ الأقوال والآراء ، أو الوقائع والأنباء ، أو البخار والكهرباء .

فالمرء يصغر كل عظمة في جانب عظمة النبوة لأنه مدين للأنبياء بيقينه وإيمانه ، وما هو مدين لغيرهم من المشاهير إلا بعروضه وأمواله . ولن يستوي الايمان والعروض والأموال . لأن المرء إذا أخلص في الايمان يفدي العقيدة بالمال ولن يفدي المال بالعقيدة ، وهو يصنع لحماية عقيدته ما ليس يصنع بعضه لحماية نفسه وولده ـ انظروا إلى العرب فإنهم فتحوا مصر مرتين : مرة على يد الرعاة ومرة على يد المسلمين . لبثوا في المرة الأولى ما لبثوا ثم أخرجوا منها فلم يتركوا بعدهم أثراً . واستولوا عليها في المرة الثانية فأصبح دينهم دينها ولغتهم لغتها وفخرهم فخرها وأصبح تاريخهم لا ينفصل عن تاريخها . لأنهم كانوا في المرة الأولى رواد كسب وكانوا في المرة الثانية خدام عقيدة . فخابوا لما عملوا لمكاسبهم وأفلحوا لما عملوا لعقائدهم . وكذلك فتح العرب الدنيا يوم كانوا يذبون عن الدين وعجزوا عن منع ذمارهم يوم صاروا يذبون عن التراث والبنين .

إن موسى وعيسى ومحمداً وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين لم يكونوا لاعبين ولا خادعين واهمين . بل هم عاملون لا يشبههم غيرهم من العاملين . وليست نهضاتهم الخطيرة مصادفات بتراء منعزلة عن حوادث هذا الكون الواسع

الكبير ، فنقول إنها فلتة لا تنطبق على أحكامه ولا تدل على غاياته . ولو قيل إنهم طلاب مجد وعشاق خلود ، قلنا : ولم يطلبون المجد ويعشقون الخلود ؟ ؟ وما الذي جعل تعشقهم للمجد والخلود ينتهي هذه النهاية في نفع الخلق واستجاشة أفئدتهم وعقولهم وأنفسهم ؟ - أمضطرون هم في ذلك أم مختارون ، وقائدون هم في فعلهم أم منقادون ؟ لا بل مضطرون لا يد لهم فيما يأخذون وفيما يتركون ، ولا اختيار لهم في خلق أنفسهم بحيث ينادون الناس فيطيعون ، وما قصدوا ما كان من آثارهم وما يكون ، ولكنها تمت وهم لا يعلمون - وكم قصد العظماء نفعاً للعالم فلم يتم ما قصدوه ، وتم النفع من جهات عدة لم تخطر لهم على بال ولم تقع منهم في ظن أو تقدير . بل تم من الأمور بسببهم ما لو فطنوا إليه قبل وقوعه وعلموا أن أعمالهم تؤدي إليه لما عملوه ، ولعملوا ما في وسعهم لإحباطه ومنعه - ريشيليو أراد أن يؤيد الملكية في فرنسا فأسقط الملكية - ألا يدل ذلك وأمثاله على أننا آلات مسيرة لقدرة لا نهائية عميقة الحب والخير ؟ ألا يجب علينا أن نؤمن بتلك القدرة وننيب اليها ما دامت تحيط بنا وبأغراضنا ، وما دامت تفعل من أجلنا وبأيدينا ما لا يدور بأخلادنا ؟؟

معشر الأحياء :

إن كان الأسد يقول لكم عليكم بالقوة فأنا أقول لكم عليكم بالعقيدة لأنها تقوي الضعيف وتضاعف قوة القوي . وغاية الفرق بين ضعيف وقوي فيها أن الضعيف تحمله عقيدته ، فلا ترى فيه إلا عقيدة سائرة ، وأن القوي يحمل عقيدته فترى فيه العقيدة والمعتقد . وهي في الحالتين تخرق العادات ، وتنجز الآيات المدهشات .

في القوة ترون عقيدة الفاروق وهو يحتد في عدله ويعدل في حدته . ويرهب النيل وما بالنيل من رهب أو رغب ، ويعجب لموت النبي وما في الموت من عجب . هل أطمعته العقيدة حتى بطاعة الجماد والتمرد على الموت ؟ يقيم الحد على ولده وله مندوحة عن جزائه ، ويعلن الأذان بين جنود الكفر وأبنائه . ويهم بالخطوب الجسام فما هي إلا كرجع الصوت ، ويهور الممالك بشراذم لا يملكون من أنفسهم ما ينفسونه على الموت - هذه هي العقيدة في القوة .

وفي الضعف ترون العقيدة في جان دارك العذراء النحيلة وهي تزجي عسكراً وتتوج أميراً . وترونها تحت أسوار أورلينز والدمع يطفر من عينها ، والدم ينفر من عاتقها . وهي تترامى على الأسوار كأن الحمام لا يجرؤ عليها او يحقق الله وعده بإنقاذ فرنسا على يديها ـ هذه هي العقيدة في الضعف .

واعلموا أنه لا يأس من أمة ما بقي فيها استعداد للعقيدة ، وأنه لا أمل في أمة قد نضب فيها هذا المعين السماوي مهما أعجبتكم ظواهرها ، وغرتكم بوادرها ، فانه لا عمل بغير أمل ولا أمل بغير إيمان .

وإذا كان القرد يقول لكم عليكم بالحق فأنا أقول لكم عليكم بالاعتقاد بالحق . لأن أنفع ما في الحق الغيرة عليه والسعي إليه . ولعمري لقد أصاب القرد حين قال لكم إن حياة البرية في بقاء الحق والباطل متغالبين ، لا في اجتثاث الباطل وازهاقه . وإلا فهل حالة أشنع ـ لو صحت ـ من تلك الحال التي يتمناها بعض الحالمين ؟ يتمنون أن لا تطلع الشمس إلا على ذي حق لا ينازع فيه ، والا على ارض لا يجد ما يشكو منه ، فإن تم هذا ـ ولن يتم ـ فأين يكون تنافس الأقوياء وإقدامهم ، وأين تكون خشية الضعفاء وتآزرهم ، بل أين يكون الحق نفسه ؟ هل علم أحد منكم لنفسه حقاً موقوفاً عليه متصلا بكيانه يقول هذا حقي كما يقول هذا رأسي وهذه يدي ؟ إنما الحق ما يخلص من هذه المنازعات والأطوار ويحصل من اختلاف نظر الناس إليه وتعدد مناحيه . فلا حق إلا بالنزاع على الحق . وزوال النزاع موت ، وزوال الحق باطل ومحال . والحق يكون معكم مرة وعليكم مرة ، فإذا أردتم أن تعرفوا في أي جانب هو فانظروا إلى جانب العقيدة فثم الحق الأكبر المنشود .

عندئذ قال الذئب : وما مرادك بهذا الكلام أيها الإنسان ؟ أتريد أن يصر كل منا على عادته ويؤمن بما هو في صدده ؟ إن كان هذا مرادك فهذه يدي فإني أول المشايعين لك .

قال الإنسان : لا بل أردت أن تؤمنوا بي وتركنوا إليّ . لأنني ـ ولا أزدهي عليكم ـ قد جمعت من دواعي الإيمان ما تفرق فيكم . وقد زدت عليكم بأشياء لم يتحل بها أحد منكم ، ومتى آمنتم بي كنت معكم على حد قول المتنبي لأسد قنسرين :

فهل لك في حلفي على ما أريده
فإني بأسباب المعيشة أعلم
إذن لأتاك الرزق من كل وجهة
وأثريت مما تغنمين وأغنم

قال الذئب : أي نعم ! كما أثرى الكلاب من فضلات موائدك ، وطعمت من عظام البهائم الآوية إليك . فجعلت الكلب ـ وهو واحد منا ـ يعبدك ويحرس نومتك ويرعى ماشيتك ويعادي بني جنسه في خدمتك !

قال الحمار : مهلاً أيها الذئب فانا راضون بأن نؤمن بالإنسان ، ولكن على شرط أن تحرق الأكفُّ والمناخيس في مجلسنا هذا .

قال الحصان : والسروج والمركبات والطواحين !

فقالت البقر والغنم والماعز بصوت واحد : وأن نكتب كتابا بمنع شرب الألبان وتحريم ذبح الأنعام والماشية .

فاشتد اللغط بين الإوز والدجاج وصاحت من كل جانب : وذبح الأطيار الداجنة أيضاً .

وزمجر النمر قائلا : وقبل ذلك أبيدوا الراميات والرصاص والمفرقعات فلا تبقى منها باقية .

ومضى كل منهم يعرض اقتراحاً ، أو يزيد شرطاً ، حتى نفد صبر الإنسان فقال غاضباً : وهل يقال أيها البهائم إنكم تؤمنون بي وأنتم تقيدونني بهذه الشروط ، وتجعلونني آلة بين أيديكم ؟ أم حسبتم أنني لا أنال منكم قسراً ما أعرضه الآن عليكم عرضاً .

وكأنما كانت هذه الكلمة جذوة نار ألقاها الإنسان في تلك الغاب ، فقد أحدث فيها ما يحدثه الحريق من الهياج والاضطراب ، فأخذتهم سورة الوحشية ؛ وهجم بعضهم على الانسان فذادهم بعضهم عنه . وهو واقف بينهم نادماً على تلك الكلمة ، ولو أمعن في قلبه لوجد فيه بعض السرور من تلك

النكسة التي كادت تفقدهم المنطق العارية الذي سمحت لهم به الحياة فضارعوه فترة من الزمان .

وبينما هم كذلك إذ ارتفعت من نواحي الأفق قطعة سحاب كطلائع الخيل ما زالت تكبر وتنتشر حتى سدت الآفاق وأطبقت الأرض والسماء ، فاربدّ الجو وقصفت الرعود وانقضّت الصواعق وانهمرت الامطار. وظل جمع الغاب في عمياء من أمرهم لا يعرفون قبيلا من دبير ، وقد شغلهم هول ما هم فيه عن التفكير في المصير . ثم سمعوا منادياً يناديهم بصوت كأنّ هزيم الرعود معه أخفت من دبيب النمال وأهدأ من نسيم الشمال . قائلا : اخشعوا للطبيعة يا أبناء الحياة الغرور ! أنصتوا للدوام يا أُسراء الفناء والدثور !

فخشعوا واجفة قلوبهم ، راجفة من الهلع فرائصهم ، ثم التفتوا فانقشعت هذه الغمة عن شخص هائل رأسه فوق النجوم ؛ وقدماه تحت الثرى ، مهيب ولكنه مودود،وعجيب ولكنه معهود ، وهو من ثم قطوب كالجبل الأغبر ، ومن ثم بشوش كالربيع الأخضر ، فألهموا أنه روح الطبيعة . وكان في تلك اللحظة يهدر بصوت لم تستقل بسماعه الآذان دون سائر جوارح الأبدان .

خطاب الطبيعة

أيها الأحياء :

لا اطلب إليكم أن تصيخوا إليّ في كل دقيقة من دقائق أجسامكم أذناً تتسمعني في كل حين . غير أنها قد تغفل عني أحياناً فيبلغها صوتي منحرفاً عن الحقيقة ، مزيفاً بضلال الصناعة . فالآن أنفي عن آذانكم كلها هذا الوسواس لتسمعوني حق السماع ، وتنبذوا ما سمعتم من سواي كل النبذ .

أنت أيتها الحياة ! تمخضت عنك وما تركتك لنفسك لمحة عين . فما زلت عمياء حتى في طلب الخلاص من الموت . ولأنت أقرب ما تكونين إليه حين تفكرين في الخلاص منه . ولقد ظننت أنك أعرف مني بما يسعدك وما يشقيك . فعكفت على الصخب ، ودأبت في الهرب ! وعكست الأمر فأشقيت

نفسـك من حيث تلتمسين السعـادة ، وجاءتـك السعـادة من حيث تخـافين الشقاوة ، ولا اذكرك إلا بأنك وليدتي وأنني أنا أمك . أعلم من شأنـك ما لا تعلمين ، وقد كنت ولم تكوني ، وأكون حيث لا تكونين . وأنا أحرص عليك منك ، وإن زعمت أنك أخبر بنفسك ، فما من صلبك ولدت أنا الوالدة ، وما من جسدك تأكلين ولكني أنا المأكولة والآكلة . أنا التي أصـوغ من الصـعيد الخانق والماء الجاري ، ومن الهواء الخافق والضياء السـاري ، عجينـا منـه تنشئين ، ثم منه تستمـدين ، تتناولينـه جمـاداً جاسيّاً ثم تجرينـه في باطنـك إحساساً مدركاً واعياً ، ولو سألت كل ذرة فيك أن ترجع إلى موضعها مني لما بقي فيك إلا مكانك ، ولضاع منك إحساسك وعلمك وبيانك ، فمن جسدي كيانك ، ومن جسدي قوامك ، وإلى جسدي مرجعـك ومآبـك . فكيف إذن تختارين لنفسك ما لست أختاره لك . ومن لك بمحاربة الموت وهو قضاء حتم عليك ؟

اعلمي يا حياة أنك لا تخافين الموت إلا لأنك تمشين في أنفاقه معصوبـة العينين ، ولو كان لك اطمئنان الوليدة إلى أمها لتأكدت أنك ناجية ما دمت في يدي . ألما تعلمي أنني أمر بك من أنفاق الموت إلى ضياء أسطع من الضياء الذي كنت فيه ؟ فانظري أين أمسـك من يومـك ، وأين الجسـم السـوي من المضغة القذرة ؟

تشفقين يا حياة أن يلم الموت بمضغة ترمزين فيها لمحة من الوقت ، ولو أنها نقطة من تلك النقاط الزلالية التي لا يميزها الناظر من نقاط الماء ـ وجهلت أننا لو جاريناك على هذا الإشفاق لكانـت تلك النقـاط عليا ما تسنمتـه من درجـات التكوين ، ولخسرت الوجود برمته وأنت تتمسكين بالوجود . فكانـت كواكب السموات وكنوز الأرضين وأسرار الخليقة وودائع المعرفة كأنهـا لم تخلـق ، وكأنـه لم ينشق عنهـا العـدم المطلـق ، وهـي هي التـي تجلسين اليوم في سويدائها . ويمر بك الموت في سراديبه إلى دارةٍ دارةٍ من سبحات أضوائها .

انظري آلاء الموت عليك .

قالت الطبيعة ذلك ثم نادت . . . يا موت ، فانطلق من يسارها شبح بغيض شملتنا رؤيته بقشعريرة باردة ، وامتلأت الحياة ذعراً وهي تصارع ذلك الشبح

ويصارعها ، وما استطال هذا الصراع حتى غشيتنا الغاشية مدة لا ندري ما مقدارها ، ثم صاحت بنا الطبيعة فانتبهنا . فإذا نحن خلق آخر وإذا الحياة أمامنا أبهى مما كانت وأعدل قواماً وأحب منظراً وأذكى عرفاً وأنبل طلعة . ثم قالت الطبيعة تخاطبنا :

أما وقد شاهدتم أيها الملأ كيف أن الموت ينقلكم من طور إلى طور أكمل ، ومن هيئة الى هيئة أجمل ، فاعلموا ـ كملكم الله ـ أن الكمال غايتكم في الحياة وليس البقاء ، فلا تخافوا الموت بل خافوا النقص فهو أعدى لكم من الموت . . . ولا تسمعوا صوت الحياة بل اسمعوا صوت الطبيعة فهي أبرّ بكم من الحياة .

***

فما كادت تلفظ الكلمة الأخيرة حتى وثب الأسد على الثور ، وقبض النمر على الأيل ، وعدا الثعلب وراء الأرنب ، ووجأ الذئب عنق الشاة ، والتهم الهر الفأر وجذب الإنسان سلاحه يضرب ذات اليمين وذات الشمال . . . والقدر يضحك والحياة تصرخ . وكلهم ذاهبون على رؤوسهم يصيحون : اسمعوا صوت الطبيعة ! اسمعوا صوت الطبيعة !!

الإنسان الثاني

عصرُ المَرأة

وقفت على آراء في المرأة للفيلسوف الألماني آرثر شوبنهور ، فأعجبني حذق الرجل وجرأته على المجاهرة بأقوال يعد قائلها في أوربا خلواً من التهذيب وسلامة الذوق . وإن كنت أراه قد غلا في مذهبه إلى حد ربما كان الدافع به إليه غلو المدنية العصرية في نظرها إلى المرأة ورعايتها إياها .

فإنا لفي عصر خليق بأن ندعوه عصر المرأة ، فإنك لا ترى إلا أثراً من آثارها حيث ذهبت ، وقليلا ما تجد عقلا لا يشتغل بأمرها أو قلباً لا يشتغل بها ، حتى لقد بلغ بهذا العصر الظريف أن يرغب الناس بصورها ورسومها في أوراق التبغ وعلب الثقاب وحلوى الأطفال وإعلانات المتاجر والسلع ، وحتى لقد أصبحوا ينصبونها أحبولة يتصيدون بها الناس إلى حفلات البر ومجالس الإحسان .

ففيم ذلك كله يا ترى ؟ ألعله بلغ من صلاح النفوس البشرية ورفقها بالضعفاء في عهدنا هذا ما نرى بعض علائمه في معاملة النساء المستضعفات ، والتلطف مع هذا الجنس اللطيف ؟ لو كان ذلك لقلنا قد تحقق الحكم الذي رآه الفلاسفة في دياجي القرون الأولى . ولكننا ننظر إلى سابق العهود ونستعرضها واحداً واحداً فلا يعرض لنا عهد كان أقسى على الضعفاء وألين للأقوياء من هذا العهد الذي نحن فيه ، والنساء أول من تصيبهن جرية الضعف ، إذا هن لم يعرفن موضع القوة منهن بعرفانهن موضع الضعف من نفوس الرجال .

إنما نحن في عصر شهوة ، لا شأن له في صلاح أو نخوة ، والنفوس باقية على ما جبلت عليه وإن لم يكن قد تدلى بها الحرص والضنك . ولا شيء أصلحه رقي العالم ـ اللهم إلا الحديد والمعادن فإنها تصاغ اليوم بواخر وقواطر ، ومدافع وقذائف أجود صنعاً وأسطع وميضا من آلات الزمان القديم .

***

المَدنية والفجور

ترسخ آساس الدولة وتتوطد دعائمها ، فينصرف أهلها آمنين إلى طلب الثراء ، ويتفننون في جلب المال من وجوه المكاسب ، وإنفاقه في أسباب الرفاهة والملاذ وهنا يأتي دور المرأة ويكثر الالتفات إليها ـ فتعلم مكانتها ويعرف لها القوم دالتها وما إخال ظرفاء النوادي ومجانها في باريس قد بلغوا من الرقة والكياسة في مخاطبة النساء ما بلغه ظرفاء العباسيين والأندلسيين من أبناء أجلاف الصحراء وائدي البنات ، وقد شمخ بنيانهم ، وامتد سلطانهم . فكانوا يدعونها حيناً ملكاً كريماً ، وحيناً كوكباً منيراً ، وإذا أرادوا عشقها واشتهاء قربها قالوا عبادتها والفناء في حبها ، وقد تلطف بعضهم فبسط صفحة خده وطاء لنعلها . وإنه لأغلظ شسعاً وأخشن مساً من حذاء تلبسه غادات اليوم ، يكاد يحسب لابسه حافياً !

ولا أنكر أن المدنية العصرية أرفق بالمرأة مع هذا من المدنيات الغابرة ، ولكنه رفق جاء به تحدد الواجبات والحقوق الذي اقتضته طبيعة اجتماعنا ، وروح التعميم التي لا بد منها في شرائعنا .

***

جَدّاتنا في نظر أجدادنا

وما زالت المرأة رقيقاً مستضعفاً منذ كانت ، لا إرادة لها في اختيار رجلها . ثم إنهم قد أبصروها واجمة أمام الرجال كلهم فحسبوها بلا قلب تواق أو طبع غلاب . كما تمادوا بعد ذلك فارتابوا في أن لها نفساً كما للرجال . ولست بحاجة إلى ميزان كميزان المشرحين أضع في كفتيه مخّي المرأة والرجل لأعلم أيهما أرجح عقلا وأرزن فكراً . فإن هيمنة الرجل عليها وإخلادها إليه ، في جميع الأجيال والعصور والبلدان على حال سواء[1] ، دليل على أنها أضعف منه عقلا وجسماً . ولقد جعلتها الشرائع القديمة متاعاً لعائلها وأبت أن تهبها إرادة مستقلة عن إرادة وليها في أمر من أمور حياتها ، وحرمها بعض تلك الشرائع حق الميراث في مورثيها إلا إذا لم يكن لهم نسل من الذكور ، كما ضن عليها أن تكون لها ثروة خاصة بها .

قال ماني حكيم الهند : « ينبغي أن يوضع النساء في الليل والنهار تحت كنف أوليائهن ، طائعات كل الطاعة لهم ، معولات كل التعويل عليهم » الهنود يقولون ما معناه : « لا بد للمرأة من سيد في كل أدوار حياتها . فسيد البنت أبوها والزوجة قرينها والأم ولدها » وكذلك كانت حالها في الصين . وكان الرومانيون في الغرب يجيزون للرجل التصرف في حياة امرأته كما يتصرف في دوابه وعقاره . ولا تتزوج الفتاة عندهم إلا إذا شاء أبوها . ولن يسقط حق الأب في مباشرة قران ابنته ولو كان مجنوناً .

والآن نرانا نحترم المرأة . فهل تهذبت الطباع وتغيرت السجايا ؟

***

---

(١) استثنى بعضهم قبيلة او قبيلتين ، ولا نرى هذا الاستثناء مخلا بصحة هذه القضية العامة .

الخَيرُ المجرّد

ما عهدنا في النفوس البشرية هذا الكرم . أقول ما عهدنا النـاس يصدعـون بالحق لأنه حق أو يدينون بالإنصاف لصوابه . فالحرية الشخصية في بعض البلاد حق لا يمتـري فيه اثنـان . سلـم به الملـوك ، لا اقتناعـاً بمقدمـات الفلاسفـة وبراهينهم ، بل رهبة من سيوف الثوار ونيرانهم . وهذا الحق الذي لا يجرأ على مسّه حاكم ولا ملك في البلاد الحرة ، يداس جهاراً في غيرها من البلاد التي لم تبرهن على صدقه بالحديد والنار . وضمانة حقوق العمال حق رضيه أصحـاب الأموال ، ولولا أن العمال تضافروا على المطالبة به وألبوا لتأييده لما رضوه أبداً .

فإذا الذي يعد قسوة لا تطاق من أصحاب الأموال ، في أمة قويت بينها شوكة العمال واجتمعت كلمتهم ، قد لا يراه الناس إلا أمراً مألوفاً في بلد لم تعلم قوة الاتحاد أغنياءه حق إنصاف العامل المسكين وواجب رحمة القادر بالعاجزين .

واحترام النساء أصبح فرضاً على كل وجيه ووضيع ، ولو أنه لا وسيلة للمرأة إلا أن تلبث حتى ينيلها رقي الناس ومروءتهم هذا الاحترام ، لكان عليها أن تنتظر بعد أجيالا وآماداً طوالا .

وما حدا بهؤلاء الطالبين إلى تحقيق هذه المبادىء أنهم وجدوها حقاً ، ووجدوا ما عداها باطلا . ولكنها الحاجة حركتهم ، والضرورة أرغمت ظالميهم على الإقرار بحقوقهم . وكذلك لا ترى عملا لغير الحاجة والضرورة في مطالب الناس .

***

نقائض المرأة

فما معنى احترام المرأة الذي سمعنا عنه كثيراً في هذه الأيام ؟

لو أغضينا قليلاً عن ذلك الاحترام الشهواني لما فهمنا لاحترام النساء معنى كما أرادوا أن نفهمه .

إنني إذا التقيت بالنابغة خصته الطبيعة بموهبة سامية أو ميزته بصفة نادرة ، أو بالسيد البجال كبير النفس جليل الخطر ، لم أتمالك أن أحترمه . ويكون احترامي هذا له كاحتقاري للزميلة الهبيت . كلاهما عن سجية لا شائبة فيها للتكلف والرياء . فهل احترامنا المرأة من نوع هذا الاحترام ؟

كلا !

ليس في صفات المرأة ما يروعنا أو يكبر في أعيننا . فأما أن يقال إننا نكبرها لضعفها ، وأن الناس قد علوا في الأدب ومكارم الأخلاق فأصبحوا يعاملون الضعيف كأنما قد نسوا ضعفه وقوتهم ، وأنهم يحاسنون المرأة ـ دون سائر الضعفاء ـ لهذا السبب ، فهذا ما لا يصدقه الواقع . هذا كلام باطل ! هذا بهتان !

وجدير بهذا الاحترام أن نسميه إشفاقاً . فإنه لا نصيب للضعف من إجلالنا ، وكل نصيبه من أطيب القلوب وأبرها ألم أو حنان .

والمرأة نضو الأسر ، والعسف . واهنة الجلد واهية الجسم . مناقبها وعيوبها مناقب الضعف وعيوبه . وسيبقى هذا شأنها إلى حين .

خلقت المرأة أسيرة انفعالات نفسها فما من منقصة أو محمدة فيها إلا وهي بنت الانفعال . فهي عقيلة الحب في صباها ، أخيذة الدين في هرمها ، وليس للمرأة فضيلة صادرة عن صدق الفكر وأصالة الرأي ، إذ ليس بين خلالها فيما يعلم الناس أجمل من الشفقة ، وهذه راجعة أيضاً إلى التأثر الذي لا فضل لها فيه إلا بالإحساس . ولولا ذلك لما استطعنا أن نفهم كيف تجتمع شفقة المرأة وأثرتها في نفس واحدة . فإنهما خلتان متناقضتان ، ولكنهما تردان في الضعفاء إلى مصدر

نفساني واحد ، هو الخوف على النفس . فإن المرء إذا رأى الرعب أو الألـم في سواه تمثله في خاطره مقروناً بما كان يصحبه من شعوره لو أنه وقع لشخصه . فهو يجزع على غيره بالقياس إلى جزعه على نفسه . وكلما كان ضعيفاً كان هذا الجزع أشد . وهذا هو الإشفاق .

وهو كلما وسوس له الجزع على نفسـه اشتـد تعلقـه بحياتـه وعظـم شعـوره « بأنانيته » وهذه هي الأثرة . بل لولا ذلك لما استطعنا أن نفهـم كيف أن هذا المخلوق الرؤوف الوديع ينتقض أحياناً وحشاً متنمراً في قسوته وضراوتـه . إذا اهتاج حواسـه هائـج الحنـق والانتقـام ، أو ثارت في عواطفـه كوامـن الشهـوة والغيرة .

وقد تتصف المرأة بالشجاعة ولكنها لا تأتي بها إلا من جانب الانفعال أيضاً . وهذه جان دارك مضرب أمثال الشجاعة بين النساء تملكها شعور عميق واستولت على مجامع حواسها عقيدة دينية فتمكنت منها أيما تمكن . واختبلت أعصابها حتى خيل لها أنها كانت تلمح القديسين الغابرين وتسمعهم يكلمونها . فجعلت هذه الأوهام تقذف بها في المهـالك وهـي غائبـة عن وجدانهـا . ومـا كذلك يعنـون بالشجاعة وإنما هذا هوس يأخذ بالألباب ويضل الصواب .

أما ما قيل عن زنوبية وحصافة فكرها وجلدها وقهرها شهواتها وكبحها نزوات الطبع النسائي في نفسها ، فلا أعلم أهو صدق أم كذب . على أن استثناء امرأة واحدة من سائر بنات جنسها ، في كل هاته الأجيال والقرون ، شذوذ أراه يؤيد القاعدة ولا يفندها .

هذا الضعف الذي يلازم المرأة أبداً قد جعلها قليلة الركون إلى نفسها عظيمة التعويل على غيرها ، وصغرها في نظر نفسها ، فصارت لا ترى لها قدراً إلا في نظر الناس إليها . وإنها لتتعلق لهذا السبب بمن يعرض عنها ولا يحفل بها لأنها تحسب إعراضه نقصاً فيها على كل حال . وكثيراً ما تعالج استمالة ذلك المعـرض عنهـا لتزيل ما علق بخاطرها من ريب في قوة جمالها ونفوذ سلطانها ، والويل لمن تعلم أن لها شأناً كبيراً عنده . فإن في الإعجاب بها كل غايتها من الرجل . فإذا وثقت من إدراكها عنده لم يبق لها شأن معه . وفرغت منه لتنظر تأثير جمالها في سواه . ولعل هذا الذي يجعل المرأة أحياناً تستصغر نفسها مع الزوج الفاسق وتستصغر الزوج الصالح معها .

ولا رأي لها في الرجال من تلقاء نفسها . وإنما رأيها في الرجل هو رأي الرجل في نفسه . ولهذا كان أكثر الرجال توفيقاً عند النساء أشدهم اغتراراً وزهواً . حتى لقد وجدت المرأة ترى الجمال فيمن يراه لنفسه ، وإن كان الجمال من الأشياء المحسة بالبصر . ولكنها لا تستطيع إلا أن تسلم باعتقاد الرجل الذي تمكن من التغلب عليها باعتداده بذاته وقلة اكتراثه لرأيها فيما قد اعتقد لنفسه من المزايا والصفات .

وإذا شاهدتها تصبو إلى بعض المشاهير وأصحاب الصيت البعيد من العلماء أو الكتاب ، فذلك لهذا السبب أيضاً . أي لأنه لا رأي لها في الرجال من تلقاء نفسها . فإنها تسمع قول الناس في الرجل فتتخذه رأياً لها . فهي إما تؤمن باعتقاد الرجل في نفسه أو باعتقاد الناس فيه . ولا ترجع إلى نفسها إلا قليلا . وأنا لا أعلم مثالا لهذا القليل .

وقد اشتهرت المرأة بالرياء ، وهو من علائم ضعف الثقة بالنفس أيضاً . فيتظاهر المرء بما يروق الناس ويوافق آراءهم ، ارتياباً منه في نفسه ، واستصغاراً لرأيه وحقيقة شأنه . فما أشد خطل الذين يعتمدون كل الاعتماد على اختيار المرأة في إصلاح الزواج وتحسين نوع الإنسان !

قال شوبنهور : « المرأة تؤدي ما فرض عليها في الحياة . لا بما تنجز من الأعمال بل بما تقاسي من الأوجاع . فعليها مكابدة آلام الحمل والوضع والسهر على الطفل وخدمة الرجل الذي ينبغي أن تكون له رفيقاً صابراً مؤنساً » .

وقال : « لقد ركب في غريزة النساء ما يجعلهن صالحات لحضانة الإنسان طفلا ويكنّ به معلمات صباه ورفيقات أيامه الأولى ـ ذلك لأنهن كالصغار ، صبيانيات الأميال ، خفيفات الأحلام ، قصيرات النظر ، وأنهن لا يفتأن لاهيات ، فلا تزال المرأة طفلة كبيرة الجسم في كل أدوار حياتها » .

وما ظلمهن شوبنهور . فهن ، كما قال ، لا يخرجن من طور الطفولة أبداً . ولهن في كل دور من أدوار الحياة ألاعيب وفلسفة تناسب ذلك الدور . فهن أبداً صغيرات وإن شبت بأجسامهن الأعوام .

في المرأة من أخلاق الطفل غيرته المضحكة ونزقه السريع واستغراقه في الحاضر الذي بين يديه ، وقصور نظره على الظواهر والقشور ، ومرحه وغرارته ونفوره مما يهم ويصلح ، ومحاكاته كل ما يراه ، وتعويله في كافة أموره وأمياله على سواه ،

وتقلبه وكذبه ورياؤه وأثرته وولعه باستطلاع المضمرات والأسرار ، وجشعه وطمعه وموجدته وافتتانه بالثناء والإطراء .

تلك أخلاق لا أحسب أن رجلا لم يتبين بعضها أو كلها في نفوس عامة بنات حواء .

وإني لأميل إلى الاعتقاد بأنها أخلاق تخلفت في نفسها من بقايا الهمجية في المرأة الأولى . بل هي أخلاق الهمجية والفطرة لم تقو السنون على تلطيف شرتها وتهذيب طبيعتها . ومن أين للزمن أن يخرج المرأة من طور الفطرة وهي لم تزل فيه منذ كانت إلى يومنا هذا . وما مارست من الأعمال ما قد مارسه الرجال ، ولا تنقلت بها المنافسات العمرانية كما انتقلت بهم ، من أحوال إلى غيرها ومن آداب إلى أحسن منها .

فشغلها اليوم كشغلها قبل التاريخ . فما تزال صارفة كل عنايتها الى تزيين ظاهرها وتحسين هندامها ووسائل إعجاب الرجل بها . ولا يزال لها ولع الهمجي بخرزه وريشه الطويل وشغفه بالألوان المبهرجة الزاهية والصور البراقة الخالبة ، وما أفادها تقدم العمران وتدرج العصور إلا أنها جعلت الطلاء مكان الوشم ، والجواهر في موضع السبح ، وثقوب الأقراط بعد ثقوب البرى ، وعطور الرياحين والزهور بدلا من دخان الند والعود . مع شيء يسير من التهذيب كان لا مندوحة لها من اقتباسه من الرجل في عشرة الدار التي تجمع بينهما على تباين الأفكار وتباعد الاوطار .

وإن الحلى لتفعل بعقل المرأة فعل السحر ، وتبلغ من نفسها ما لا يكاد يصدقه الرجال . وكم قد سمعنا أن عقداً أطاح جيداً ، وأن جوهرة أضاعت جوهرة عرض وسلبت زينة عفاف ، وأن إكليلا أطاش رأساً وأطار صواباً ، وحلة أضنت جسداً وأورت كبداً .

***

طلب المرأة المساواة

فالإغضاء عن كل هذه الفوارق والذهاب إلى المساواة بين الرجل والمرأة بعد وضوح قصورها عنه وظهور نقصها بالقياس عليه ، عبث لا موجب له ولا يفيد .

دخل القرن الثامن عشر في أوربا فرفع حواجز الطبقات ، ونزع حوائل الهيئات . فصار الناس سواء في نظر الشريعة ، وإن لم يكونوا كذلك في نظر الطبيعة . وانطلقوا يتبارون كما يتبارى الأكفاء ، فبعد أن كان لكل طبقة زي تعرف به ، غدونا لا نميز بين أقدار الناس باختلاف أزيائهم أو تشابه بزاتهم

وكانت المرأة بما جبلت عليه من خليقة الغيرة أول من خطا إلى هذا المضمار ، فشاقتها الزينة ، وراح أدنى النساء يقلد أعلاهن في التبرج والتأنق واقتناء المجملات والمحسنات . والمرأة لا ينقصها الاقتناع بوجوب اقتنائها كل ما يتمم حسنها ويجلو رونقها ، فإذا قصر الرجل في إيتائها بهذه المطالب فهي في شرع الهوى بريئة من عدمه . خير لها أن تلتمس تلك النفائس والتحف عند من يحبوها إياها وهو قرير العين طيب الخاطر ، فاستبيحت الأعراض ، وتراخت ثقة الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وصدف الناس عن الزواج إلا القادرين الآمنين ، وهم قليلون .

وجاء هذا على أثر عهد فشا فيه فساد أبناء الطبقات العليا وبناتها ، واتصل منها بغيرها من الطبقات ، فرنق ماء حيائهم وأوهن من حفاظهم وعفافهم .

ثم تحول في ذلك القرن وجه المسألة الاقتصادية ، واشتد التكالب على الأرزاق ، وضاق الخناق ، وأخذ الناس بالحجزات والأطواق ، فأصبح أجر العامل لا يفي بأكثر من قوته وحاجته ومأواه ، فضلا عن أن يمون به سواه ، فزاد ذلك في إحجام الرجال عن الزواج ، وقلل شيئاً فشيئاً من عدد المتزوجين والمتزوجات .

كان من هذا وذاك أن كثر بين النساء المنقطعات اللائي لا محيص لهن عن السعي لأنفسهن . فطرقن أبواب الأعمال يزاحمن عليها الرجال . ثم رأين أنه قد

آن أن يساوين الرجل في الحقوق وقد حملن أنفسهن واجباته ونزلن معه في هذا المجال . فصحن يطلبن تلك المساواة الصورية التي نالها قبلهن نساء الطبقة العليا ، بحكم ثروتهن والبيئة التي هن فيها ، لا بالعلم أو مساواة الرجل في القدرة والفهم .

على أن من تبين ضعف المرأة ، ثم ما وهبته من جمال الظاهر ، ورأى كيف تحتال به على مطالبها ، وتستخدمه في مآربها ، وأنها لا تعدل به شيئاً من مفاخر الحياة ، ولو أوتيت العلم والحكمة ، أو رزقت الملك والعظمة ، علم أنه حل منها محل القوة من الرجل ، وأنها إنما وهبته ليكون سلاحها الذي تحفظ به حياتها في هذا الوجود ، لئن صدىء في هذه الأيام افرنده ، أو تثلم حده ، فأولى بها ان تعمد إلى صقله وشحذه ، من أن تصول بسلاح سواه ، لا يدفع عنها أذى ، ولا يرد من مصاوليها أحدا .

وليس الا غروراً كالغرور الذي لا نصادف مثله في غير بنت حواء ، يزين لها أن تقول للرجل :

« أنا ربة الجمال ، وصاحبة القوة فوق الجمال . أسعى سعيك وأدأب دأبك . وليس هذا كل ما عندي . بل إنك لتعمل ولا عائق لك يثنيك عما أنت آخذ فيه . أما أنا فاعمل كما تعمل ، في حين أنهض بأعباء الحمل والوضع والحضانة والتربية ، فأغالب عاملي التعب والألم ، وأنت تنوء بواحد منهما . ولا أراني قانعة بأن أكون مثلك ، بل إني لأصلب منك عوداً وأشد جلداً ، وأجمل منظراً وأحد ذكاء وو . . .

ولا ندري بعد هذه الدعوة ، أتتجاوز المرأة عما فرضته على الرجال من واجب احترام الضعف فيها ، أم تتقاضاهم بعده واجب احترام السيادة والسلطان ؟

إن الرجل والمرأة صنوان خلقا ليعيشا معاً . ولا بد لأحدهما من ميزة على الآخر ينتظم بها أمر المعيشة بينهما . فمن ترى يكون صاحب الميزة منهما ؟

***

تعدد الزوجات

ولقد هال شوبنهور كثرة فرائس العزوبة في أوربا فعمد إلى وصفة شرقية ، وقال بوجوب الاقتداء بأمم الشرق في إباحة تعدد الزوجات .

ونحن ننقل كلمته في هذا الصدد ، حتى يفقه القراء ماذا هون على حكيم غربي أن ينصح قومه بالرجوع إلى ما نعالج التخلص منه في شرقنا ونعده منكراً تجب إزالته . قال :

« يقضي الزواج في البلاد التي تقصر الرجل على زوج واحدة تنصيف حقوق الرجل وتضعيف واجباته . وإذا كان القانون يمنح المرأة كل ما يسمح به للرجل فقد كان حقاً عليه أن يمنحها عقلا كعقله واستعداداً كاستعداده . وإنه بقدر ما تزيد هذه الحقوق والمزايا التي خصت الشرائع بها المرأة عن مقدار ما خصتها به الطبيعة ، نرى هنالك نقصاً بيناً في عدد النساء اللائي ينتفعن فعلاً بتلك الحقوق والمزايا ، وعلى ذلك فلا نتيجة لإثبات هذا النص في شرائعنا إلا أنها حرمت فريقاً من النساء حقوقهن الطبيعية بقدر إمتاعها الفريق الآخر منهن بحقوق فوق ما يجب لهن ويناسب طبيعتهن .

فإن هذه الميزة المجافية للوضع الطبيعي ، التي نالتها المرأة بحكم سنة الوحدة في الزواج وما يتبعها من أصول الزوجية وحدودها ، فصيرتها نداً للرجل مساوياً له ، وما هي كذلك في الواقع ، إن هذه الميزة من شأنها أن تجعل عقلاء الرجال وأذكياءهم يترددون طويلا قبل الرضا بما يقضي به الزواج من التجاوز عن حقوقهم والتجرد عن مزاياهم . فينشأ من ذلك أنه بينما تجد كل امرأة عائلا لها بين الأمم التي أساغت تعدد الزوجات ، نرى من جهة أخرى أن عدد النساء المتزوجات في البلاد التي حظرته محدود بالنسبة إلى عدد لا يحصى من بنات جنسهن يظلن ولا عائل ولا ولي لهن ، فيعيش بنات الطبقات العليا منهن عيشة تبتل عقيم ، ويعاني الأخريات أشق الأعمال وأفدح الأثقال ، أو يتلوثن بلوثة العهر ، فيقضين حياة بعيدة عن السرور بعدها عن الشرف . ثم يصبح وجودهن

في هذه الحالة أمراً لازماً ، فيتخذهن المجتمع درعاً يذاد بها عن عفة أخواتهن اللائي أسعدهن الجد بالزواج أو بانتظاره . وإن في لندرة وحدها ثمانين ألف بغي !! فهل يقال إلا أن هؤلاء النسوة الشقيات ، إنما هن ضحايا بشرية على مذابح وحدة الزوجية ، .

هؤلاء النسوة هن الكفة الشائلة في ميزان ترجح فيه حقوق المرأة من جانب لتهبط من الجانب الآخر . ولا مناص من وجودهن إلى جانب « السيدات » اللائي يحميهن نظام وحدة الزوجية في أوربا ، فيظهرن بما يطيب لهن من ادعاء وخيلاء .

ومن ثم فتعدد الزوجات سنة نافعة للنساء باعتبارهن نوعاً . هذا على أنني لا أرى ثمة مانعاً معقولاً يصد رجلا أصيبت زوجته بداء عضال ، أو بقيت عاقراً لا تلد ، أو كانت لا تناسبه سناً ، من أن يقترن بزوجة أخرى . وإن كثيراً من الناس يصبأون إلى مذهب المرمون ليصبحوا في حل من الاقتران بأكثر من واحدة » .

ولا يعجبني هذا المذهب التجاري في الزواج . أولا أستحسن أن يكون القوت هو الجامع بين الجنسين لما سأبينه بعد . ولكن الذي أراه وأحسب أنني مصيب فيه ، أنه سواء كان الزواج موحداً أو معدداً ، شرعياً أو مدنياً ، لا يحسن أن يترك للمرأة كل الرأي فيه .

***

الانتِخابُ الجنسِيّ

فلست ممن يرجون من الانتخاب الجنسي نفعاً للمرأة أو لنوع الإنسان ، ما دام الانتخاب على هذا النمط . وإن البقرة لتنفع نوع البقر بغريزتها الانتخابية أكثر مما تنفع المرأة نوع الإنسان . ذلك لأنه ليس للمرأة ، كما قدمت ، رأي ذاتي في الرجل ، فهي لا تحسن الاختيار ولا تتحرى الأصلح في تمييزها بين الرجال .

وليس أيسر ، على من رام أن يتحقق ذلك ، من أن يلحظ أحوال رجالنا ، وينظر فيما جعلهم يتنافسون بينهم لاسترعائها واجتذاب قلبها .

فالفتيان لا يزالون يتبارون في التعطر ، وصف الطرر ، وفتل السبال ، ورشاقة المشية ، والتأنق في الهندام ، والترصد في الطرقات ، إلى ما شاكل ذلك مما لا يتعدى الجمال الظاهر ، ويؤدي العكوف عليه إلى سقوط الهمة وموت النفس .

فليت هذا الانتخاب الجنسي ، إذ أخفق في تحسين الأجيال المقبلة ، قد سلم الجيل الحاضر من شره ونجا من بوائقه !

والمرأة ـ ما تُركت لنفسها ـ راضية بذلك منهم . لا تكلفهم التباهي بمكرمة أو التسابق إلى فضيلة ليستحقوا ودها ويرجحوا سواهم لديها .

وليس هذا في مصر بلد المرأة الجاهلة . ولكنه كذلك في أوربا بلد السوبرمان المترقية . وما أكثر « الظرفاء » هناك ممن لا هم لهم إلا التصدي للنساء في كل مكان ! .

***

أما من عداهم الشباب وخلفهم رونق الصبا ، فأولئك يتجاذبونها بالنوال ، ويرغبونها بالمال . والمال بغية نفس المرأة ، به تقتني نفيس العقود ، وثمين الجواهر ، وسنيّ الثياب ، وزكي الروائح والعطور ، وتزدهي على أترابها . فهو إذا لم يرض عاطفة العشق فيها أرضى عاطفة الغيرة ، وكلتاهما بالمنزلة الأولى بين عواطف نفسها .

والمرأة مادية في رغباتها ومقاصدها . فقد يتسلى الرجل عن حاله بالفلسفة كما يقولون . وتأبى هي أن تتجاوز ببصرها الواقع الملموس . وقد يجل الرجل عظيماً زرياً ولا ترى المرأة فيه إلا ما يضحك منه ويتنادر عليه .

***

وهناك رجل من زمرة أسميها قرود النساء ، لا هو بالغني الوسيم ولا بالغني الكريم . ولكنه ذو حظوة عند المرأة ـ ذلك رجل سبر طباعها ، وخبر تقلبات أهوائها . فعرف ما يضحكها ويعجبها ، وما يسرها ويحببها ، فيتلاعب بعواطفها ـ يأتيها من جانب غرورها اليوم ، ومن جانب غيرتها غداً ، ومن جانب مشتهياتها وهواجسها مرة أخرى ، فتستملح عشرته ، وتستطيب حديثه . وما أقرب ما بين الحب والاستحسان في قلوب النساء .

وإنا لنسمع عن نفور زوجات العلماء والعقلاء من أزواجهن وتبرمهن بعشرتهم . وما لذلك من سبب إلا أنهم لا يتنزلون إلى إرضاء صغائر المرأة ، ولا يحسنون ما يحسنه هؤلاء القرود .

***

فليس أحظى عند المرأة من هؤلاء الثلاثة : فتى ذو جمال ، أو صاحب مال ونوال ، أو خلب نساء ختال . تتخيرهم وتقدمهم على سواهم ، وما هم بأطيب الأزواج ولا بأحسن الآباء ولا بخير الرجال .

وما شر الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصبحينا

***

الخاتمة

لئن كانت المرأة ضعيفة الحول ، قاصرة العقل ، ضئيلة الأخلاق والصفات ، فليس معنى ذلك أنها لن تصلح لشيء من الأشياء ، أو أن العالم في غنى عنها اليوم ، أو سيكون غنياً عنها في يوم من الأيام . بل معناه أنها إذا خرجت عما يناسب طورها هذا إلى الطور الذي نراها فيه الآن ، كان ذلك خروجاً منها عن حدها ، وكانت قد حلت في غير الموضع الذي ينبغي لها .

ولقد عنيت بكل ما تقدم أن ابين أن هذه المكانة التي أحرزتها المرأة بيننا مكانة مفتعلة . وأن هذا الاحترام الذي تلقاه من الحضارة الحديثة ـ إن صح أن يدعى احتراماً ـ إنما هو احترام باطل . لا تبصر له أثراً إلا في غرف الأندية وقاعات الرقص وحفلات السباق ، فإذا فتشت عنه في المجتمع لم تجد إلا قسوة على المرأة واستهانة بها . ورأيت كيف تهلك هذه المعبودة غرثى ، أو تعيش بثمن حيائها وهنائها باكية ولهى .

وليس الغرض أن لا نحترم المرأة فنهينها أو نرى أن ضعفها يستوجب قهرها والحجر عليها . بل نحن لا ننسى أنها في كل حالاتها إما أم لنا أو أخت أو بنت أو زوج أو ذات قربى . فالمروءة بل الضرورة تقضي علينا أن نرأف بها كما نرأف برفيق لا غنى لنا عنه . وإذا كان لا يحق لها أن تكون « سيدة » كما هي اليوم ، فليس ذلك بمرجعها أمة كما كانت أمس ، ولا شيء فيه من العدوان على حريتها أو اهتضام حقوقها .

تنمو البنت إلى سن البلوغ ثم يقف نموها بعده بزمن يسير . أما الولد فيكاد يبدأ كماله بعد تلك السن . وتلك حجة من الطبيعة على أنها لا تهيء المرأة لأكثر من التناسل ، وأن للرجل عملاً غير التناسل لا بد له من نمو خاص في بنيته .

للمرأة واجب ندبتها له الطبيعة . إذا هي قامت به فليس بضائرها بعد ذلك بعدها عن مقارفات الأرزاق ومشاغل الأسواق .

فهذا المجتمع معركة ضروس . والنساء فيه آسيات جروحه وضامدات كلومه

وجابرات كسوره ـ فكيف به وقد طرح آسياته المراهم واللفائف ، وتبدلن منها الخناجر والقذائف . ثم برزن للنضال بين المتناضلين ـ أعوذ بالله ! إن المجتمع ليكونن ساعتئذ كأنه قطيع من الذئاب قد أضراه الجوع والسعار ، فانبعث عادياً عاوياً يتخطف كل من مسه الكلال فوقع من بينه معيي في بعض الطريق .

قال بيرون : « من صدر المرأة تستروح أول نسمات حياتك . ومن بين شفتيها تلتقط أحدث ما تتمتم به من حروف كلماتك . وإنها لتمسح أول ما تندى به عينك من العبرات . ثم إنها لتتلقف آخر ما يصعده الانسان من الزفرات . يوم يزهد فيه الرجل ويعرض عنه العواد ساعة الأجل » .

ولكن المرأة لا تود اليوم أن تكون أماً أو زوجاً ، ولا يحلو لها أن تخفف لوعة الحزانى وترفه عن المتعبين ، لأنها ألفته عملا لا يحسن إلا بالجواري والإماء .

ولقد تابعتها بعض الحكومات في هذه البغية . وطاوعتها في الطموح إلى ما تدعوه بالحرية . فأباحت لها من المناصب والأعمال ما كانت لا تبيحه من قبل لغير الرجال . وكلها تجارب وأطوار سوف تفضي يوماً من الأيام إلى الجادة المثلى والغاية الحسنى . وتنتهي لا محالة إلى لم شمل العائلة وحفظ كيانها سواء على الوضع المألوف أو على وضع آخر مستحدث .

هذا إذا لم يكن في نية الزمن أن يأتينا غداً بجيل لا عائلة فيه . ولعله آخر ما يشهد الإنسان من عجائب الأزمان .

جاء في مقال شوبنهور :

« شرح أرسطو في سياسته ما حاق بأهل إسبرطة من جراء تساهلهم مع نساء عشيرتهم وتخويلهن حق الوراثة والبائنة ومنحهن قسطاً كبيراً من الحرية . وبين كيف أن هذا التساهل كان سبباً من أسباب سقوط إسبرطة واضمحلالها . وما لنا لا نقول نحن إن نفوذ النساء الذي أخذ يمتد ويشتد في فرنسا منذ أيام لويس التاسع عشر كان سر ذلك الخلل الذي ألم بالبلاط والحكومة تدريجاً وما زال بهما حتى أفضى الى الثورة الاولى وما جرت اليه من القلاقل والأهوال » .

ولقد أراد النساء اليوم أن يمثلن هذا الدور أو ما يشبهه ، ولكن على ملعب أوسع جداً من ذينك الملعبين ، أي على ملعب العالم بأسره .

أردنه لا لأنهن شعرن بالحاجة الماسة إلى الخلاص من أسر أو استرقاق ، بل لأنهن اضطررن إلى العمل فأخذن يطالبن بحقوقه كما حملن أنفسهن أعباءه .

وقد وصف شوبنهور وصفته الشرقية لهذا الداء المستعصي ، فلم تعجبني لأني لا أحسبها تنجح في استئصاله . وقد لا تنجح حتى في تلطيف نوبته أو تخفيف وطأته .

أنا لا أنكر أن تعدد الزوجات قد يكون أحياناً ضرورة شخصية ، ولكنه لا يكون أبداً ضرورة اجتماعية . فليس النساء سرباً يتقاسمه الرجال لإطعامه ، كل على قدر طاقته، وإنما هو جنس خلق ليكون كل فرد منه مقابلا لفرد من جنس الرجال . وثمرة اختلاف التركيب بين الجنسين تنتج باجتماع فردين منهما . فلا حاجة إلى الإخلال بهذه الموازنة الطبيعية .

ولقد علمنا أن العلة نشأت من جرثومتين :

أولاهما : فساد النظام الاقتصادي قضى بأن طعام الرجل كل حظه من عمله . كأنه آلة نصيبها من دورانها الزيت الذي تستعين به على مواصلة الدوران .

وثانيهما : فقدان الثقة بين الجنسين .

فنجم عن ذلك أن أحجم الرجال عن الحياة العائلية ، وكثر العانسات والعزب من النساء ، وهذه هي العلة التي نسميها مسألة المرأة .

فعجيب أن يأتي شوبنهور ، بعد ذلك ، إلى رجل ضاق ذرعاً بامرأة واحدة ، فيعلق إلى عنقه أربعاً أو خمساً ، كي لا يبقى في الأمة امرأة بلا زوج !

على أن الرضا بهذه الحالة ، وترتيب النتائج عليها ، مجاراة للداء ، وانصراف عن الدواء النافع وأصوب في غير بيتها فنزيله ونغنيها عن غير ما خلقت له .

ولو أن المرأة شعرت بعلة الشر ، لما ثنتها هذه الصغائر عن الدؤوب على إزالتها . ولكانت أشد من الرجل من تسيء سمعة بنات جنسها . ولنزعت بيدها تلك الرغبات المعكوسة التي تزيد في نفقة الزواج ونفرة الرجال منه . ولرأيناها تضع يدها في يد المظلومين مثلها ، لتقلم مخالب عدو الرجل وعدوها بل آفة الانسان والعمران : صاحب رأس المال .

ومتى نال العامل جزاء عمله ، وأوتي كل ذي حق حقه ، لا تبقى العائلة كلا ثقيلا على عاتق الرجل ، وأصبحنا في بحبوحة لا نرى رجلا يتلف حياته يوماً بعد يوم ليسكت ضغاء معدته ، أو امرأة تبيع نفسها لتمسك جسدها . ورأينا في كل

بيت أباً وأماً وصغاراً هم قرة أعينهما ، وأملهما في الخلود بعد انطواء ذكرهما ، وصلتهما بما يلي من الأجيال .

***

هـــذِهِ الشجَــرَة

هذه الشجرة

« . . ويا آدمُ اسكنْ أنت وزوجُك الجنةَ فكلا مِن حيثُ شئتما ولا تقربا هذه الشجرةَ فتكونا من الظالمين . فوسوسَ لهما الشيطان لِيُبْـديَ لهمـا ما وُورِيَ عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا مَلَكَين أو تكونَا من الخالدين . وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة . وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما بأن الشيطان لكما عدو مبين » .

« سورة الأعراف »

***

« . . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين » .

« سورة البقرة »

« رأت المرأة ان الشجرة جيدة للأكل وانهـا بهجـة للعيون شهية للنظـر . فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما انهما عريانان . . ونادى الرب آدم وقال له : أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت . فقـال : من أعلمـك أنـك عريان ؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت . فقال الرب للمـرأة : ماذا الذي فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرتني فأكلت . فقال الرب للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية ، على بطنك تسعين ، وترابا تأكلين كل أيام حياتك ، وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها : هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه » .

العهد القديم « الاصحاح الثالث . سفر التكوين »

***

هي القصة الخالدة في الأديان الكتابية .

وهي الرمز الخالد إلى طبيعة المرأة التي لا تتغير : هي تفعل ما تنهى عنه وهي تغري الرجل ، وفي كل من هذين الخلقين دليل مجمل على خلائق أخرى مفصلة تنطوي في ذلك الرمز الكبير .

* * *

قال الشاعر الجاهلي طفيل الغنوي :

ان النساء كأشجار نبتن لنا   منها المرار ، وبعض المر مأكول
ان النساء متى يُنهين عن خلق   فانه واجب لا بد مفعول

وقد ألهم هذا الشاعر البدوي ـ ابن الفطرة وابن البادية ـ خلاصة قصة الشجرة في بيتيه المطبوعين ، وخلاصتها ان المرأة تغري بأكل المر الذي لا يساغ أولا يسوغ ، وانها تفعل ما تنهي عنه ، فهو عندها « واجب لا بد مفعول » .

* * *

وكل خلق كامن في المرأة يظهر من هذا الولع بالممنوع .

فلم كانت كذاك ؟ ألأنها ضعيفة ؟ لا . إن قبل ذلك خطوة نخطوها ثم نصل منها إلى هذه الخطوة التالية .

قبل ذلك انها محكومة ، ثم هي محكومة لأنها ضعيفة ، وما زال من دأب المحكوم أن يحن الى التمرد والعصيان ، وان يلتذ المخالفة للمسيطرين عليه ، لأنه بهذه المخالفة يثبت وجوده أو يستوفي حياته ، فهي عنده ضرب من حب الحياة .

« وأحب شيء إلى الانسان ما منعا » كما قيل .

نعم الى الانسان كافة لا الى المرأة خاصة ، ولكن المرأة قد خصت بهذه الشهوة لأنها محكومة لا تحكم غيرها إلا من طريق الاغراء ، أو تنبيه النفوس إلى ما هو « شهي للنظر بهجة للعيون » كما جاء في العهد القديم .

* * *

كل خلق من أخلاق المرأة مرموز إليه في قصة « هذه الشجرة » . . ومن هنا اخترنا الاشارة إليها عنواناً لهذا الكتاب ،

فالولع بالممنوعات خلاصة طبائع المرأة التي تنمى إلى أسباب كثيرة ولا تنحصر في سبب واحد .

ولكن السبب الأكبر منها أنها تؤمر وتُنهى كثيراً ، وانها تؤمر وتُنهى لأنها أضعف من آمرها وناهيها ، ولا تزال معه أبداً بين لذة الخضوع ولذة العصيان ، ولعلها لا تعصي إلا لتعود كرةً أخرى إلى خضوع أعمق وأشهى من خضوع البداية والارتجال .

ولا تولع المرأة بالممنوع لأنها محكومة وكفى ، أو لأنها محكومة لضعفها واعتمادها على من يمنعها .

بل هي تولع بالممنوع لأنها تتدلل ، ولأنها تسيء الظن ، ولأنها تعاند ، ولأنها تجهل وتستطلع ، ولأنها موهونة الارادة لا تطيق الصبر على محنة الغواية والامتناع .

وكل أولئك عنوان لخصلة أخرى من ورائها : هي خصلة الضعف الأصيل .

هي تتدلل لأن قيمتها موقوفة على غيرها ، أو معلقة بنظرة غيرها إليها . . فهي تحب أن تعرف قيمتها ، ولا تعرف قيمتها إلا بمقدار ما تكلف الرجل من الصبر عليها واحتمال الدالة المحببة منها .

والدلال نوع من الاباء ، أو نوع من المخالفة والعصيان ، واغراء بتكرار الطلب وتكرار الممانعة . . ويتمنعن وهن الراغبات !

ولو لم تكن قيمتها معلقة بمشيئة غيرها لما كانت بها حاجة الى الدلال ، ولا الى توابع الدلال من المكابرة والولع بالممنوع .

***

وهي تسيء كما تسيء كل رعية محكومة .

فالرعية التي طال عليها عهد التسلط والحكم تحسب كل أمر من الحاكم شيئاً

يفيده ولا يعنيها ، وتحسب كل نهي من الحاكم مصلحة تهمه ولا تهمها ، واجتناباً لمحظور يسوءه ولا يسوءها .

فينبعث منها سوء الظن بداهة وفطرة كلما دعيت الى فريضة أو نهيت عن محظور .

وتلج بها رغبة المخالفة بغير بحث ولا روية ، بل تخالف ولها منفعة في الطاعة . لأن المخالفة هوى والمنفعة تفكير ، وما زال الهوى في النفوس أقوى سلطاناً عليها من التفكير .

فالمرأة تحسب أبداً ان سيدها ينهاها لانه يريد أن يستأثر بها ويخشى من المزاحمة عليها . فتلك رغبته إذن لا رغبتها ، ومتعته إذن لا متعتها ، وهي إذن تنصف نفسها كلما تمردت عليه . وتحقق غرضاً لها كلما فوّت عليه غرضاً من أغراضه ، أو هكذا توحي اليها بداهة المخالفة بغير روية ولا بحث مفيد في حقائق الاسباب .

***

ثم هي تعاند عناد الضعيف .

وعناد الضعيف شيء آخر غير تمرد المحكوم ، وإن كان كلاهما قريباً من قريب في العنصر الأصيل .

فالضعيف يتشبث بالحياة لانه مهدد في الحياة ، ومن تشبثه بالحياة تشبثه بالهوى ، وتشبثه بالعادة التي يدرج عليها ، ويخيل اليه أن الفناء في التحول عنها .

وفي الطفولة تشبث كثير .

وفي الشيخوخة تشبث كثير .

وفي الأنوثة تشبث كثير .

والخاسر على مائدة اللعب يتشبث بالبقاء عليها ولا يطيب له أن يفارقها ، وكل أولئك باب من أبواب العناد المطبوع غير عناد المحكوم ، أو غير الولع في

الخاضع الذليل بالعصيان والاباء .

فهذا العناد وليد الخوف ، وذاك العناد وليد الغضب ، وليس الخائف كالغاضب في بواعث الشعور .

***

ثم هي تولع بالممنوع لأنها تجهل وتستطلع وتشبه الطفل الناشىء في غريزة الجهل والاستطلاع .

والجهل والاستطلاع مولعان بالهدم قبل الولع بالبناء .

فهما لا يذعنان إلا بعد معرفة يطول تحصيلها ، وقبل الوصول الى تلك المعرفة يأبيان الاذعان ويستريحان إلى الممانعة والتعويق والتحطيم .

***

أما ضعف الارادة فهو عذاب بين يدي الغواية لا يخلص منه الضعيف إلا بمقارفة الشيء الممنوع ، فينتهي بذلك عذاب الفتنة والاغراء والمصابرة والامتناع .

فاذا وضع بين يدي الضعيف قدح من الماء القراح وقيل له لا تشرب منه شرب منه وهو غير ظمآن .

لأنه يريد أن يمتنع فتنازعه الرغبة ، ويريد أن يكبح الرغبة فيعذبه الكبح ، ويريد أن يحتمل العذاب فيعييه الاحتمال . فهو ضعيف مع الرغبة ، ضعيف مع الكبح ، ضعيف مع العذاب ، ضعيف مع هذا التردد كله لا يريحه منه إلا أن يفعل ما نهي عنه ، ويفض المشكلة بهذه النهاية .

فهو يشرب الماء القراح لأنه يفض مشكلة الامتناع عنه ، لا لأنه ظمآن إلى الماء القراح .

والشيطان حين قال لآدم وحواء « ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » قد ألهب في حواء كل علة من علل المخالفة والولع بالممنوع ، وسول لها الغواية والاغراء .

فأكلت وزينت لآدم أن يأكل مثلها .

فتمت بذلك صفات الضعف كلها ، لأن الاغراء علامة المشيئة التي تصل إلى بغيتها من طريق التحسين واثارة الشهوة في غيرها ، لا من طريق الأمر والاخضاع أو من طريق الغلبة بالشهوة الطاغية على شهوة أخرى .

وكأنما لسان الحال الذي تنطق به المرأة في هذا المقام : انك أيها الرجل تخضعني وأنا أغريك ! أنت تخضعني بسلطانك ، وأنا أخضعك بما أليح لك من « شهوة النظر وبهجة العيون » .

***

فهذه الشجرة . .

هذه الشجرة التي أكلت منها المرأة لأنها نهيت عنها ، والتي طعمت منها ثم أطعمت آدم معها . .

هذه الشجرة هي عنوان ما في المرأة من خضوع يؤدي الى لذة العصيان ، ومن دلال يؤدي الى لذة الممانعة ، ومن سوء ظن ، وعناد ضعف ، واستطلاع جهل ، ومن عجز عن المغالبة ، وعجز عن الغلبة بغير وسيلة التشهية والتعرض والاغراء .

وهذه هي قصة « الأنثى الخالدة » كلها في كلمتين .

غواية المرأة

والولع بالاغراء والاغواء أخو الولع بالمخالفة والعصيان .

كلاهما دليل على رجوع الأمر الى الآخرين .

فالمخالفة دليل على أن المخالف محكوم لغيره ، والاغواء دليل على أنه يرجع الى غيره في العمل ويعتمد عليه .

فهما ثمرتان من « هذه الشجرة . . » أو هما خصلتان من خصال الأنوثة الخالدة في الصميم .

تتعرض المرأة وتنتظر ، والرجل يطلب ويسعى .

والتعرض هو الخطوة الأولى في طريق الإغراء ، فان لم يكف فوراءه الاغواء بالتنبيه والحيلة والتوسل بالزينة والايماء ، وكل أولئك معناه تحريك ارادة الآخرين ، والانتظار .

فارادة المرأة تتحقق بأمرين : النجاح في أن تراد ، والقدرة على الانتظار .

ولهذا كانت إرادة المرأة سلبية في الشؤون الجنسية على الأقل ، ان لم نقل في جميع الشؤون .

ولعل كلمة « لا » سابقة لكل نية تمتحن بها المرأة إرادتها وصبرها ، فأحوج ما تكون الى الارادة والصبر حين تنوي ألا تتقدم ولا تسلم ولا تجيب ولا تطيع .

وهنا تتصل هذه الخليقة فيها بخليقة العناد التي سبقت الاشارة اليها . وقوام العناد كله أن يقاوم المعاند رغبة الآخرين وعمل الآخرين .

فالارادة التي تتمثل في العزيمة مذكرة ، والارادة التي تتمثل في العناد مؤنثة ، أو هذا هو شأن الارادتين في غالب الأحوال .

وليس للمرأة أن تريد غير هذا النوع من الارادة لاسباب عميقة في أصول التركيب والتكوين .

وموقف الجنسين من الاستجابة لمطالب النوع يهدينا الى حكمة هذا الفارق من طريق قريب .

فالذكور من جميع الحيوان قد أعطيت القدرة ـ بتركيبها الجسدي ـ على إكراه الاناث لاستجابة مطالب النوع طائعات أو مقسورات .

ولا يتأتى ذلك للاناث على حال من الحالات الجسدية ، فغاية ما عندهن من وسيلةٍ أن يهجن الرغبة في الذكور ، وأن يجعلنهم يريدون ولا يستطيعون الامتناع عن الارادة .

فهذا الفارق ملحوظ في أعمق أعماق التركيب الجسدي من كلا الجنسين ، منذ نشأ الفارق بين ذكر وأنثى في عالم الحيوان .

وحكمته ظاهرة كل الظهور ، لأنها هي الحكمة التي توافق بقاء النوع وارتقاء الأفراد جيلا بعد جيل .

فالاغواء كاف للأنثى ولا حاجة بها الى الارادة القاسرة .

بل من العبث تزويدها بالارادة التي تغلب بها الذكر عنوة ، لأنها متى حملت كانت هذه الارادة مضيعة طوال مدة الحمل بغير جدوى . على حين أن الذكور قادرون اذا أدوا مطلب النوع مرة أن يؤدوه مرات بلا عائق من التركيب والتكوين ، وليس هذا في حالة الأنثى بميسور على وجه من الوجوه .

واكراه الأنثى على تلبية ارادة الذكر لا يضير النوع ولا يؤذي النسل الذي ينشأ من ذكر قادر على الاكراه وأنثى مزودة بفتنة الاغواء ، فهنا تتم للزوجين أحسن الصفات الصالحة لإنجاز النسل من قوة الأبوة وجمال الأمومة ، ويتم للنوع مقصد الطبيعة من غلبة الأقوياء الأصحاء القادرين على ضمان نسلهم في ميدان التنافس والبقاء . .

وعلى نقيض ذلك لو أعطيت الأنثى القدرة على الارادة والاكراه لكان من جراء ذلك أن يضمحل النوع ويضار النسل . لأنه قد ينشأ في هذه الحالة من أضعف

الذكور الذين ينهزمون للاناث .

وكيفما نظرنا الى مصلحة النوع وجدنا من الخير له أبداً أن يتكفل الذكور بالارادة والقوة ، وأن تتكفل الاناث بالاغواء والتلبية ، بل وجدنا أن فوارق البنية قد جعلت السرور في كل من الجنسين قائماً على هذا الأساس العميق في الطباع . فلا سرور للرجل في اكراهه على مطلب النوع ، بل هو منغص له مضعف من لذة حسه . أما المرأة فقد يكون استسلامها لغلبة الرجل عليها باعثا من أكبر بواعث سرورها ، ولعله أن يكون مطلوباً لذاته كأنه غرض مقصود . بل هو في الواقع غرض مقصود لما فيه من الدلالة على توفق الأنثى الى إغواء أقوى الذكور . ومن البداهات الفطرية أن تتظاهر المرأة بالألم والانكسار في استجابتها للنوع لأنها تفطن ببداهتها الأنثوية الى هذا الفارق الأصيل في خصائص الجنسين .

***

وليس بنا هنا أن ننظر في العدل الطبيعي بين خصائص الذكور وخصائص الأناث . وانما نسجل هذه الحقائق بالملاحظة الصادقة والدلالة الواضحة ، ولا يعنينا أن ننصب لها ميزان العدل في توزيع الطبائع والملكات .

ولكننا مع هذا القول نعود فنقول إن العدل هنا بين الجنسين غير مفقود ، وإن القسمة هنا ليست بالقسمة الضيزى .

فاذا قيل إن الحمل قد جنى على المرأة لانه خصها بالألم وجعل الارادة من نصيب الرجل ، فلا ينبغي أن ننسى أن الحمل قد أتاح للمرأة مزية فطرية لا تتاح لزوجها على وجه اليقين . وهي ضمان نسلها بغير دخل ولا ارتياب . فكل من ولدت المرأة فهو وليدها الذي يستحق عطفها وحنانها ، وليس ذلك شأن الآباء فيمن ينسب اليهم من الأبناء .

وما من أم تسأل عن ألم الحمل الا تبين من شعورها أنها تستعذبه ولا تتبرم به ، وأنها قد تشعر بغبطة من الألم لا يعرفها الرجال الذين يثورون على الآلام . ومن امتزاج الألم بطبيعة المرأة أصبحت التفرقة بين ألمها ولذتها في رعاية الأبناء من أصعب الأمور .

***

وعلى هذا يعتز الرجل بأن يريد المـرأة ولا تعتـز المـرأة بأن تريده . . لأن الاغواء هو محور المحاسن في النساء ، والارادة الغالبة هي محور المحاسن في الرجال .

ولهذا زودت الطبيعة المـرأة بعـدة الاغـواء وعوضتهـا بهـا عن عدة الغلبـة والعزيمة . بل جعلتها حين تُغلَب هي الغالبة في تحقيق مشيئة الجنسين على السواء .

ولكن التفرقة في عدة الغواية واجبة بين ما هو من صفات الجنس كله وما هو من صفات هذه المرأة أو تلك من أفراد النساء .

فقد تكون امرأة من النسـاء أذكى وأبـرع من هذا الرجـل أو ذاك ، فتأخـذه بالحيلة والدهاء كما يغلب الأذكياء الجهلاء في كل مجال يتصاولون فيه .

إلا أنها صفة فردية لا يقاس عليها عند بيان الصفات الجنسية التي خصت بها « المرأة » على التعميم .

وهذه الصفات الجنسية هي التي تعنينا في هذا المقام ، لأنها التراث المشترك بين جميع بنات حواء في مواجهة الجنس الآخر . . وهو جنس الرجال .

فالذي يساعد المرأة من قبل الطبيعة على إغراء الرجل هو « الهوى الجنسي » في تركيب الرجل نفسه . . فلولا هذا الهوى لكانت حيلتها معـه من أضـعف الحيل ، وبسلطانها عليه كأهون سلطان .

ومما يرينا أن الطبيعة هي العاملة هنا وليست المرأة هي التي تعمل بقدرتها واحتيالها أن هواها في نفس الرجل شبيه بكل هوى ينمو فيه بحكم العادة أو الفطرة . فهو يعاني من مقاومة التدخين أو معاقرة الخمر عناء يجهده ويغلبه على مشيئته في كثير من الأحيان ، ولو كان للتبغ أو للخمر لسـان يتكلـم لجـاز أن يتحدث الناس عن لسانهما المعسول الذي يخلب العقـول ، وعـن حيلتهمـا النافذة التي تسلب الرشاد .

والأداة البالغة من أدوات الإغواء والاغراء هي قدرة المرأة على الرياء والتظاهر بغير ما تخفيه .

فهذه الخصلة قد تسمو فيها حتى تبلغ رتبة الصبر الجميل والقدرة على ضبط الشعور ومغالبة الأهواء ، وقد تسفل حتى تعافها النفوس كما تعاف أقبح الختل والنفاق .

أعانتها عليها روافد شتى من صميم طبيعة الأنوثة التي يوشك أن يشترك فيها جميع الأحياء .

فمن أسباب هذه القدرة على الرياء أو هذه القدرة على ضبط الشعور أن المرأة قد ريضت زمناً على اخفاء حبها وبغضها ، لأنها تخفي الحب أنفة من المفاتحة به والسبق إليه ، وهي التي خلقت لتتمنع وهي راغبة ، وتخفي البغض لأنها محتاجة إلى المداراة كاحتياج كل ضعيف إلى مداراة الأقوياء .

ومن أسباب القدرة على الرياء أو القدرة على ضبط الشعور ان الأنوثة « سلبية » في موقف الانتظار ، فليس من شأن رغباتها أن تسرع إلى الظهور والتعبير ، أوليس من شأنها أن تفلح بالظهور والتعبير كما تفلح رغبات الذكور .

ومن أسباب القدرة على الرياء أو القدرة على ضبط الشعور أن مغالبة الآلام قد عودتها مغالبة الخوالج النفسية . ما دامت في غنى عن مطاوعتها والكشف عنها .

ومنها ان اصطناع الزينة الذي استقر في خليقتها انما هو في لبابه اصطناع لكل ظاهر يحس بالأبصار والاسماع أو يحس بالضمائر والافهام .

وفي اللغة العربية توفيقات كثيرة في الجمع بين الحقيقة المادية والحقيقة المجازية بكلمة واحدة ، ومنها كلمة « التجمل » التي تفيد معنى التزين لمرأى العيون كما تفيد معنى التزين لمرأى النفوس .

ولرسوخ هذه الطبيعة الانثوية في تكوين المرأة ـ شغفت بالرياء لغرض تعنيه ولغير غرض تعنيه في كثير من الأحوال ، كأنها وظيفة حيوية تستمتع بالمعالجة والرياضة كما تستمتع الأعضاء بالحركة والنشاط ، فالغش عند المرأة ـ كما قلنا في رواية سارة ـ « كالعظمة عند فصائل الكلاب ، يعضها الكلب المدلل

ويدّخرها حيث يعود إليها وإن شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهاة . لأن ألوفا من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه في القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة إلى أكلها . وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهي تخاف وتحتال وتراوغ وترائي وتلعب بمواطن الضعف في الرجل حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة ، وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ، ينشدن الغش التذاذاً به وشحذاً للاسنان القديمة التي نبتت عليه ، ويسرهن أن يصنعن الشيء ويخفينه ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا اخفائه . لأن المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين ألف سنة ، وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات ».

***

وقد يعين المرأة على الرجل ـ غير الهوى وغير الخداع ـ خلق آخر هو في الحقيقة خلق يعين الرجل على نفسه ، وليس عمل المرأة فيه إلا من قبيل الاذكاء والتنبيه .

فالمرأة « سكن » للرجل كما جاء في القول .

ولا يطيب للانسان أن يحذر من سكنه أو يتجافى عن الهدوء والطمأنينة فيه ، ولا تتم سعادته به إلا أن ينفي عنه الحذر ويقبل عليه بجمع فؤاده وطوية ضميره . فهو الذي يغمض عينيه بيديه ويستنيم إلى الرقاد هربا من السهاد . ونصف ما يقبله من الخداع انما هو الخداع الذي نسجه بيمينه وزخرفه بتلفيقه ، وكذلك المرأة إذا تعلقت بالرجل كانت أسبق منه إلى التصديق وكان خداعه اياها أسهل من خداعها إياه .

ومن غوايات المرأة الكبرى أنها قصبة السبق في حلبة التنافس بين الرجال .

فالظفر بها يرضي كل شعور يحيك بقلب الرجل ، سواء منه ما يتناوله بادراكه ووعيه وما ليس يدركه ولا يعيه .

وقد اختلف أصحاب المذاهب الفلسفية في تعليل نوازع الحياة التي تفسر بها أعمال الناس وترد إليها . فقال بعضهم انها طلب القوة ، وقال غيرهم انها طلب البقاء ، وزعم غير هؤلاء وهؤلاء انها طلب اللذة ، وجاء آخرون في العصر

الحاضر فتغلغلوا بالنوازع الجنسية وراء كل غريزة ونفذوا بها الى كل سرداب من سراديب النفس الخفية .

وأيا كان موضع الصدق من هذه النوازع فالمرأة معها جميعاً تطلق شعور القوة وشعور البقاء وشعور اللذة وتتقصى وشائج الجنس الى جذورها الكامنة في أعرق بواطن الحياة .

وما الظن بقصبة السبق التي تستطيع أن تستدني من تشاء وتنأى عمن تشاء ؟

ان المتسابقين ليتناحرون على القصبة الخرساء وهي لا تحكم لهم بشيء ولا تفاضل بين يمين ويمين . فالمرأة ـ تلك القصبة التي تحابي وتجافي ـ حرية الا تبقى في عزيمة عادٍ بقيةً من نوازع السباق .

***

تلك هي بعض عناصر الغواية الانثوية التي تملكها المرأة من حيث تدري ولا تدري .

وكذلك تنبت الثمرة الثانية على . . « هذه الشجرة » .

***

فالمرأة مزودة بوسائل الغواية ، موكلة بالمخالفة والامتناع .

هي تغوي لأنها ينبغي أن تراد ، ولا ينبغي أن تريد .

وهي تشتهي المخالفة لأنها تؤمر وتنهى ، أو لأنها رهينة بارادة الآخرين .

وهذا وذاك ثمرتان على شجرة واحدة . . هي « هذه الشجرة » .

جمال المرأة

ما الجمال ؟

الجمال كما بيناه في غير هذا الكتاب هو الحرية .

وليس بنا في هذا الكتاب أن نتوسع في شرح معاني الجمال من الوجهة الفلسفية ولا من الوجهة العلمية . لأن هذا التوسع يخرج بنا الى آفاق « ما وراء الطبيعة » وينتهي بنا الى التنكير والتجهيل بدلا من التعريف والتقريب .

فحسبنا من توضيح الصلات بين الجمال والحرية ملاحظة وجيزة تغني عن كثير ، ولا غنى عنها للتمهيد الى معرفة الجمال كما يتجلى في وظائف الاعضاء ، أو كما يتجلى في المرأة على التخصيص .

فمن المتفق عليه أننا لا نعرف شعوراً انسانياً يناقض الشعور بالجمال كما يناقضه الشعور بالحرج والامتناع ، واحتباس الفكر والخاطر والاحساس .

ولا نعرف شعوراً انسانياً يوافق الشعور بالجمال كما يوافقه الشعور بالانطلاق والاسترسال ، واطّراد الفكر والخاطر والاحساس .

فلا يكون الجمال أبداً في معناه بعيداً من الحرية .

ولا تكون الحرية أبداً في معناها بعيدة من الجمال .

وقد نقارب الموضوع من الطرف الآخر إذا ذكرنا أن الحرية المقصودة هنا هي نقيض الفوضى ، كما أن الجمال نقيض الاضطراب والاختلاط .

فالحرية تستلزم الاختيار والمشيئة .

وليس للفوضى اختيار ولا مشيئة ولا غاية .

وهذا التباين بين الجمال والفوضى من طرف ، وبين الجمال والحجر من الطرف الآخر ـ هو الذي يرجع بنا الى التوحيد بين الجمال والحرية . لأن الحرية كذلك تناقض الحجر وتناقض الفوضى .

ونزيد الأمر توضيحاً فنقول إن الحرية التي تمثل الجمال هي الحرية المقرونة بالأوزان والقوانين .

فالحرية بغير أوزان وبغير قوانين هي الفوضى بعينها ، أو هي ليست بحرية على الاطلاق ، لأن الحر هو صاحب الاختيار أو صاحب المشيئة أو صاحب الغاية .

وليس للفوضى غاية ، وليس للمرء فيها اختيار ولا مشيئة .

وانما يتبين لك مقدار حريتك اذا عملت بين الأوزان والقوانين . . فاللاعب الماهر صاحب مشيئة وصاحب قدرة إذا سار على الحبل الممدود واستطاع المسير في خفة وطلاقة ، والشاعر صاحب مشيئة وصاحب قدرة إذا عبّر عن معناه في الأوزان والألحان ، واستطاع مع ذلك أن يقول ما يريد .

لأن الأوزان والقوانين هنا هي معيار حريته الذي يبين لنا ما عنده من قدرة وحرية في الحركة .

وهذا هو الفرق بين القيود الذميمة والأوزان المستحبة : القيود تقضي على الحرية ، والأوزان تبرزها في صورتها التي تعزز المشيئة والاختيار .

وهذا أيضاً هو الفرق بين الحرية والفوضى . لأن الفوضى حركة لا غاية لها ولا مشيئة ، ومن ثم لا حرية ولا معنى .

ولا تعريف ـ من ثم ـ للجمال أقرب من تعريفه بأنه هو كل ما يملي للنفس في الشعور بالحرية الموزونة ، وكل ما يجنّبها الشعور بالفوضى أو الشعور بالامتناع والتقييد .

* * *

قيل إن الجمال هو التناسب ، وهو قول صحيح ولكنه يحتاج الى قول صحيح آخر يتمه وينتقل به خطوة أخرى الى طريق الصواب .

فالجمال يوجد مع التناسب كما يوجد في غير التناسب ، والجامع بين الجمالين هو حرية الحركة في كلتا الحالتين .

لا تناسب في كلب الصيد الأعجف المعقوف الهزيل ، ولكنه يعطينا الحركة

الخفيفة الموزونة في تركيبه هذا فهو جميل .

ولا تناسب في شكل الزرافة بالقياس الى غيرها من الحيوان . . ولكنك إذا تصورتها كالحصان أو كالأسد تصورت عائقا لها عن تدبير أمرها وتناول طعامها من فوق رأسها ومن تحت قدميها . وهذا العائق يناقض شعور الجمال . . فاذا زال لم يكن بينك وبين الشعور بجمال الزرافة عائق من المقابلة بين شكلها وأشكال غيرها من الحيوان .

وهنا قد يسأل السائل : هل معنى ذلك أن الجمال هو أداء وظائف الاعضاء ؟

والجواب لا . ليس الجمال هو أداء وظائف الأعضاء ، ولكن وظائف الأعضاء في الجسم الحي كالوزن في القصيدة وكالحبل تحت قدمي اللاعب وكالالحان في الغناء ، فهي التي تقيم لنا الفارق بين الحرية والفوضى ، وهي المعيار الذي نعرف به حرية الحياة في الانتقاء والتوفيق بينها وبين ما تبغيه .

فلولا وظائف الأعضاء لكانت الحياة حركة فوضى لا غاية لها ولا حرية فيها .

ولكنها ـ بوظائف الأعضاء ـ هي حركة لها حرية ولها وزن ولها جمال كلما طابقت في حركتها معنى الحرية الموزونة .

***

وقيل إن الجمال وليد الغريزة الجنسية ، كما أشرنا الى ذلك في كتابنا المراجعات .

وأصحاب هذا الرأي جماعة من الاطباء والعلماء الطبيعيين يمثلهم ماكس نوردو حيث يقول :

« كل أثر ينبه في الدماغ ـ بأي شكل من الاشكال ـ مركز التناسل سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أم آتيا من تداعي الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل . وصورة الجمال الأول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي والاستعداد لتجديد النسل ، أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة .

في محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة النوعية من نفس الرجل بأقوى الاحساسات وأشد الخواطر وتثير رؤية (الظاهرة) وتصورها عند أقوى بواعث

السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور . وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال فيغريه السرور الذي يستمده من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معاني الجمال في صورة امرأة . فالأمة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها وغيرها إنما تمثل للحواس في هيئة مؤنثة ، ولكن لا أثر لكل ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره لأن رؤية شخص من جنسها لا تحرك بأي شكل من الأشكال مركز النسل من غريزتها ، ولا تجد المثل الأعلى للجمال إلا في الرجل . أما ما يشاهد من أن المرأة تكاد تقيس الجمال كله بمقياس الرجل فسببه أن الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع أن يوحي إليها برأيه وأن يسيطر على أفكارها التي تخالف فكره ، ومع هذا نرى في الواقع فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تتماثل كل التماثل ، ولو أتيحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ما تشعر به ووصف ما يدور بوجدانها ، لأثبتت منذ زمن بعيد أن مذهبها في الجمال يختلف من وجوه أساسية شتى عن مذهب الرجل فيه » .

وهذا الرأي تبطله ملاحظات وجيزة لأنه أقرب الآراء التي قيلت في تعليل الجمال إلى البطلان .

فلا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية نفسها تستعين بالجمال لتمييز امرأة من امرأة وتفضيل انثى على أنثى .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية واحدة ، والجمال حتى في الجارحة الواحدة أشكال وألوان .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن الغريزة الجنسية هي واسطة تجديد الحياة ، ولن تكون الحياة نفسها خلوا من الجمال قبل ما يساورها من طلب التجديد .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، لأن حظ الاحياء من الجمال أو من الفطنة له ليس على مقدار حظهم من الغريرة الجنسية .

ولا يمكن أن تكون الغريزة الجنسية هي الجمال ، إذ المرأة ليست بالجميلة لأنها امرأة ، وإنما هي امرأة ثم يضاف إليها وصف الجمال .

وقد عرضنا لمذهب نوردو المتقدم في فصل من فصول كتابنا « المراجعات » وأتينا ببعض الملاحظات التي توجب مخالفته ، ثم قلنا : « ان الغريزة الجنسية لا ريب من أقوى الغرائز تفرعا وتوزعاً في جوانب الاحساس ودخائل التفكير ، وانها ولا جدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لا نراها منعزلة عنها فيما ينظمه الشعراء ويمثله المصورون ويغنيه المنشدون ، ولكن ليس معنى ذلك انها هي أصل كل شعور بالجمال وأن الحياة نفسها لا جمال لها ، إلا من حيث إنها علاقة بين ذكر وأنثى ، ووسيلة لاعطاء الحياة لمخلوق جديد ، فان الحياة غاية الغريزة الجنسية وليست هي الجسر الذي نعبره إلى الحب والجمال . فان كانت الحياة في ذاتها خلوا من معنى جميل أو مقضياً عليها بالحرمان من رؤية الكون في هيئة تسرها وترضيها وتوسع لها من أكناف الأمل وتضاعف لها من بهجة الوجود ، فأي شيء يزيد عليها من انقسام الاحياء الى قسمين أو جنسين ؟ ثم ما فضل البقاء المشوه الذي نتوسل اليه باختلاف ذينك القسمين أو ذينك الجنسين ؟

« أما أننا نتصور الأمة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها في صورة مؤنثة فانما يدل على أن للجمال في أذهاننا معاني كثيرة غير معنى الأنوثة ، واننا نصور تلك المعاني في صورة المرأة لأنها « الشخص المحسوس المحبوب » الذي تقدر الفنون على ابرازه للعيان . ولولا ذلك لما جاز التشابه بين مثال المعاني في الذهن ومثال المرأة في النظر ، ما دامت المرأة قد استأثرت بكل صفات الجمال في هذه الحياة .

« ويقابل هذا أننا نصور الخواطر القوية في هيئة الرجولة ولا نستخلص من تصويرها كذلك ان العلاقة بين الرجل والمرأة هي أصل كل ما في الحياة من بأس وقوة ، وسبب كل ما يتصوره العقل من قدرة ونفاذ . على أن تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لا تقل عن تماثيل النساء ، والاعجاب الفني بجمال جسم الرجل لا ينقص عن الاعجاب الفني بجمال جسم المرأة ، فلماذا يعجب الفنانون بأمثلة الجمال في أجسام الرجال ان كان في غريزتهم ألا يحبوا الجمال ولا يتخيلوه إلا في أجسام النساء ؟» .

***

غير أننا إذا نفينا أن الغريزة الجنسية هي الجمال أو هي مصدر الشعور بالجمال فلا يستلزم ذلك أن ننفي العلاقة بين شعور الجمال ووظائف الأعضاء .

لأن الرجوع إلى وظائف الأعضاء لازم لقياس حرية الحياة في أداء تلك الوظائف على وجه لا نقصان فيه ولا زيادة .

ومثلها في هذا ـ كما قدمنا ـ هو مثل الأوزان والبحور التي تقاس بهما حرية الشاعر في التعبير وقدرته على التصرف بالمعاني والألفاظ .

أو هو مثل كل وزن وكل نظام مطرد في فن من الفنون الجميلة : ليس مكانه انه قيد عائق معطل للحرية ، بل مكانه انه مقياس الحرية الذي يميز بينها وبين الفوضى المطلقة بغير وزن أو نظام والى غير غاية أو استقامة .

ومتى عرفنا أن وظائف الأعضاء هي مقياس الحرية والجمال في جسم الانسان ـ عرفنا كيف يكون جمال المرأة أو كيف ينبغي أن يكون .

فجسم المرأة جسم تابع وليس بالجسم المستقل الذي لا ينظر في تكوينه إلى غيره .

جسم الرجل الجميل جميل التكوين لذاته لا لأنه منظور فيه الى مخلوق آخر يتوقف عليه .

هو الجمال في صورة الاستقلال .

أما جسم المرأة ففيه الثديان ، وفيه الرحم الذي يحمل الجنين ، وفيه تركيب الحوض الذي يختلف به قوام المرأة وقوام الرجل في نماذج الجمال ، مع اختلافهما بالكتفين والصدر والتنفس تبعاً لذلك الاختلاف ، ومع اختلافهما تبعاً لذلك الاختلاف أيضاً بما تحت البشرة من طبقة دهنية لا شك أنها مفضلة في جسم المرأة لحماية الجنين .

فهذه التبعية واجبة في ملاحظة جمال المرأة والحكم عليه . وتحضرنا في هذا الصدد نماذج ثلاثة للجمال ، لعلها هي النماذج الانسانية التي تستحق العناية بها عند كل بحث فيه .

وهي النموذج العصري ، ونموذج العرب ، ونموذج اليونان . فالعصر الحاضر ، عصر الخفة والآلة السريعة والقصد في الوصول إلى الغاية ، يميل إلى التخفيف من جسم المرأة ويبالغ فيه ، وتؤدي به المبالغة أحياناً الى الخطأ والعجلة ونسيان الفروق الطبيعية في سبيل المظاهر الصناعية . فيكاد أن يسوي بين قوام المرأة وقوام الرجل ، وهي تسوية تقرب به من التشويه لاهمالها النظر إلى وظائف الأعضاء . . ويكاد أن يحصر الجمال النسائي كله في قالب واحد يشبه القوالب الثابتة التي جمد عليها فن الفراعنة في أطوار الركود والاضمحلال .

والعرب أصح ذوقاً من المجمّلين المحترفين في العصر الحاضر ، لأنهم يصفون المرأة الجميلة كما ينبغي أن تكون .

فكعب بن زهير أصح من معاهد الجمال العصرية حين يقول في وصف مثال الحسناء عنده وهي « سعاده » :

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول

ومثله عمر بن أبي ربيعة حين يقول :

اني رأيتك غادة خمصانة ... ريا الروادف عذبة مبشارا[1]
محطوطة المتنين أُكمل خلقها ... مثل السبيكة بضّةً معطارا

أو حين يقول :

أبت الروادف والثديّ لقمصها ... مس البطون وأن تمس ظهورا

فالذوق العربي أصح من ذوق الآلة السريعة في العصر الحاضر كما أسلفنا في كتاب « شاعر الغزل » ، حيث قلنا إنهم « . . . كانوا يستحسنون من جمال المرأة الوضاحة والهيف والرشاقة والخفر ، ويشيدون بهذه الشمائل في كل ما روي عنهم من غزل البداوة ، وكانوا يحبون مع الهيف والرشاقة أن تكون المرأة بارزة النهود والروادف ، وهو ذوق لا يخرج بهم عن سواء الفطرة ، كما يثبته لنا حب الجمال وعلم وظائف الأعضاء . فهم في ذلك أصح ذوقاً من أساتذة التجميل المعاصرين الذين أوشكوا أن يسووا بين قامة المرأة الجميلة وقامة

(١) المبشار حسنة البشرة

الرجل الجميل في استواء الأعضاء . فما يعيب المرأة عضويا أو ـ فزيولوجيا ـ أن تكون رسحاء ضئيلة الردفين ، لأنها خلقت بحوض عريض ملحوظ فيه تكوين الجنين . فاذا كانت صحيحة البنية سوية الخلق وجب أن تكتسي عظام فخذيها وعجيزتها وأن يمتلىء فيها هذا الجانب من جسمها ، وإلا أشار هزاله الى آفة في تكوين الجسم لا توافق حاسة الجمال . وكذلك يستحسن الخصر الدقيق في المرأة لأن ضخامة المعدة قد تؤذي الجنين وتضغط عليه في الرحم وتشير الى التزيد في الطعام فوق ما تستدعيه وظائف الحياة في جسم الانسان » .

أما الذوق اليوناني فقد نظر الى التكوين المتين وميزه على التكوين الرشيق ، فكان وسطاً بين المثل الأعلى لجمال المرأة عند العرب والمثل الأعلى لجمالها عند المعاصرين .

وقد تلتقي الأذواق إذا تركنا المثل الأعلى جانباً ونظرنا الى الأمثلة الشائعة في عصور الحضارة عند هذه الأمم جمعاء .

فالترف وحب الظهور بالوفر والراحة قد حبب الى العرب نماذج البضاضة والرخاصة . فوصفوا لنا أحياناً مثلا من الجمال الكسل المتثاقل يعاب في الذوق السليم .

واليونان قد حفظوا لنا تماثيل رشيقة لجسم المرأة لأنهم مزجوها بالرشاقة الغلامية التي كانوا يحمدونها في أجسام فتية الرياضة وألعاب الفروسية .

ومجاميع الصور المشهورة في العصر الحاضر لا تستغني فيما تعرضه بين حين وحين عن نماذج العرب ونماذج اليونان .

ومن الواجب على كل حال أن نذكر أن الجسم الجميل غير الجسم اللذيذ وغير الجسم الصحيح وغير الجسم القوي وغير الجسم النافع ، لأن الجسم قد يكون نافعاً أو قوياً أو صحيحاً أو لذيذاً وهو في كل ذلك غير جميل .

قيل لبعض الحكماء : إن فلانة كبيرة البطن ضخمة الثديين فقال : « نعم . حتى تدفىء الضجيع وتروي الرضيع » . . فهذا وصف صادق للجسم النافع ولكنه لا يستلزم جمال الجسم الموصوف . . كما يقال إن هذا الكساء يدفىء صاحبه ويعيش سنوات ولا يستلزم ذلك جماله فيما يكون به جمال الكساء .

ووصفت في الشعر العربي واشعار الأمم كافةً نماذج من الأجسام المشتهاة ، كما مثلت هذه الأجسام كثيراً في الصور والتماثيل .

فاذا كان هذا وأشباهه وصفاً لشيء فهو وصف للجسم الشهي أو الجسم اللذيذ ، وليس بوصف للجسم الجميل على اعتبار الجمال معنى من المعاني التي تقاس بالادراك ، كما يقاس معنى البيت البليغ ، ومعنى الصورة البارعة ، ومعنى التمثال المتقن ، ومعنى الخيال المجرد ، ومعنى الحلم البعيد .

ولا ننسى أن الجسم الجميل يشتهى . ولكننا نريد أن نذكر من ينسى أنه ليس بالجميل لأنه مشتهى أو مرض للغريزة الجنسية . بل هو جميل لمطابقته معنى الجمال في الادراك ، وهو الحرية الموزونة .

والرجال في تفضيل الجسم الشهي أو الجسم اللذيذ مذهبان مختلفان : رجل عنده عادة الاستحسان كعادة التدخين ، فهو يألف طرازاً واحداً من المرأة كما يألف المدخن لفيفته المعهودة ، فلا يغيرها ولو كان الخلاف بينها وبين غيرها كالخلاف بين علامة الجمل وعلامة الخلطة السعيدة ، وهما من أصل واحد !

فهذا الرجل إذا استحسن المرأة الطويلة لم تعجبه القصيرة ، ولو كانت لها ملاحة ونضارة ومتعة وحلاوة .

وإذا استحسن السمراء لم تعجبه البيضاء ، أو استحسن بنت العشرين لم تعجبه بنت الثلاثين ، أو استحسن المصرية لم تعجبه الانجليزية أو الروسية ، وهما معجبتان .

والمذهب الآخر في تفضيل الجسم الشهي أن يستحسن الرجل النساء كما يستحسن الفاكهة أو كما يستحسن صحاف الطعام ، والمعول على صناعة الطاهي وغواية الأوان .

فالتفاح مقبول ، والبرقوق كذلك مقبول ، والتين لا يرفض والجميز لا يعاف ، والشواء مستطاب ، والسمك المملح له وقت يجوز اشتهاؤه فيه ! .

* * *

وتنبغي التفرقة على كل حال بين هذه الأجسام حين ينظر اليها للذة وهذه

الأجسام حين ينظر اليها للجمال .

لأن الجميل واللذيذ قد يتفقان ، ولكن الجمال واللذة قد يتناقضان ، فتكون اللذة تغليباً لجسد ويكون الجمال تغليباً لمعنى ، وهو كذلك في كل مظهر وفي كل حال .

فالجسم الجميل هو الذين تتزن فيه وظائف الحياة بغير زيادة ولا نقصان ، لان الزيادة فضول غير مطلوب يشير الى دافع واغل لا تستدعيه وظائف الحياة ، ولأن النقصان آفة مكروهة تشير الى تقصير وتقييد .

وآية الجسم الجميل أن تنهض أعضاؤه حرة سلسة ميسورة الحركة لا ترى عضواً منها عالة على سائر الأعضاء ، يخيل اليك أن كل عضو فيه يحمل نفسه غير محمول على سواه .

ومن هنا جمال الرأس الطامح ، والجيد المشرئب ، والصدر البارز ، والخصر المرهف الممشوق ، والساق التي يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها أنها لا تحمل شيئاً من الأشياء ، ولا تنهض بعبء من الأعباء .

بل من هنا جمال الحيوان الأعجم ، وجمال المهر الكريم وقد اختال بعنقه وشال بذنبه ، وضمر بدنه ، وأصبح في الجملة كالكلام المختصر المفيد ، والكلام المختصر البليغ ، لأنه يبلغ حيث شاء .

والجسم الجميل الذي نشهده على هذا المنوال تراه العين ولا تحس أنها أدركته ، لانها إذا أدركته تأملت فيه وسرحت في معانيه ، فاذا هي بعيد بعيد . . أبعد من الفراش الذي يقع عليه الطفل فاذا هو على الغصن ، ويثبت اليه في غصنه فاذا هو في الهواء .

هو مدرك نفوس وأرواح ، وليس بمدرك نظرات ولمسات .

ومن هنا قلنا إن الجمال واللذة قد يتناقضان ، لأن الجمال معنى تفرغه على جسد ، واللذة جسد قبل كل شيء .

ولن يتمثل هذا الفارق في شيء كما يتمثل في الحركة الجميلة من الجسم الجميل : أي في الرقص الفني الرفيع .

فالراقصة وهي تتمايل كما تريد على أطراف أصابعها ترتفع بالجسم الى عالم المعاني التي تسخّر المادة لحركاتها ولا تحفل بقانون الجذب الذي يتسلط على الأجساد الأرضية من الأحياء وغير الأحياء .

فهي هنا كالشاعر الذي يخطر له المعنى فيلتمس له جسما من الالفاظ مطيعاً لمعناه . أو كالمثّال الذي يشيع في نفسه الجمال فيلتمس له قالباً من الدمى الحسان يفرغه عليه ، وكالخاطر الذي ينطلق من عالم الأثقال والضرورات الى عالم لا ثقل فيه ولا ضرورة .

أو هي تطوّع الجسد للحركة الحرة ، وهي حرة لأنها موزونة تدل على المشيئة ، ولو لم تكن موزونة لما كانت لها غاية ولا مشيئة ولا كانت لها حرية ولا جمال . وإنما تكون هي « الفوضى » بغير وزن ولا اختيار ولا جمال .

هذه الحركة الجميلة من ذلك الجسم الجميل تطلق الناظر اليها من عالم الاجساد الى عالم المعاني والأفكار .

وعلى نقيض ذلك حركة الجسم الذي يستهوي اللذة فينفي المعاني والأفكار ويقيدها بالحس والمادة والأبدان .

ويختلط الأمر في هذه الفوارق بين الأجسام الجميلة والأجسام اللذيذة كلما هبطت الأمم من أوج الحرية الى حضيض المهانة والخضوع .

فالمصريون في عظمتهم الأولى قبل آلاف السنين كانوا يستجملون من الأجسام كل حر رشيق ، ويجعلون الأمثلة العليا للجمال تلك الصور التي يوشك أن تطير من الخفة . كما نراها على بقايا الآثار .

ثم هبطوا من أوج الحرية الى حضيض المهانة والخضوع ، فركدوا ركود البطء والكسل ، وأصبحت الكثافة الواهنة عندهم مقياس الملاحة والقسامة ، وأصبح جمل المحمل أو « التختروان » مثال الحسن المطلوب في النساء : تعلو المرأة السمينة وتهبط في مشيتها وما تنتقل شبراً واحداً في أقل من خطوتين ، والمقرظون من حولها يهللون ويكبرون ويباركون الخلاق العظيم ، ويعوّذون هذا الجرم الذي لا تمضي فيه السيوف . . من لحظات العيون ومن حسد الحاسدين ! .

ثم ثاب العالم كله الى مذهب المصريين الأقدمين في جمال النحافة والرشاقة والنسج الدقيق ، وشاع هذا المذهب بعد الحرب العالمية الماضية أشد من شيوعه في زمن من الأزمان ، حتى غلا بعضهم فأوشك أن يلتمس الجمال في الهياكل العظمية ، وهي على اية حال أقرب الى الجمال من هياكل الشحوم واللحوم !

وما نحسبها نفحة من نفحات الفن العلوي هبت فجأة على أذواق الناس في العالم كله فأصبحوا جميعاً من صاغة التماثيل الملهمين ، فان هذه النفحات أغلى وأرفع من أن تكال جزافاً للملايين من الخلق في المغارب والمشارق ، وبين الأذكياء والأغبياء ، وعند من يحسون ولا يحسون .

ولكنها « الطيارة » قد أتمت مذهب السرعة في كل شيء ، والسرعة والخفة لا تفترقان ، والخفة والسمنة لا تتفقان .

وهكذا تعلمنا الآلات احياناً كيف نشعر وكيف نتذوق الجمال ، وكيف نصحح الأذواق .

***

والمرأة الجميلة ـ بعد هذا ـ ليست بشيء واحد يقاس بمقياس واحد في كل ما تبديه وكل ما تحتويه ، لأنها جملة مجتمعة من الأشكال والألوان والحركات والمعاني يقاس كل منها بمقياس الجمال الذي قدمناه ، وهو الحرية الموزونة ، ونستطيع أن نقول « الحرية » وكفى ، لأن الحرية كما قدمنا تستدعي الوزن والقانون ، لتظهر فيها المشيئة والغاية ، وهما قوام الاختيار الذي لا تكون الحرية بغيره ، وليتضح الفرق بينها وبين الفوضى وهي أقرب الى العدم منها إلى الوجود .

ولكننا نقول الحرية الموزونة تقريراً لهذا المعنى وتبييناً للقدرة التي هي معيار الحرية ومعراج الارتقاء فيها ، فالقائل الذي يعبر عن شعوره في النظم الموزون أقدر على القول وأبين عناصرية للتصرف فيه ممن يقول هذا القول بعينه في الكلام المنثور .

ويقال كل جميل في المرأة بهذا المقياس : فأجمل الوظائف هي الوظيفة التي تجري إلى غايتها في جسم لا فضول ولا نقص فيه ، وأجمل الحركات والألوان والاشكال تجمل وترتقي الى عالم المعاني كلما أطلقت في النفس شعور الحرية بين الأوزان ، أي كلما ابتعدت بنا من شعور الفوضى وشعور التقييد .

فاذا اتفق للمرأة لون جميل وشكل جميل وحركة جميلة فتلك غاية الغايات التي قلما تدرك في العالم المحسوس ، وقد يتفرع اللون على ألوان والشكل على أشكال والحركة على حركات ، فلا ينبغي أن نرجع بها جميعاً إلى مقياس واحد لأن المرأة في اللغة مخلوق واحد يعرف بهذه اللفظة الواحدة .

ومتى أحضرنا هذا في اخلادنا فقد حسبنا للتناقض حسابه في بعض الأحكام على جمال النساء . فقد تكون المرأة على جملتها موصوفة بالجمال وفيها جانب يخالف معنى الحرية والاتزان ، فانما الحكم الصحيح على جمالها أن يقاس هذا الجانب بمقياسه ولو خالف في الحرية والاتزان ما عداه .

وكذلك يقال في قياس النقص أو العيب كلما شعرنا به ورجعنا الى سببه . فلن يكون سببه إلا أننا نشعر ازاءه بشيء من التقييد واختلال الميزان .

فتعاب المرأة القصيرة ، وإن تمت لها محاسن الوجه والحركة ، لأنها توحي إلينا الشعور بعائق يصدها من بلوغ القوام المعهود في النساء .

والمرأة التي تطول كفاها أو قدماها تعاب ، لأن طول الكف أو طول القدم يوحي إلى النفس أن تتمنى قواماً أطول من هذا القوام ، فتشعر بالعائق المانع حين تنظر إلى القوام فاذا هو دون ما تتمناه . وليست قلة التناسب هنا هي علة النقص والعيب كما يخطر للذين يحسبون ان التناسب هو الجمال . فان قلة التناسب لا تضايقنا إذا هي لم تقترن بشعور التعويق الامتناع ، كما قد رأينا في مثال الزرافة وكلب الصيد .

والقوام الجميل حسن في البياض والسواد على السواء حيثما نظرنا إلى الشكل والحركة دون الألوان والشيات . فاذا تجاوزنا الشكل والحركة إلى الألوان والشيات فالبياض الذي لا يحتبس به شعاع من النور ولا صبغة من اللون أجمل من البياض .

وصفوة القول في ذلك جميعه ان الشعور بالحرية الموزونة هو الشعور بالجمال .

وان وظائف الأعضاء هي الميزان الذي توزن به الحرية في أجسام الأحياء ، من الرجال والنساء .

وان تكوين المرأة على حسب وظائف أعضائها ملحوظ فيه تكوين المخلوق الذي تحمله في احشائها ، وتكوين المخلوق الذي تستهويه بصلاحها لخدمة نوعها ، فجمالها عن هذا جمال تابع مضاف وليس بالجمال الذين استقل بالكفاية والتمام .

* * *

ويلحق بالكلام على جمال المرأة كلام متصل به عن شعور المرأة بالجمال .

فمن سهو الفكر أن يعتقد بعض الناس ان المرأة أخبر بذوق الجمال لأنها جميلة في أعين الرجال .

وموضع هذا السهو ظاهر لا يحتاج إلى تأمل طويل . فليس باللازم من اتصاف الشيء بالجمال أن يتصف بذوق الجمال أو يشعر به أحسن شعور أو أقل شعور .

فالجواهر جميلة ولا حس لها ولا حياة ، وفي الحيوان ما هو جميل ولا دراية له بفنون الجمال ، ومنه ما يغني ولا يفقه أسرار الغناء .

فجمال المرأة في عيني الرجل لا يستلزم تفوقها في حس الجمال وتمييز شياته وألوانه . ولعل تمييز الجمال لا يعني إناث الانسان كما يعني ذكوره . لأن المرأة تستمال بقوة الرجل قبل أن تستمال بمحاسن وجهه ومرآه . فانما تعنيها منه الصحة والقوة وتميز ملامحه كل لمحة منها على انفراد ، خلافاً للرجل الذي يؤخذ بأثر ملامح المرأة في جملتها قبل أن ينظر إلى تفصيلها .

وهو فارق معقول على حسب الفارق بين موقف الرجل وموقف المرأة في تلبية الغريزة الجنسية . فالرجل عليه أن يلتفت لأنه هو الذي عليه أن يختار ، ومن ثم كان من الضروري لالتفاته أن يلمح جمال المرأة وأن يؤخذ بأثره على

الاجمال .

والمرأة ـ ولا سيما المرأة على فطرتها الأولى ـ تنتظر دورها الطبيعي وهو التسليم للغالب السابق من الرجال . فسواء لديها أن تتأثر بملامحه أو لا تتأثر بها بعد أن تأثرت بقوته وغلبه ، وإنما يبقى لها أن تميز ملامحه على حسب صحتها ومنفعتها لاعلى حسب أثرها الخاطف في عينيها ، فتعرف مثلا جمال العين وجمال الأنف وجمال الفم كل منها على حدة ولو لم يكن لها أثر خلاب وهي منظورة في جملتها .

ويندر أن ترى رجلا ينسى الأثر المجمل من النظرة الأولى في سبيل جمال الأعضاء والجوارح على التفصيل .

وعلى نقيض ذلك يندر أن ترى امرأة تنسى جمال الأعضاء والجوارح على التفصيل في سبيل الأثر المجمل بالغا ما بلغ من الروعة والاستهواء .

وتصدق هذه الملاحظة على الجمال في معانيه الفنية كما تصدق على الجمال في صورته الجسدية . فتمييز المرأة له محدود لم يبلغ قط مرتبة الابداع والخلق والتفنن في غير فئة قليلة جداً من النساء ، وعلى طبقة لم ترتفع قط إلى أرفع الطبقات .

فيندر جداً في النساء من تبدع الجمال في فن من الفنون ، سواء كان الشعر أو التصوير أو الموسيقى أو التمثيل .

وقد تبرع في التمثيل لأنه يوافق عندها سليقة الرياء والتظاهر والاصطناع ، ولكن التمثيل تمثيلان متفاوتان في القدرة الفنية وعمل القريحة الانسانية : وهما تمثيل الخلق والانشاء وتمثيل المحاكاة والتقليد . وندر جداً في كبار الممثلات من تجاوزت دور المحاكاة والتقليد إلى دور الخلق والانشاء .

ومن الخطأ أن يقال ان تخلفّ المرأة في الفنون الجميلة قد نشأ من الحجر عليها في عصور الجهالة الأولى .

ففي عصور الجهالة الأولى كان الحجر شاملا للضعفاء من الرجال والنساء على السواء ، ومع هذا نبغ الشعراء والفنانون من طبقة العبيد والسوقة ، ولم يكن عدد الحاكمين المسيطرين الذين نبغوا في الشعر والفنون على اختلافها مربياً على عدد النابغين من المحكومين المسخرين ، سواء منهم السفلة الأذلاء والأوساط الذين لا يصيبهم الظلم كما يصيب من دونهم في الطبقة الاجتماعية .

وأيا كان القول في عموم الحجر على الجنسين أو على جنس واحد فالذي لا ريب فيه أن المرأة لم يحجر عليها في الغناء والعزف على الآلات كما لاحظ بعض الباحثين . . . ومضى دهر طويل على الأمم الشرقية والغربية وهي تحسب الغناء صناعة نسائية ، وتأخذ المغنين و العازفين من الذكور أن يرسلوا الشعور ويتزيوا بزي النساء . ولم يتجاوز حظ المرأة من الغناء طبقة الأداء الحسن إلى طبقة الخلق والابداع .

ويقال في صناعة التطريز ما يقال في صناعة الغناء والموسيقى على التعميم ، فقد شغلت بها المرأة من عصور البداوة وثابرت عليها في عصور الحضارة ، ولم تساو الرجال الممتازين بابداع الطرز والنماذج والأشكال .

فشعور المرأة محدود ، وقد تكون تابعة فيه أو خاضعة للايحاء والشهرة سواء من الجماعات أو الأفراد ، وفي وسع فرد واحد أن يوحي إلى المرأة شعورها بجماله إذا تسلط عليها بارادته ، فتؤمن من طريق الايحاء أنه جميل ، ولا يمنعه أن يوحي إليها هذا الشعور إلا ان يكون شنيع الدمامة لا تجوز المغالطة في قبحه من النظرة الأولى . . وإلا فهو بالغ من اقناعها ما يريد .

وميل المرأة إلى الرجل المشهور بجماله يخالف في طبيعته ميل الرجل إلى المرأة المشهورة بجمالها .

فشهرة المرأة بالجمال تشحذ في نفس الرجل طبيعة غير الطبيعة التي تشحذها في نفس المرأة شهرة الرجل بالجمال .

وهذا الفارق بين هاتين الطبيعتين هو الفارق كل الفارق بين الجنسين في كل ما يختلفان فيه .

ان المرأة التي تتصدى بجمالها لأعين الرجال تبعث في نفوسهم حب المسابقة والتنافس ، وتمنيهم بلذة الظفر والغلبة على الاقران ، وقد تكون متعتهم بالوصول اليها وتنحية الأقران عنها أعظم وأروح من متعتهم بشمائلها ومحاسن جسدها ومحياها .

أما المرأة فشهرة الرجل بالجمال عندها تؤكد الايحاء والتكرار ، وتملكها من ناحية التنويم وشل الارادة والتمييز . فهي تنقاد هنا لأن الناس يقولون ، ولأن ما يقولونه يخامر يقينها كما يخامر المنوم بالتوكيد والتكرار يقين المنوَّمين .

فالظفر بالجميلة المشهورة يرضي في الرجل طبيعة الزهو والثقة ، والظفر بالجميل المشهور يرضي في المرأة طبيعة التسليم والخضوع ، وهذا هو الفارق بين الجنسين في كل شيء .

***

وصفوة ما يقال في شعور المرأة بالجمال انه شعور ينقاد للقوة والايحاء ، ولا يرتقي إلى الخلق والانشاء .

أما جمالها فالرجل هو الذي يميزه لأنه هو المقصود به ليلتفت إليه ويسعى سعيه في الغلبة عليه .

وهو غواية المرأة التي تقابل بها ارادة الرجل منذ حيل بينها وبين ان تريد وأن تصرح بما تريد .

وهو على سلطانه الذي يغالب الارادة ويغلبها في كثير من الأحايين إنما هو أظهر غوايات المرأة وليس بكل ما عندها من أسباب الاغراء ، كما أسلفنا في الكلام على غوايتها وأسبابها .

ولا نبعد بالتشبيه إذا قلنا انه كالنور الذي ترفعه الطبيعة على حانوتها لتعلن عنه وتجذب الانظار اليه ، أو كالغلاف المزخرف الذي تلف به طعمتها لتفتح اللهوات وتسعر أوار السغب في كل أوان .

وقد منحت المرأة الجمال الذي يستهوي الرجل لأن الرجل يطلب الحرية

ويختار ، والجمال هو الحرية التي يكلف بها من يكلف بالاختيار .

وليس من المصادفة التي خلت من المعنى أن تستهوى المرأة بالخضوع للقوة وان يستهوى الرجل بحب الجمال .

فهما الحرية والتسليم ، يتقابلان كما يتقابل الجنسان .

تفاوت الجنسين

إلى هنا وضح الفارق الأصيل الذي تدور حوله جميع الفوارق الفطرية بين الجنسين : ونعني به الفارق بين الارادة والاغواء .

وتتعلق بالارادة جميع ملكات الابتداء والانشاء والابتداع في المسائل الحسية والمسائل الذهنية والنفسية على السواء .

فالمرأة لا تبتدىء ولا تبتدع في صناعة من الصناعات أو فن من الفنون وإن طال عملها فيه وانقطعت له أحقابا بعد أحقاب . فاذا شاركها الرجل في الطهي أو الخياطة أو النسيج أو التزيين والتجميل - وهي صناعاتها التي غبرت على مزاولتها مئات الأحقاب - كان له السبق بالتجويد والافتنان ، واستطاع في هذه الصناعات نفسها أن يستأثر باقبال المرأة وثقتها دون من ينافسه فيها من النساء .

ومنذ القدم كانت المرأة تنوح وتبكي وتطيل الرثاء والحداد على الأموات ، ولكنها لم تنظم في الرثاء قصيدة واحدة تضارع قصائد الفحول من الشعراء الذين لم ينقطعوا للرثاء ولم ينظموا فيه إلا عرضاً في الآونة بعد الآونة ، كلما ألعجهم الحزن على فقيد عزيز .

ولا ينكشف قصور المرأة عن الابتداء والابتداع في فن من الفنون كما ينكشف في فن الغناء والموسيقى على الاجمال .

فقد ظُن خطأ أن الغناء صناعة نسائية ينبغي أن تحذقها المرأة كما يحذقها الرجل أو تربي عليه . وقد سنحت لها فرص الحذق والاتقان في هذا الفن بين القصور وفي الاكواخ والأسواق ، فلم يؤثر لها ابتكار في التلحين ، ولا اختراع في الآلات ، ولا افتنان في معاني التعبير بالألحان والأصوات .

والخطأ هنا من سهو الفكر كالخطأ في تمييز الجمال وذوق الحسن والاستحسان . إذ الواقع أن الابتداء بالغناء أيضاً خاصة من خواص الرجل

الجنسية لا معنى لتفوق النساء فيها ، ولهذا يستوفي صوت الرجل نماءه بعد البلوغ ، ويعظم تجويف صدره ، وتكمل أوتار حنجرته ، وتتم له عدة المخارج الصوتية حينما تتم له مقومات الرجولة وملكاتها . . وينعكس الأمر إذا سلب هذه المقومات والملكات . فتضعف حنجرته ، وتضيق كتفاه ، ويشتبه صوته بأصوات النساء والأطفال . وقلما يلحظ التغيير على مخارج المرأة الصوتية بعد المراهقة أو بلوغها مبلغ النساء .

وعلة ذلك ظاهرة ، وهي العلة التي قدمناها في هذا الفصل وفي الفصول السابقة ، ونعني بها أن الرجل هو الذي يريد ، وهو الذي يطلب المرأة ويسمعها نداء الرجولة دعاءً وغناءً ، فيقترن تمام الصوت فيه بتمام صفات الرجال .

والفارق في التركيب كاف وحده لادراك الفارق بين الجنسين في الملكات والقرائح وفنون الابتداء والابتكار .

ولكن الواقع المشهود من قديم الزمن يغني في بيان هذا الفارق ما ليس يغنيه اختلاف التركيب .

لأن الواقع فعلا أن المرأة لم تبتكر في صناعة من الصناعات ، غير مستثنى منها تلك الصناعات التي انقطعت لها وتوفرت عليها أحقاباً طوالا قبل أن يتوفر عليها الرجال .

ومن السخف أن يقال انها قد تخلفت في هذا المجال لأن الرجل قد حجر عليها وقيدها بما يرضي هواه دون ما يرضي ملكاتها وأذواقها . فان الرجل لم يحجر عليها في الطهي ولا في الخياطة ولا في الغناء ولا في الرثاء ، وان حجره عليها هو نفسه دليل على نقصها في القدرة البدنية والقدرة الذهنية ، وانها بالقياس إليه في المرتبة التالية على كل حال .

وقد عاش بعض الراهبات كمعيشة الرجال الرهبان في القرون الوسطى بين الأديرة والمعاهد الدينية والعلمية ، وانقطع هؤلاء انقطاع هؤلاء للعبادة والتلاوة ونسخ الكتب وترجمتها والتفكير فيها ، فلم يعرف لامرأة راهبة فضل في القراءة أو النسخ أو الترجمة كالفضل الذي عرف لمئات من الرهبان وعزي إليه إحياء نهضة العلوم بعد القرون الوسطى .

فهذا الفارق بين الجنسين من الفوارق التي يشهد بها التركيب كما يشهد بها الواقع المتواتر في جميع الأمم القديمة والحديثة .

ومداه واسع جداً لا ينحصر في مزايا القريحة ، ولكنه يتخطاها كثيراً إلى مزايا الروح والأخلاق .

ولنضرب لذلك مثلا نصيب الرجل ونصيب المرأة من الزواجر الأدبية والروادع النفسية .

فهذه الزواجر أو هذه الروادع ترجع الى مصادر ثلاثة يخيل الى المتعجل أنها واحدة ولكنها متفرقة المعادن والاصول :

زاجر الدين ، وزاجر العرف ، وزاجر الاخلاق .

وليس معنى التفرق في معادن هذه المصادر وأصولها أنها تتناقض ولا تتفق على نهج واحد . بل معناه أن الانسان قد يمتنع عن المحرم بوازع من الاخلاق ووازع من الدين ووازع من العرف في وقت معا ، وقد يمتنع عنه بوازع منها دون الوازعين الآخرين .

فالمرأة نصيبها الذي يبرز فيها من هذه الزواجر هو نصيب العرف والدين ، ولا سيما الدين الذي يرجع الى الخوف والتسليم . . . وكثير من دين الجهلاء لا يرتفع الى الحب والفهم كدين الخاصة وذوي الرأي والدراية .

أما الرجل فنصيبه الذي يبرز فيه من هذه الزواجر هو نصيب الأخلاق ، لأن الأخلاق هي الزواجر التي يفرضها المرء على نفسه ، ولا يفرضها عليه العرف الشائع أو العقيدة المصدقة ، أو سلطان القادة والرؤساء .

والأخلاق من ثم صفة من يريد .

والعرف والخوف الديني صفة من يراد وينقاد .

فالرجل كائن أخلاقي ، والمرأة كائن طبيعي يجري على حكم البيئة الطبيعية . وليس لها أخلاق بل عادات وشعائر وأحكام .

على أنها هي العادات والشعائر والأحكام التي تساير الغريزة الجنسية ـ أو

الطبيعة الأولى ـ حيث تسير .

فمنذ القدم أمر الدين المرأة بالصيام عن الطعام في موسم من مواسمه المرعية ، فلم تصبر على الصيام كما صبر عليه الرجل ، ولم تزل تراوغ حكم الدين وهي في سن الشباب الى أن يتجافاها الجمال ويعرض عنها الرجال .

ولكن المرأة الحديثة تتجشم من الصوم ما لم يتجشمه كثير من النساك لاعجاب الأعين واجتذاب الأهواء . وتجتنب الطعام اللذيذ والشراب المشتهى لتجنب السمنة التي يعافها الرجل في هذا الزمان ، وليس اجتناب المطاعم والمشارب بالأمر الهين عندها وهي حسية جسدية في ميولها ولذاتها ، ولكن الظفر بالاستحسان عندها فردوس يهون في طلابه كل هذا الصيام الثقيل .

والصلوات ـ التي تنصلت منها ما استطاعت ـ هي شيء هين بالقياس الى حركات الرياضة والتدليك ومتاعب الكساء الضيق والتلوين والتزويق ، ولكنها لا تثقل عليها كما تثقل الصلاة ، إذا كان وراء هذه المتاعب جزاؤها السريع من نظرة إعجاب أو كلمة إطراء .

* * *

ولا يسيطر تركيب المرأة على إرادتها من هذه الناحية دون غيرها .

بل هو مسيطر عليها من نواح شتى غير هذه الناحية ، ومنها ـ على التخصيص ـ ذلك التناقض القوي بين الحزم وطبيعة الأنوثة في صميمها ، وهي الطبيعة التي تفرض عليها الحمل والرضاع والحضانة وألا تبالي بعواقبها وإنها لمرهقة معنتة شاقة على النفس والجسد . . . وقد كانت في الآباد الغابرة خطرة قاتلة تنهك من لا تميت .

فالحزم هو أن ينسى المرء العاجل في سبيل الآجل ، وأن يبعد النظر الى الغد ولا يقصره على الحاضر الذي هو فيه .

ولو رزقت المرأة هذا الحزم لما استجابت مرة من عشر مرات لضريبة النسل المفروضة عليها . فالذي رزقته إذن هو نقيض الحزم وهو نسيان الآجل في سبيل العاجل وايثار السرور القريب على الغنم البعيد . أو هو استجابة الأثر

الحسي والاعراض عن نذير الحكمة والروية وهداية التأمل والتفكير .

وإذا بدا منها الحزم في موقف من المواقف ، فامتنعت عن لذة تغريها ، فتفسير ذلك لذة أخرى مركزة لديها غالبة على تلك اللذة التي امتنعت عنها .

فترفض مثلا الطعام لأنها مغرمة بالكساء ، وترفض المال لأنها مشغولة بشعور الأمومة ، أو ترفض الوسامة لأنها منقادة للقوة ، أو ترفض كل هذه الغوايات لأنها لا تحس باغرائها الا عند مسيس الحاجة اليها ، ولا تحفل بحاجة الغد ما دامت غنية عنها في يومها .

فحزمها هو مقاومة إغراء باغراء ، أو تسويف وارجاء الى ساعة الشعور بالاغراء .

وربما كانت رحمة المرأة في لبابها ـ وهي أشهر أخلاقها ـ مزيجاً من نقص الشعور بالألم ومن التذاذ الشعور به كما رجح بعض الباحثين في فضائل النساء والرجال .

فالمرأة تطيق التمريض ، على رأي هؤلاء الباحثين ، لأنها بليدة الحس كليلة الخيال لا تثير فيها رؤية الألم تلك الصور المتلاحقة التي تخلقها مخيلات الرجال ، ولو كانت تفزع للعذاب وتشفق منه على المتعذب لما استراحت الى ملازمته والنظر اليه واستماع أنينه وشكواه .

ولا تخفى وجاهة هذا التعليل الذي ذهب اليه أولئك الفلاسفة . ولكنه على غير ذلك قاطع في تأويله ، لأن صبر المرأة على رؤية العذاب قد يفسر بالاستغراق في عاطفة الرحمة ، وأن هذا الاستغراق يعين على الاحتمال ويملي للمرأة في مجاراة الآلام ، ولا سيما المرأة التي تنبعث فيها عاطفة الأمومة وتجيش في قلبها فاجعة من فواجعها .

ومع هذا لا ينفي استغراق المرأة في عاطفة الرحمة أنها تلتذ الألم وتجتره وترتضيه ، وأنها كليلة الخيال قلما تتولى الألم بالتصوير والتكبير كما تتولاه مخيلات الرجال .

ولا تنتهي أقوال الكتاب وأصحاب المذاهب الفلسفية والعلمية في تأويل

أسباب التفاوت بين الجنسين ، لأن تعدد التأويلات هنا مسألة مزاج كما هو مسألة فكر ودراسة ، وليس أكثر من تعدد أبناء آدم في المزاج والدرس والتفكير .

لكن التفاوت قائم ، وإن اختلفت الأقوال في تأويله ، وقيامه حقيقة عيانية وحقيقة علمية وحقيقة منطقية في وقت واحد . إذ كل قول بالتشابه بين الرجل والمرأة أو بالتساوي بينهما هو في مؤداه قول برجحان المرأة على الرجل وتفوقها عليه لجمعها بين وظائفها ووظائفه في بنية واحدة ، وذلك هو الرجحان الذي لا يسيغه منطق سليم .

وما من أحد له مصلحة في انكار التفاوت بتة بين الجنسين كمصلحة الماركسيين أو الشيوعيين في انكاره وإثبات المساواة أو المماثلة التامة بين الذكور والاناث . لأنهم ينظرون الى المرأة كأنها وحدة اقتصادية يمكن استغلالها إذا بطل استغلال الرجال ، فلا يريدون أن يثبتوا بينها وبين الرجل فرقا يسمح بهذا الاستغلال في دولة رأس المال .

ولكنهم على هذه الرغبة الملحة عندهم في تقرير المساواة بين الجنسين والاغضاء عن الحقائق التي تنفيها ، لم يقدروا على الممارة طويلا في هذه المغالطة المواثمة لمذهبهم ، وأعلنوا في نشرة الأخبار الحكومية التي أذيعت في أوائل السنة الماضية [1] ان تجاربهم الطويلة في تعليم الصبيان والبنات قد دلت على فارق واضح بينهم يلاحظ عليهم في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة وما حولها . فكانت النتائج تختلف اختلافا بيناً مع وحدة السن والمجهود ، ويظهر هذا الاختلاف في طاقة العمل عند الصبي والبنت مع تعدد التجارب والبيئات .

ولا يخفى أن عدد الصبيان والبنات الذي يقع تحت الملاحظة الحكومية بمدارس الشيوعيين هو أكبر عدد يتيسر لأصحاب مذاهب التربية في قطر من الأقطار ، ففي بلادهم مائة وخمسون مليوناً يذهب أبناؤهم وبناتهم جميعاً إلى المدارس من سنواتهم الباكرة ، وينشأ هؤلاء الأبناء والبنات في بيئات الشمال والجنوب ، وفي مدن الصناعة وقرى الزراعة ، وبين الشعوب الأوربية والاسيوية ، من عناصر شتى .

---

(١) سنة ١٩٤٤

وقد كان أناس من أساطين علم النفس بين علماء العصر الحديث يقاربون هذه المسألة الجلى ـ مسألة تعليم الجنسين ـ بعناية دون العناية التي تنبغي لأمثالها وتنبغي لهم وهم يطرقون المباحث التي تتصل بتهذيب النفوس ومصير الأجيال ، ومنهم من في طبقة « ألفرد أدلر » الذي خطر له أن يناظر « فرويد » في دراساته النفسية المشهورة . وهي فتح عظيم في تاريخ المعرفة الانسانية . فأدلر يقول في موضوع تعليم الجنسين من كتابه عن فهم الطبيعة الانسانية « ان أهم المنشآت التي أقيمت لتحسين العلاقات بين الجنسين هي التي أنشئت للتعليم المشترك بينهما » ثم يقول : « ان هذه المنشآت لا تقابل باتفاق الآراء ، لأن لها خصوما كما لها أصدقاء ».

ولكنه هو يقطع بالرأي في ثنايا عرضه لأقوال الأصدقاء والخصوم حيث يقول : « إن أصدقاءها يجعلون أقوى برهان لهم على صلاحها أن الجنسين ـ خلال التعليم المشترك بينهما ـ تنفسح لهما الفرص ليفهم كل منهما صاحبه في السن الباكرة ، فيقضي هذا التفاهم على الموروثات الوهمية ، ويمنع عواقبها الضارة جهد المستطاع . أما خصومها فيجيبون عادة بأن الصبيان والبنات يكونون في سن المدرسة قد بلغوا من الاختلاف حداً يزيد الشعور به والانتباه إليه عند الاختلاط في معهد واحد . لأن الصبيان يحسون انهم مرهقون . ويداخلهم هذا الاحساس مما يشاهد على البنات من أنهن أسرع في النمو الذهني خلال هذه السن الباكرة . فاذا اضطر هؤلاء الصبيان إلى المحافظة على مزيتهم واقامة البرهان على تفوقهم بدا لهم فجأة لا محالة أن مزيتهم في الحقيقة إن هي إلا فقاعة صابون ما أسهل ما تنفجر وتزول .

« ويقول بعض الباحثين غير هؤلاء إن الصبيان في المعاهد المشتركة يقلقون أمام البنات ويفقدون كرامتهم في نظر أنفسهم . . ولا محل للشك في اشتمال هذه الأقوال على نصيب من الصدق والرجاحة ، ولكنها لن تصمد للاختبار إلا إذا نظرنا إلى تعليم الجنسين معا كأنه ميدان للتنافس بينهما على قصب السبق في الملكة والكفاءة . وهي نظرة وبيلة إن كان هذا هو غرض التعليم عند الأساتذة والتلاميذ . وما لم نوفق إلى أساتذة يرون في التعليم المشترك رأياً افضل من اعتقادهم أنه سبيل إلى التدرب على التنافس أو التنازع المقبل بين الجنسين في المجتمع ـ فكل محاولة للتعليم المشترك فاشلة إذن لا محالة .

ولن يرى خصومه من النتائج المحتومة إلا دليلا على صوابهم بما أصابه من اخفاق » .

ثم يستطرد أدلر فيقول : « وما أحوجنا إلى خيال شاعر لتصوير الحالة كلها في صورتها الصحيحة . فلنقنع من ثم بالاشارة الى المواضع البارزة منها ، ومنها أن الفتاة الناشئة تتصرف فعلاً تصرف من يشعر بالضعة ، ويصدق عليها تماماً ما قلناه آنفاً عن الرغبة في التعويض عند ابتلاء الانسان بذلك الشعور ، وإنما الفارق هنا أن شعور الضعة مفروض على الفتاة بحكم بيئتها ، وانها تساق إلى هذا الاتجاه سوقاً حثيثاً يدعو الباحثين ذوي النظر الثاقب احياناً إلى تصديق هذه الضعة فيها ، وليس لهذا الوهم من نتيجة إلا النتيجة العامة التي يندفع إليها الجنسان حين يتعجلان خطط التزاحم والتنافس التي تشغل كلا منهما بغير ما يعنيه وما يصلح له » .

وقرار المشرفين على تعليم الجنسين بالمدارس الروسية مفيد في استدراك هذه التخريجات والتعليلات التي ذهب إليها أدلر قبل أن نوغل في طريقها إلى تلك النتائج المزعومة .

إذ لا يمكن أن يقال إن فصل الجنسين بالمدارس الروسية ناشىء من شعور الضعة المفروض على الفتاة أو البنت الصغيرة . لأن النساء الروسيات من سن الأربعين فنازلا قد نشأن على عقيدة التساوي بين الجنسين ولم تفرض عليهن البيئة عقيدة غيرها . منذ فتحن أعينهن إلى الآن . ولو غلا الدعاة الروسيون إلى أحد الطرفين لجاز أن يكون غلوهم في تقرير هذه العقيدة وتوكيدها لا في ادحاضها واضعافها ، فليست هناك ضعة مفروضة على الفتاة بحكم بيئتها ولا يوجد هناك من يسوقها الى هذا الاتجاه سوقاً حثيثاً يوهم الباحثين ذلك الوهم الذي توهمه أدلر من بعيد .

ومع هذا سجل الباحثون الروسيون أن الفرق حاصل بين الجنسين في ادوار التعليم ، وتبين لهم أن الصبي من سن العاشرة إلى الرابعة عشرة يعاني من تجميع القوى في بنيته عناء يثقل عليه فيبطىء نموه بعض الإبطاء ، وعلى خلاف هذا يطرد النمو في البنات بين العاشرة والرابعة عشرة فيزدن في الوزن والطول فضلا عن استعداد الفهم والمعرفة .

ثم يأتي دور الصبيان بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة فاذا هم الذين يسبقون البناتِ في الوزن والطول والاستعداد للفهم والمعرفة . فلا يتأتى ـ وهذه هي الفوارق بين الجنسين من العاشرة إلى السابعة عشرة ـ أن يتلقوا معاً دروساً واحدة ويجاري بعضهم بعضاً في مضمار واحد .

ثم يأتي دور آخر وهو دور التفكير في الفوارق بين عمل الرجل وعمل المرأة في الحياة . إذ ليس من المستطاع أن يناط بهما عمل واحد يؤديانه على نحو واحد من القابلية والكفاءة .

فالرجالُ يعدّون للجندية ويدربون على فنون من الدربة الرياضية العسكرية وهم فتيان صغار ، ولا يقال إن النساء أيضاً يعملن للدفاع عن أوطانهن في الجيوش . فان الواقع أن الوظائف موزعة بين الرجال والنساء حتى في ميادين القتال . فلا تناط بالنساء إلا الأعمال التي توائمهن ، كأعمال التموين والمواصلات والتمريض وما يشاكلها مما يباشرنه وراء خطوط النار .

وكذلك لا تناط بهن في تحضير الذخيرة والأسلحة إلا الأعمال التي يطقنها دون الأعمال الكبرى التي لا يصلحن لها ولا تناط بغير الرجال .

وكما ينبغي أن يعد الرجال للجندية ينبغي أن يعد النساء للأمومة وما يتصل بها من فنون التربية والتنشئة ، والعناية بالصحة والغذاء ، ومهما يكن من التسوية بين الآباء والأمهات في تبعة الأبوة والأمومة فلن تلغي هذه التسوية كل فارق بين الأب والأم في النشأة والاستعداد .

ولقد جرب فصل الجنسين بضعة أشهر ، فظهر اثر هذه التجربة في زيادة التجانس والتوازن بين صفوف المتعلمين والمتعلمات ، وأمكن ان يستفيد الصبيان والبنات خير فائدة من كل فترة يتشابهون فيها ولا يتفاوتون .

ولم يزل أساتذة التربية هناك حريصين على مذهبهم المعهود من التسوية بين الجنسين وهما مفترقان . فقال « سولوخين » مدير احدى المدارس بموسكو ان هذه التفرقة لا تفيد التفضيل والتمييز « لأن البنات والصبيان في مدارسنا يتلقون وسيتلقون طبقة واحدة من التدريب والتعليم ، ويؤهّبون أهبة متساوية لنصيبهما من عمل الحياة ، وينشأون على عقيدة التكافؤ بين الجنسين »ـ

ونقول نحن ان عقيدة التكافؤ لا تهم في هذا الموضوع ما بقي الفارق بين الرجل والمرأة في البنية والوظيفة محسوباً له حسابه الصميم في مراحل التعليم من الطفولة إلى الشباب .

فليست المسألة التي نحن بصددها مسألة تقدير المنازل والمراتب في ديوان من دواوين التشريفات ، ولكنها هي مسألة القيام بأعمال الرجال وأعمال النساء على الوجه الصالح لكل من الجنسين .

وقد يفرط القائلون بالتساوي كما يفرط القائلون بالتفاوت ، ذلك الافراط الذي يلامس الفكاهة والمزاح وإن لم يقصد به قائلوه شيئاً من فكاهة أو مزاح .

فهذا الالحاح على مسألة التساوي لا يقل في سخفه وهزله عن ذلك الرأي الذي ذهب إليه عالم من علماء الطبيعة وهو لا يمزح ولا يهزل . . ولكنه يقول جاداً إن اتساع الهوة بين إدراك الرجل والمرأة يرجع لديه أنها أنثى حيوان آخر لجأ الانسان الى اغتصابها في غابر العصور على أثر آفة جائحة ألمت بالاناث الانسانية فانقرضت وهي في بقعة محدودة من الأرض ، قبل انتشار الآدميين على وجه العالم المعمور . فذلك أقرب التعليلات عنده لهذا التفاوت البعيد بين أسلوب الرجال وأسلوب النساء في الفهم والتصور ، فضلا عن القوة العاقلة والبداهة الذهنية .

وفي تخيل هذا العالم غلو يلامس الفكاهة كما أسلفنا . . إلا أننا لا نعدو حدود المقررات الفكرية ولا نلامس الفكاهة حين نقول : ان الانثى الانسانية ليست هي المقصودة باستقلال الخلقة والتكوين . وان الغرائز الجنسية تلقي في روعنا أن الرجل هو المقصود باستقلال الخلقة من طريق هذه الغرائز . كما استدللنا على ذلك في بعض فصول كتابنا المطالعات فقلنا : « إن المرأة تعشق الرجل لتأتي برجل على مثاله أي لتكرره وتعيد خلقه ، ولكن الرجل لا يعشق المرأة ليأتي بامرأة على مثالها ويكررها ، وإنما يعشقها ليكرر نفسه ويأتي بولد له على مثاله هو من طريق المرأة التي تصلح لذلك في نظره وهواه . والمرأة تعشق لتسلم نفسها في نهاية الأمر ، فدورها في العشق هو دور التسليم دائماً . . أما الرجل فيعشق ليظفر بالمرأة ، فدوره في العشق هو دور الظافر دائماً . وليس

في مضامين الغرائز الجنسية ـ وهي أصدق مقياس لما يتناوله الاختلاف من وظائف الجنسين ـ ما يؤخذ منه ان المرأة أعظم من الرجل شأناً أو انها مقدمة عليه في مقصد من مقاصد الطبيعة . . » .

تَناقض المرأة

كتب تولستوي الأديب الروسي الكبير في يومياته بتاريخ الثالث من شهر أغسطس سنة ١٨٩٨ : « ان المرأة لأداة الشيطان . انها غبية في جملة حالاتها ، ولكن الشيطان يعيرها دماغه حين تعمل في طاعته . انظر اليها فهي تأتي بالمعجزات من التدبير والنظر البعيد والمثابرة لتفضي من ثم الى عمل خبيث . ولكنك تنظر اليها حين يُطلب منها عمل غير خبيث فاذا هي عاجزة عن فهم أصغر الأمور لا تنظر الى ما وراء لحظتها الحاضرة ولا ترى لها من عزيمة ولا جلد ».

***

والذي قاله تولستوي عن تناقض المرأة في التدبير يقال كثيراً عن تناقضها في الفهم والشعور : تخلص ثم تخون ، وتشتد في الحب ثم تشتد في الكراهية ، وتقول لا وهي تعني نعم ، وتقول نعم وهي لا تعني ما تقول ، وتصبر على التضحية بالراحة والعافية ولا تصبر على خسارة دريهمات ، ولا تزال تنتظر منها شيئا وتفجأك بغير ما تنتظر ، وتحسب عندها حسابا وتلقاك بما لم يكن لك في حساب .

وبعض هذا التناقض في طبيعة الناس من الاناث كانوا أم من الذكور ، وفي الشؤون الجنسية يعرض لنا أم في غير هذه الشؤون .

لكن التناقض ـ بعد هذا ـ خلة لا مناص منها في تكوين المرأة خاصة ، لأنها خلة ملازمة للأنوثة في ألزم لوازمها ، وهما الأمومة والحب بشتى معانيه .

فاللذة والألم نقيضان في الكائن الحي على الاجمال . ولكنهما يمشيان معاً في إحساس المرأة فتجمع بينهما اضطرارا من حيث تريد ومن حيث لا تريد :

أسعد ساعات المرأة هي الساعة التي تتحقق فيها أنوثتها الخالدة وأمومتها المشتهاة ، وتلك ساعة الولادة .

في تلك الساعة يغمرها فرح لا يوصف ، إذ هي تنجب ذلك المخلوق الحي

الذي صبرت على حمله حتى أسلمته الى الدنيا راضية مرضية ، ولكنها مع هذا هي أشد ساعات الآلام والأوجاع في جسد الأم الطريح بين الموت والحياة .

فالنقيضان في إحساسها يتلاقيان ويتجاوران ، ويمتزجان أحياناً فلا ينفصلان ، ومن هنا تراها في غبطة وهي تعاني الألم ، وتراها في ألم وهي تختلج بالسرور .

وأسعد ساعات المرأة كرة أخرى هي ساعة التسليم والخضوع للرجل الذي يستحق عندها مذلة التسليم والخضوع .

لا مناص عندها من السعادة في تلك الساعة وهي راغمة ، لأن أمنيتها القصوى هي أن تظفر بالقرين الذي تستكين الى بأسه وتشعر بغلبته ، ولا سعادة لها مع الرجل الضعيف لأنه أب غير صالح وزوج غير نافع ورجل غير موفور الرجولة . فاذا شعرت بقصارى رجولته شعرت بقصارى غلبته في وقت واحد .

والشعور بالخضوع مؤلم مذل للكائن الحي على الاجمال ، ولكنها هي الكائن الحي الذي يحقق لها الخضوع غرض الأنوثة الأقوى ، ولا غرض للأنوثة أقوى من الظفر بالغلاّبين من الرجال .

فهي في ألمها راضية وفي خضوعها ظافرة ، وهي على الرغم منها تجمع بين النقيضين : الظفر والهزيمة ، والنجاح والتسليم .

هي أبداً بين نقيضين في أمومتها وفي حبها ، وذلك هو التناقض الذي لا حيلة لها فيه ، ولا يفجأ الرجال منها الا كما يفجؤها هي على غير ما تنتظر، وعلى غير ما يقع لها في تدبير .

فمن الخطأ أن يرد على الخاطر أن التناقض من دهاء المرأة وتدبيرها ، أو من ختلها وخداعها ، فهي مخدوعة به قبل أن تخدع سواها ، وهي في قبضته فريسة لا تملك ما تريد .

ولا بد من التناقض في طبع الأنثى لأنها شخصية حية خاضعة للمؤثرات التي تتناوبها من عدة جهات ، وهي كما أسلفنا في الفصل السابق مستجيبة للأثر الحاضر ، وقد تبدهها الآثار الحاضرة من كل صوب لا من صوب واحد .

فالمرأة من جهة ثانية عضو في بيئة اجتماعية هي الأمة أو المدينة أو القبيلة ، فهي هنا زوجة أو بنت أو أخت أو صاحبة عمل تجمعها بتلك البيئة الاجتماعية صلة العرف أو الشريعة .

والمرأة من جهة غير هذه وتلك أنثى لها تركيب حيوي يربطها بمخلوق آخر لا يتم وجودها بغيره .

والمرأة من جهة أخرى أم تحب أبناءها بالغريزة والألفة ، وتصبر في سبيلهم على مشقات وآلام يؤودها الصبر عليها في غير هذه السبيل .

وهي بعد هذا كله كائن حي من حيث هي وليدة الحياة في جملتها ، أيا كان النوع الذي تنتمي اليه ، والأمة التي تعيش بينها ، والعلاقة التي تجمعها بالزوج أو العاشق أو الأهل أو البنين .

وقد تختلف عليها هذه الوجهات جميعاً فلا مفر لها من التناقض معها . لأن مقاصد الفرد المستقل والأنثى المفتونة والأم التي تنسى نفسها في حنانها ، والكائن الاجتماعي الذي يرعى مطالب العرف والشريعة ، أو الكائن الحي الذي تهزه الحياة بهذه النوازع كما تهزه بما عداها ـ كل أولئك يختلف ويتناقض لا محالة ، ولا يتأتى التوفيق بينه إلا في الندرة العارضة .

فها هنا مثلا فرد يريد بفطرته الفردية أن يستقل عن جميع الأفراد الآخرين ، سواء كانوا من الآباء أو الأمهات أو الأزواج ، فلا يلبث أن يستقر فيه هذا الشعور الطبيعي حتى ينازعه فيه شعور الأنثى التي تريد أن تنضوي الى رجل تهواه ، وقد ينازعها شعوران بل أكثر من شعورين اذا تعددت الصفات التي تستهويها من الرجال ، وتفرقت بينهم على نحو يضلل الارادة ويشتت الأهواء .

ولا تلبث أن تنسى استقلالها الفردي وتطاوع نزعتها الأنثوية ، حتى يبرز لها المجتمع بحكم يخالف حكمها في الاختيار والترجيح ، فيقودها الى الجاه والمال وهي تنقاد الى الفتوة والجمال ، أو يلزمها الوفاء للزوج وهي تنظر الى رجل آخر نظرة الأنثى التي سبقت بفطرتها قوانين الأمم وقواعد الآداب .

ولا تلبث أن تحتال على هذه البواعث أو هذه الوساوس حتى يغلبها حنو الأمومة ليربطها بمكان لا تود البقاء فيه ، أو ينهض الكائن الحي في نفسها نهضة لا تطيع باعثاً غير بواعث الحياة ، بمعزل عن نزوة الأنثى وقانون المجتمع وغرائز الأمهات .

فلا عجب في هذا التناقض ولا مباينة فيه للمعقول ، ثم يضاف اليه تناقض آخر يرجع الى تعدد الدواعي في كل صفة من الصفات التي أشرنا اليها .

ونكتفي بصفة واحدة على سبيل التمثيل ، لأن شرح الصفات جميعها في

تعددها وتباينها من وراء الحصر والاحصاء .

فالمرأة في صفة الأنوثة ـ وهي تنضوي الى الذكورة ـ تحب الرجل الكريم لانه يغمرها بالنعمة ، ويريحها من شدائد العيش ، ويخصها بالزينة التي تزهيها وترضي كبرياءها بين نظيراتها ، فضلا عما في الكرم من معنى العظمة والاقتدار .

ولكنك قد ترى هذه المرأة بعينها تتعلق ببخيل لا ينفق ماله على زينة أو متاع . فهل هي مناقضة لطبيعتها في هذا الانحراف العجيب ؟

كلا . بل هي لا تناقض طبيعة الكبرياء نفسها التي ترضيها عن كرم الكريم .

لأن المرأة يجرح كبرياءها أن ترى رجلا يستكثر المال في سبيل مرضاتها ، ومتى جرحت المرأة في كبريائها أقبلت باهتمامها وحيلتها وغو ايتها من حيث أصابها ذلك الجرح المثير . وليس أقرب من تحول الاهتمام الى التعلق في طبائع النساء .

فالنزعة الواحدة قد تكون سبيلا الى النقيضين في ظاهر الأعمال ، ولكنهما نقيضان لا يلبثان أن يتفقا ويتوحدا عند المنبع الأصيل ، متى عرفنا كيف تنتهي الردة اليه .

وكلما ذكرنا نقائض المرأة وجب ألا ننسى مصدراً آخر للتناقض في أخلاق النساء ، يفسر لنا كثيراً من نقائضهن حيثما توقعنا شيئا من المرأة وأسفرت التجربة عن سواه .

ذلك المصدر هو درجات الأنوثة وأطوارها بين الظهور والضمور . .

فالأنوثة صفات كثيرة لا تجتمع في كل امرأة ولا تتوزع على نحو واحد في جميع النساء .

فليست كل امرأة أنثى من فرع رأسها الى أخمص قدمها ، أو أنثى مائة في المائة كما يقول الأوربيون . بل ربما كانت فيها نوازع الأنوثة ونوازع غيرها الى الذكورة ، وربما كانت انوثتها رهناً بقوة الرجل الذي يظهرها فلا تتشابه مع جميع الرجال . وربما كانت في بعض عوارضها الشهرية وما شابهها من عوارض الحمل والولادة أقرب الى الأنوثة الغالبة أو أقرب الى الذكورة الغالبة .

وقد كانوا فيما مضى يحسبون هذا التراوح بين الذكورة والأنوثة ضرباً من كلام المجاز ، فأصبح اليوم حقيقة علمية من حقائق الخلايا وفصلا مدروساً من

فصول علم الأجنة ووظائف الأعضاء .

وليس التناقض لهذا السبب مقصوراً على النساء دون الرجال . . فإن الرجل أيضاً يصدق عليه ما يصدق على المرأة من تفاوت درجات الرجولة ، إذ ليس كل رجل ذكراً من فرع رأسه الى أخمص قدمه ، أو ذكراً مائة في المائة كما يقال في اصطلاح الأوربيين ، ولكن التناقض لهذا السبب يبدو في المرأة أغرب وأكثر لامتزاجه بأسباب التناقض الأخرى ومحاولة الرجل أن يفهمها على استقامة المنطق كدأبه في تفهم جميع الأمور .

ولا ريب أن « الشخصية الانسانية » في حالي الذكورة والأنوثة عرضة لكثير من النقائض المحيرة للعقول : عقول الرجال وعقول النساء .

وكم يقول النساء عن تناقض الرجال ولا يخطئن المقال ! كم يقلن إن الرجل « كالبحر المالح » لا يعرف له صفاء من هياج ! وكم يقلن إن فلانا كشهر أمشير لا تدري متى تهب فيه الأعاصير ! وكم تقول احداهن للأخرى : حبيبك في ليلك عقرب في ذيلك ! وكم لهن من أمثال هذه الأمثال مما لا يحفل به الرجال !

إنهن لا يعنين بمقاربة الرجل من طريق الفهم كما يعنين بمقاربته من طريق التأثير ، ولو حاولن فهمه كما يحاولن التأثير فيه لخرجن به لغزاً من الألغاز وأعجوبة من أعاجيب البحار في قديم الأسفار .

« فالشخصية » كلمة واحدة في اللغة ولكننا نخطىء أبعد الخطأ إذا تصورناها شيئاً واحداً لأنها تنطوي تحت عنوان واحد . إذ هي أشياء لا تحصى من الغرائز والمدارك والأحاسيس وعلاقات المجاوبة بينها وبين العالم الذي تعيش فيه ، وهي بهذا الخليط الواسع في حركة دائمة لا تستقر على وجهة واحدة برهة من الزمن ، ولا تعهدها في الصحة ولا في الشباب كما تعهدها في المرض أو في الهرم ، ولا تصدر فيها النزعة الواحدة من مصدر واحد في جميع الأوقات والأحوال . .

فهي تختلف بين حالة وحالة ، وتختلف بين سن وسن ، وتختلف على حسب العلاقة بينها وبين هذا الانسان وذاك الانسان . . وتختلف على حسب العلل والبواعث التي تحركها الى الأعمال .

والمرأة كالرجل « شخصية انسانية » تتعرض للنقائض من جراء هذا التعدد

وهذا التقلب في عناصر كل « شخصية » تحمل عنواناً واحداً وتشتمل على شتى العناصر التي لا يقر لها قرار .

ولكنها انفردت بأسبابها المقصورة عليها ، وانفردت بمراقبة الرجل إياها ومحاولة التوفيق بين غرائبها وبدواتها .

وعندها في صميم هذه الأسباب المقصورة عليها حالتان تضاعفان ظهور التناقض فلا يخفى كما يخفى تناقض الرجل على النظرة الأولى .

إحدى هاتين الحالتين طبيعة المراوغة التي وصفن بها إذ « يتمنعن وهن الراغبات » .

والأخرى طبيعة الاستغراق في الساعة التي هي فيها ونسيان ما قبلها وما بعدها ، فيبلغ العجب أشده بمن يراقبها أن يراها تنتقل بين أطوارها كما يتنقل الممثل بين أدواره ولا يخلط بينها أو لا يستبقي من سوابقها بقية في تواليها .

فمن المشاهد أن الرجل إذا قضى يوماً أو أسبوعاً في مناداة اسم من الأسماء ـ ولا سيما نداء المفاجأة ـ اخطأ فسبق به لسانه في جلسة أخرى لا يود أن يذكره فيها ، بل لعله يود أن يكتمه ولا يومىء اليه .

وقلما يشاهد هذا في محادثات المرأة ولو تلاحقت بين ساعة وساعة ، لأن الساعة التي هي فيها تستولي عليها فلا يزل لسانها بالإشارة الى غيرها ، ولأنها تستعين هنا بطبيعتين أصيلتين فيها ، وهما طبيعة النفاق وطبيعة الاستغراق .

ولم يزل التناقض باباً من أبواب الحيرة واختلاف الحساب ، ولكن التناقض الذي يفهم سببه يريح من الحيرة على الأقل عند البحث عنه والتفكير فيه ، وإن لم تكن به راحة من معاناة النقائض وابتلاء متاعبها ، ولا عتب في معظمها على المرأة لأنها لا تقصدها كلما لجأت اليها ، وقد تكون هي ضحية من ضحاياها .

حُبُّ المرْأة

يجتمع في حب المرأة كلُّ ما تفرق من نقائضها وأسرار خلقها ، لأن الحب هو محور الوظائف الجنسية التي خلقت فيها نقائضها وأسرارها . فهي لا تتناقض في خالجة من الخوالج كما تتناقض في هذه الخالجة الكبرى ، ولا تستوفي أنوثتها في نزعة من النزعات كما تستوفيها وهي تستقبل بها رجولة الرجل الذي تهواه .

ومما يضاعف نقائض الحب أن المرأة في الحب نماذج كثيرة على حسب الطبيعة الغالبة عليها من طبائع الأنوثة .

فليس حب المرأة المشغولة بالأمومة كحب المرأة المشغولة بالزوجية ، أو حب المرأة المشغولة بالعشق وعلاقاته ، أو المرأة المشغولة بالمتعة الحيوانية أو المشغولة باللعب والعبث والتصدي لكل من تلقاه من الرجال .

ولا نهاية للشواغل التي تختلف بها أهواء النساء ولا أهواء المرأة الواحدة . ولكننا نردها الى نماذجها العامة فتخلص لنا منها تلك النماذج الخمسة التي أجملنا الاشارة اليها فيما تقدم . وهي : نموذج المرأة الأم ، ونموذج المرأة الزوج ، ونموذج المرأة العاشقة ، ونموذج المرأة الهلوك ، ونموذج المرأة اللعوب .

وكل نموذج من هذه النماذج يخالف الآخر في حبه واختياره للرجل الذي يوائمه ، وفي علاقته بمن يختار .

فالمرأة الأم تصدر في حبها عن بواعث الحنان والتضحية . وقد تعطف على الرجل لمتاعبه وآلامه فتحبه وتهواه إذ يهيء لها منفذاً لعاطفة الأمومة الغالبة عليها . فترعاه في معيشتها معه رعاية الأم لوليدها ، وتصبر معه على الضنك والحرمان ، لأنها مطبوعة على التضحية وإنكار النفس في سبيل الذرية ، ومتى طبعت المرأة على إنكار النفس في هذا السبيل فهي تنكر نفسها كلما أحبت

واستجاش الحبُّ في طواياها بواعث العطف والرعاية .

والمرأة الزوج يستهويها الرجل من ناحية المعيشة المنزلية والمظاهر الاجتماعية وعلاقات الأهل والاسرة وإلفة المزاوجة التي تستغرق طبائع بعض الآدميين ، كما نشاهدها مستقرة في بعض الطيور أو بعض الفقاريات التي تألف المزاوجة مدى الحياة .

والمرأة العاشقة تحب الرجل الذي يثير حسها ويشغل كوامن نفسها ويملك اعجابها ، وتختلف النساء العاشقات فيما يثير الحس ويشغل كوامن النفس ويملك الاعجاب ، فمنهن من يستهويها الرجل بشبابه وجماله وسمته ، ومنهن غير أولئك ألوان وأشكال يختلفن في عشقهن كاختلاف الرجال في المحاسن والمزايا والخصال .

والمرأة الهلوك تحب الرجل للشهوة الحيوانية ولا يعنيها الرجال إلا من هذه الناحية دون غيرها ، ويخلو هذا الحب من الوفاء والاخلاص والشفقة والمودة والمعاني الأدبية التي توجد بين المحبين ، لأنه يشبه الشغف بالطعام والشراب لا صلة فيها بين الآكل والمأكول أو الشارب والمشروب ، غير صلة الشبع والجوع وصلة الري والظمأ . ولا تحفل المرأة التي تحب هذا الحب بشخص الرجل ، ولا تقنع بواحد إذا استطاعت أن تستكثر من العشراء . ولكنها قد تشاهد على حالة من التعلق برجل واحد تلتبس بحالة الوفاء والاخلاص ، وهي ليست من الوفاء والاخلاص في شيء ، وإنما سببها الاختلاف بين الرجل والمرأة في طلب الجنس الآخر واحتجازه .

فالرجل ترضي شهوته كل امرأة اتصلت بينه وبينها صلة جنسية ، ولا يعيبه أن يطلب المرأة ولا المرأة تعافه لأنه يطلبها . ويندر من الرجال من يقبل علانية أن تحتجزه امرأة لشهواتها وتتكفل بالنفقة عليه .

ولكن المرأة على نقيض ذلك لا يرضي شهوتها كل رجل تتصل بينها وبينه صلة جنسية ، ويعيبها جداً أن تسعى كل حين في طلب رجل جديد ، ولا يعيبها أن يحتجزها الرجل وينفق عليها كما يعيبه هو أن تحتجزه وتنفق عليه .

فاذا عثرت المرأة الهلوك بالرجل الذي يرضي شهوتها ويقبل احتجازها وتلبية هواها فهي تتعلق به وتقتصر عليه لانها طلبة لا تتكرر بمشيئتها ، ولو كانت تتكرر بمشيئتها لما فرغت من تغيير الرجال وتبديلهم كل يوم .

ولهذا قد تكون المرأة الشهوانية أدوم النساء على رجل واحد مع أنها لا تعرف الوفاء والمودة والحنان ، وذاك الذي يلوح للنظرة الأولى كأنه تناقض عجيب من خلق النساء ، وانما علته ما قدمناه .

أما المرأة اللعوب فهي تحب الرجل الذي يرضي فيها طبيعة اللعب والدعابة والغزل الصاخب المتجدد . وقد تحب الدعابة للدعابة لا لأنها طريق الشهوة أو الصلات الجنسية والعلاقات الزوجية .

وأدعى ما يكون من دواعي الحيرة في تناقض النساء في حبهن أن غلبة نموذج من هذه النماذج على طبيعتهن لا يمحو منها النماذج الأخرى . .

فالمرأة اللعوب قد يراجعها عطف الأمومة في بعض أطوارها ، والمرأة الأم قد تطرب للدعابة والعبث وتؤخذ بهما ، والمرأة الهلوك قد تضمر العشق حيناً من أحيانها ، والمرأة العاشقة قد تركن الى الزواج الدائم ، والمرأة الزوج قد تعشق زوجها طويلا كما يتعاشق المحبان المغرمان .

لأن غلبة عنصر من عناصر الطباع لا يجتث العناصر الأخرى سواء في نفوس النساء أو نفوس الرجال .

والحب كما لا يخفى علاقة بين شخصيتين لا بين جنسين .

وتفسير ذلك أن العلاقة التي تكون بين كل ذكر وبين كل أنثى هي وظيفة جسدية وليست علاقة نفسية أو روحية كالعلاقة التي تكون بين المحبين .

وانما تسمى العلاقة بين الذكر والأنثى حباً إذا تميزت فيها شخصية من جنس الرجال وشخصية من جنس النساء ، فلا يغني عن كل منهما بديل من جنسه ، إلا إذا وهنت العلاقة التي بينهما .

والسنة العامة في الحب هي التوحيد والاكتفاء بمحبوب واحد في حينه ، ولكنه قد يجري على غير هذه السنة في بعض أحواله الغريبة ، فتحب المرأة غير رجل وقد تحب عدة رجال . لأن « شخصية » الرجل الواحد لا تنحصر فيها جميع المزايا التي تستهوي النساء من الرجال ، وقد تبرز فيها مزية واحدة كل البروز فلا يسع المرأة أن تغفل عنها ، وتضمر فيها المزايا الأخرى فلا تصبر المرأة عن نشدانها في « شخصية » أخرى .

وقد تشعر المرأة بالحاجة إلى حب رجلين اثنين متناقضين : أحدهما تكبره وتكبر نفسها إذا علمت أنها كبيرة في نظره ، والآخر تصغره ولا تبالي أن تكشف

له صغائرها وتطلعه على مذلاتها ، وتستريح إلى محادثته لأنه من الجنس الآخر ، ولا تشعر بمثل هذه الراحة إلى محادثة صديقة من جنسها .

والمزايا التي تستهوي النساء من الرجال لا تحصى في تعدد أنواعها ودرجاتها . فمنها القوة والجمال والشهرة واللباقة والظرف وعلو المكان وبسطة الجاه ، ومنها ما يرضي غرورها وما يرضي جسدها وما يرضي ذوقها وما يرضي فؤادها . وكلها تتطلب الارضاء ولا تتلاقى في « شخصية » واحدة . فلا يندر من أجل هذا أن تتعلق المرأة بأكثر من رجل واحد تعلقاً صحيحاً لا رياء فيه ، وتعينها على ذلك سليقة الاستغراق التي تهوّن عليها الانتقال من حال إلى حال في حضرة كل محبوب ، فلا ينكشف سرها إلا بانتباه شديد . لأن المرأة قد تنكشف حين تبغض وتداهن من تبغضه ، ولكنها لا تنكشف حين تحب وتظهر المحبة وإن أضمرت غيرها في اللحظة بعينها ، وهذه هي العقدة التي يحسبها بعضهم لغزاً كاللغز الذي يصادفه العلماء النفسانيون في أصحاب « الشخصية » المتعددة ، وليست هي باللغز على هذا الاعتبار . . لأن الشخصية المتعددة غير الشخصية الفذة التي تمر بحالة بعد حالة ، وتستغرق في كل منهما فترة تقصر أو تطول .

وفي حب المرأة مجال للتناقض ـ غير ما تقدم ـ يرجع إلى تفاوت درجات الأنوثة الذي سبقت الاشارة إليه .

فمن التعبيرات المجازية التي تقارب الحقيقة العلمية كل المقاربة أن المرأة والرجل لا يكمل الوفاق بينهما إلا إذا كان فيهما معا ذكر كامل وأنثى كاملة ، أو مائة في المائة من الذكورة ومائة في المائة من الأنوثة كما يقال في الاصطلاح الأوربي الحديث .

ولكن المرأة التي تكمل فيها مائة في المائة من الأنوثة غير موجودة ، والرجل الذي تكمل فيه مائة في المائة من الرجولة غير موجود .

فالمرأة التي تغلب عليها الأنوثة يصلح لها قرين تغلب عليه الرجولة ، فاذا انحرفت المرأة نحو طباع الرجال فأصلح القرناء لها رجل منحرف نحو طباع النساء .

وقد تسيطر المرأة على رجل وتخضع لرجل غيره ، تبعاً لاختلاف نصيبهما من الفحولة وصعوبة المراس .

وهذا التفاوت في درجات الأنوثة هو سبب الانحراف في علاقات الجنس بين بعض النساء المعروفات « بالسافيات » نسبة إلى الشاعرة اليونانية سافوا التي تغزلت في بعض أناشيدها بالفتيات .

كانما تفقد المرأة سرورها بمصاحبة الرجال فهي تلتمس هذا السرور بمصاحبة بنات جنسها الذي خرجت منه بالمزاج وان بقيت فيه بتركيب الأعضاء .

ومن المقارنات التي تتكرر في كل جيل تلك المقارنة الخالدة بين الرجال والنساء في الحب أيهما أقوى فيه وأيهما أوفى وأيهما أقرب إلى الروحانية والقداسة .

بعض الاقدمين زعموا ان المرأة أقوى شهوةً من الرجل ، وزعموا أنهم قاسوا هذا الفارق بمقياس الحساب فوجدوا أن نصيب النساء تسعة وتسعون والواحد الباقي من نصيب الرجال .

وبعض زعموا أن الحب أهم للمرأة من الرجل ، لأن شواغل الرجل قد تلهيه عن الاستغراق فيه .

ولا بد من فارق في الحب بين الجنسين على كل حال .

لأن هدف المرأة من الحب هو الرجل وهدف الرجل من الحب هو المرأة ، وهما مختلفان في الصفة والغاية والوسيلة .

لا بد من فارق بين الحب المعبر والحب الكتوم . فالحب المعبر ـ وهو حب الرجل ـ يتسامى بتعبيره أحياناً إلى خلق الجمال في الفنون كما يصنع المغرم الذي ينشد القصيد أو يبدع التماثيل أو ينطلق بالغناء . .

والحب الكتوم ـ وهو حب المرأة ـ قد يتوارى عن الأنظار ويتغلغل في الأسرار ويعمد إلى الرقي والتعاويذ وإلى السحر الأسود ليستميل به من لا يميل ، ومن لا يرفع المرأة في نظره أنه يستمال عنوة وجهرة ، كما يفعل الرجل حين يستميل من يهواها من النساء .

فالفن الجميل شفيع حب الرجل ، والسحر الأسود شفيع حب المرأة ، لأن هذا مجذوب إلى الخفاء وذاك مجذوب إلى الضياء : وإن وجد كلاهما أصلاً لغرض غير هذين الغرضين .

وإن الفجوة بعيدة بين الوجهتين .

وشتان بين الحب الناطق الذي يكرمه أن يطلب ويعبر ، وبين الحب الصامت الذي يكرمه أن يصمت وينتظر . . فهما ولا ريب جنسان متباينان كما يتباين الجنسان المحبان .

كذلك لا يتشابه الحبان ، هذا خلق في طبيعة تنقاد للمؤثرات ولا تبالي ما وراءها ولا تزال في حاجة إليها وهي معشوقة وزوج وأم ذات بنين ، وهذا خلق في طبيعة تملي تلك المؤثرات وتتسلط بها على الطبيعة المقابلة لها ، وهي مدعوة إلى التسلط عليها .

فأحد الحبين ينبع من الاحساس ، والآخر ينبع من العزيمة النافذة والعارضة القوية ، وإن جاز أن يصطبغ كلاهما بغير صبغته كلما جاوز المنبع وجرى مطّرداً أو غير مطرد في مجراه .

ولا يتشابه كذلك حب يقترن بحب المجد والكفاح ونتاج الفكر والالهام ، وحب تفرغ له النفس أو تكاد ، ولا تطلب المفاخر معه إلا من طريقه أو من جوار ذلك الطريق .

والحب يعدُّ من جانب المرأة طلب حماية وتسليم ، ومن جانب الرجل طلب هجوم وظفر . فلولا انهما يدوران على محور واحد لقيل انهما متناقضان .

والحب كما قيل عند المرأة شغل شاغل وصناعة دائمة ، وعند الرجل رياضة فراغ وسكن من جهاد .

فهو يستولي على المرأة كلها ولا يستولي من الرجل إلا على الجانب الذي يتوق الى الرياضة وابتغاء الراحة ، ومن الرياضة رياضة القريحة ورياضة الروح .

فأيهما إذن أحرى أن يدوم ؟

ظاهر الأمر أن الحب الذي يستولي على النفس كلها هو أحرى بالدوام ، وحقيقة الأمر أن الحب الذي يبلغ هذا المبلغ هو أقرب الحبين الى الخطر وأدناه الى التبدل ، لأن النفس الانسانية لا تدوم طويلا على حالة الاستغراق أو الشبع والامتلاء ، وقد يُضمن الدوام للحب الذي يستريح من جانب الى جانب ولا يكلف الطبع جهداً عظيماً في موالاته بالمدد والتجديد . ولكنه لا ضمان للحب الذي يحتاج أبداً الى مدد يكفل له كل استغراق وامتلاء ، ولا يصبر على فراغ بعضه الا نزع الى حالة أخرى من حالات الاستغراق والامتلاء .

وتعريف الحب ـ ولو فيما نراه نحن ـ قد يعين على فصل هذين الحبين ولمس مواقع الالتباس بينهما ، إذا وقع هذا الالتباس .

فالحب ـ ولو فيما نراه نحن ـ هو اتصال شخصيتين ـ لا مجرد ذكر وأنثى ـ تنغلب فيه العادة على الارادة ، وقد يتفق لأكثر من شخصيتين اثنتين مع اختلاف الباعث والغرض والقوة .

وهنا تلعب العوارض النفسية لعبها الذي يخلط بين الشكول حتى ليوشك أن يخلط بين الأصول .

فالرجل أقوى إرادة من المرأة ولكنه لا يشعر بالعيب وهو يريد المرأة ويلاحقها ويحرص على احتجانها واستبقائها ، ما لم يكن في ذلك مساس بالنخوة والمروءة ، فيريد أحياناً وهو يبدو للوهلة الأولى كأنه مقسور .

والمرأة أضعف إرادة من الرجل ولكنها تشعر بالعيب من ملاحقته واحتجانه ، فتصد عنه وتعتصم في صدها بحظ المرأة من الارادة ، وهو العناد أو الارادة السلبية : إرادة الامتناع .

وهذا الذي يبدو منه لأول وهلة أن المرأة في الحب أقوى إرادة من الرجل .

وقد قالت إحدى ذكيات المعلمات في معرض الموازنة بين ذكاء الجنسين إن النساء أذكى من الرجال ، لأنهم يريدون معاً سروراً واحداً والرجل هو الذي يؤدي ثمنه ويسعى اليه .

وذلك هو التباس الشكول الذي لا يسري الى الأصول .

فان المسألة هنا ليست مسألة الارادة وانما هي مسألة الشعور بالعيب بين الجنسين ، ولا يعيب الذكور ما يعيب الاناث .

نعم ولا يعيب الكفيل أن يسعى في رعاية المكفول ، بل يبلغ من ذلك أن الطفل الصغير يقسرنا على رشوته ومصانعته ليقبل على تجرع الدواء . وهو أحوج الى معاطاته وفي خطر من الاعراض عنه .

***

وكل ما تقدم فهو حديث عن الرجل الذي أحب والمرأة التي أحبت ، وليس بحديث عن كل رجل وكل امرأة من الجنسين .

فليس لأحد أن ينظر الى الرجال عامة والنساء عامة ثم يسأل أين هي نوازع الرجال الذين تعنونهم ؟ وأين هي نوازع النساء اللاتي تعنونهن ؟ فان من يسأل

هذا السؤال كمن يلتمس الماء في غير مورد ، وأخلق بالباحث عن عوارض النفوس ان يبحث عنها في أطوار التعرض لها والاصابة بها كما يبحث عن عوارض الأبدان .

فهي تعرف حيث توجد ، ولا تعرف حيث تنعدم أو تكمن في الانتظار ، وكم من الرجال والنساء يقضون العمر ولا يعيشون ، ويلبسون الحياة في ذيل ثوب الحياة ؟! .

أخلاق المرأة

الأخلاق ضوابط جسدية ونفسية تعم الأحياء جميعاً ولا تخص نوع الانسان .

ومن العسير أن نفصل بين الأخلاق الانسانية والأخلاق الحيوانية بحجاز حاسم يقال عن هذا الشطر إنه إنساني لا حيوانية فيه ، وعن ذلك الشطر إنه حيواني لا إنسانية فيه .

ولكن الفصل بينهما قد يتيسر على وجه التقريب بمقياس يصدق في معظم الأحوال ، إن لم يصدق في جميع الأحوال .

فالخلق الانساني هو الخلق الذي يعتمد على المبدأ والضمير ، ويتفاضل الأفراد فيه على حسب التفاضل بينهم في العقل والنبل والنشأة والعادة والتعليم .

والخلق الحيواني هو الخلق الذي يعتمد على الغريزة والوظائف الحيوية ، ويجري على وتيرة الحركة الآلية التي لا تحتمل التفاضل البعيد بين فرد وفرد وبين فصيلة وفصيلة .

ذاك فردي روحي ،
وهذا نوعي جسدي على وجه التقريب ، بذلك المقياس الذي قلنا إنه قد يصدق على معظم الأحوال وإن لم يصدق على جميع الأحوال . .

وهذا المقياس بعينه هو المقياس الذي يرجع اليه في التفرقة بين أخلاق الرجال وأخلاق النساء : كل ما هو فردي روحي ، أو اختياري إرادي ، فهو أقرب الى خلق الرجل ، وكل ما هو نوعي جسدي ، أو آلي اجباري ، فهو أقرب الى خلق المرأة ، فمداره على وحي الغريزة أولاً ، ثم على وحي الفهم والضمير .

والأخلاق التي يسمو بها الانسان الى مرتبة التبعة والحساب ، أو مسؤولية

الأدب والشريعة والدين هي ـ كما لا يخفى ـ أخلاق تكليف وإرادة وليست أخلاق إجبار وتسخير .

ومن هنا صح أن يقال إن المرأة كائن طبيعي ، وليست بالكائن الأخلاقي ، على ذلك المعنى الذي يمتاز به خلق الانسان ولا يشترك فيه مع سائر الأحياء .

***

مساك الأخلاق الأول عند المرأة هو الاحتجاز الجنسي الذي ألمعنا اليه فيما تقدم ، وهو من الغريزة التي يتساوى فيها إناث الحيوان وليس من الارادة التي يتميز بها نوع الانسان بجنسيه .

فالمرأة تستعصم بالاحتجاز الجنسي لأن الطبيعة قد جعلتها جائزة للسابق المفضل من الذكور ، فهي تنتظر حتى يسبقهم اليها من يستحقها فتلبيه تلبية يتساوى فيها الاكراه والاختيار .

كذلك تصنع إناث الدجاج وهي تنتظر ختام المعركة بين الديكة أو تنتظر مشيئتها بغير صراع .

وكذلك تصنع الهرة وهي تتعرض للهر وتعدو أمامه ليلحق بها ، وتصنع العصفورة وهي تفر من فرع الى فرع ليدركها العصفور السريع ، وتصنع الكلبة والفرس والاتان ، وهي مضطرة الى الاحتجاز لأنه الحكم القاهر الذي فرضته عليها وظائف الأعضاء .

والبون بعيد جداً بين هذا الاحتجاز الجنسي وبين فضيلة الحياء التي تعد من فضائل الأخلاق الانسانية .

فالحياة مفاضلة بين ما يحسن وما لا يحسن وبين ما يليق وما لا يليق وما هو أعلى وما هو أدنى .

والاحتجاز الجنسي غريزة عامة بين الاناث ، ترجع الى القهر والاجبار كائناً ما كان التفاوت بينها في درجة القهر والاجبار .

ومتى بلغ هذا الاحتجاز الجنسي مبلغه الذي قصدت اليه الطبيعة فقد بلغت الأخلاق الانثوية غايتها ولم يبق منها ما يلتبس بالحياء في صورته ولا في معناه .

ومن ضلال الفهم أن يخطر على البال أن الحياء صفة أنثوية وأن النساء أشد استحياء من الرجال ، فالواقع ، كما لاحظ شوبنهور ، أن المرأة لا تعرف الحياء بمعزل عن تلك الغريزة العامة ، وأن الرجال يستحون حيث لا يستحي النساء ، فيستترون في الحمامات العامة ، ولا تستتر المرأة مع المرأة إلا لعيب جسدي تواريه .

ولم يكن عمر بن أبي ربيعة مبالغاً حين قال إن الوجوه يزهوها الحسن أن تتقنع . بل هو لو شاء لقال عن الاجسام ما قال عن الوجوه . . فلا تستر الأنثى الفطرية شيئاً يمكنها أن تبديه إذا كان في عرضه مجلبة للنظر والاستحسان ، ومن شهد الحمامات العامة على شواطىء البحر رأى كيف تهمل الأكسية ذات الرفارف المسبلة ليبدو للأنظار ما استتر من محاسن الأجسام .

فالخلق الذي تتحلى به المرأة بداهةً هو خلق الغريزة الذي يوشك أن يشمل إناث الحيوان .

وكل خلق « إرادي » تتخلق به بعد ذلك فهو فريضة عليها من الرجال ، تجاريهم فيه على ديدن المحاكاة والمطاوعة سواء فهمته أو جهلت كنهه ومرماه ، ولهذا يكثر في النساء من يتقيدن بالعرف القديم . لأن قوام العرف القديم عادات ومصطلحات هي أقرب الى الغريزة الآلية من فضائل الفهم والارادة ، ويندر بينهن جداً من تتحدى العرف بفضيلة واحدة من فضائل الاختيار .

جرى حديث متنقل في مجلس يضم رهطاً من الرجال والنساء على قسط شائع من التعليم والعرف والآداب الخلقية ، فانساق الحديث إلى سيرة رجل يتجاوز الخمسين ذاع عنه انه يستدرج الفتيات الغريرات الى داره فيلهو بهن ويظهر معهن في المحافل العامة ويدفعهن الى سهرات العبث والمجون . فكان النساء أقل من حضر المجلس اشمئزازاً من سيرة ذلك الخليع . كأنهن لا يرين نقصاً في رجل من الرجال بعد أن تكمل له تلك الفحولة الحيوانية ، أو كأنهن لا يصدقن ان الفتيات الغريرات يسقطن في شراكه مخدوعات مغلوبات على مشيئتهن ، ولكنهن راضيات مسرورات بما أتيح لهن من فرص المتعة والابتهاج .

وكل ما بدا عليهن بعد ذلك من الاشمئزاز فقد سرى اليهن مستعاراً ممن كان بالمجلس من الرجال . فقد كانوا في هذا المجتمع الخاص كما كانوا في المجتمع العام كله « مصدر السلطات على حد قولهم » في لغة الدساتير .

ومتى سقط سلطان الرجال في الأمة سقط معه سلطان الاخلاق سواء منها أخلاق العرف وأخلاق الارادة .

فالأمم المهزومة يشاهد فيها طوائف من النساء يجهرن بمخادنة الجنود الفاتحين ولا يكرثهن انهم قاتلو الاخوة والأزواج والآباء ، لأن الخضوع للغلبة ألصق بطبيعة الأنوثة الفطرية او الحيوانية من جميع هذه الأواصر والآداب .

والعبرة التي تستفاد من هذه الحقيقة أن النساء يوكلن الى الفطرة في أخلاق الغرائز والعادات ، ولكن لا يصح أن يتركن في الأخلاق الأخرى ـ أخلاق الارادة والضمير ـ بغير إيحاء شديد ، بل اكراه يتجاوز حدود الايحاء .

***

والغريزة القاهرة تعلل محاسن المرأة كما تعلل نقائصها ، فتمهد لها العذر بين يدي الطبيعة وان لم تمهده لها بين يدي القانون والأخلاق .

فالتضحية هي أسمى فضائل الانسان .

وهي فضيلة لا يقدم عليها المرء كل يوم ، ولا يقدم عليها بغير دافع شديد من وحي الفطرة أو من وحي الضمير .

ولكنها من وحي الفطرة أعم وأنفذ من وحي الضمير ، لأن سلطان اللحم والدم عميق القرار في بواعث النفوس .

ومن ثم كانت المرأة أقرب من الرجل إلى التضحية في وظائفها النوعية لأنها تستمد تضحيتها من غرائز الأمومة ، وتموت في سبيل الذرية كما تموت بعض إناث الحيوان . ولا تسهل التضحية على الرجل هذه السهولة إلا إذا ارتقى فيه وحي الضمير الى مرتبة الدوافع الفطرية المودعة منذ الأزل في غرائز الأحياء ، وتلك مرتبة يعز بلوغها على أبناء آدم فلا تزال فيهم من فضائل الأنبياء وأشباه الأنبياء . أو كما قال ابن الرومي :

وعزيز بلوغ هاتيك جدا

تلك عليا فضائل الأنبياء

وإنما يقدم الرجل على التضحية في جملة أحوالهـا العامـة بغـريزة أخـرى مغروسة في طبيعة النوع ولكنها أحدث وأقرب الى الارادة ، وهي غريزة القطيع التي نشأت مع الخلائق الاجتماعية ولم تنشأ بداءة مع الولادة كما نشأت الغرائز الأنثوية في جميع إناث الاحياء . فاذا تصـدى الرجـل للقتـال في الجيش أو الكتيبة تحرك بارادة القطيع كله وتغلب بها على الخوف وحب السلامة . ولكنه قد ينفرد بالتضحية التي يدفعه اليها وحي الضمير ، فيعلو على فضائل الأنواع والجماعات ويعرج بروحه صعـداً في طراز رفيع من الفضائـل : هو فضائـل الأفراد والأفذاذ .

***

والغرائز المختلفة التي تعلل لنا محاسن المرأة تعلل لنا نقائصها التي تعاب عليها من بعض جهاتها . وقد لخصها المتنبي ولخص كل ما قيل في معناهـا حيث قال : « فمن عهدها ألا يدوم لها عهد » .

فهي تتقلب وتراوغ وترائي وتكذب وتخون وتميل مع الهوى وتنسى في لحظة واحدة عشرة السنين الطوال .

وهي مسوقة إلى ذلك بالفطرة الجنسية التي خلقت فيهـا قبـل نشـأة الآداب الاجتماعية والآداب الدينية بألوف السنين . فقد أغرتها الفطرة الجنسية بالميل إلى الأقدر الأكمل من الرجال لتنجب للعالم أحسن الأبناء من أحسن الآباء .

فلم يكن مما يوافق هذه الفطرة في العصور السحيقة أن تحفظ العهد لرجل واحد ومن حولها رجال كثيرون يتقاتلون عليها ، وقد يغلب أحدهم رجلها الذي تحفظ له العهد أو يطالبها بحفظه .

وكانت الحرب في بداية الحياة الانسانية هي مقياس القدرة والرجحـان بين الرجال في قبيلتهم أو في جميع القبائل المحيطة بها .

فكان من شأن المرأة أن تسلم لظافر بعد ظافر وشجاع بعد شجاع ، كلمـا دارت رحى الحرب بين غالب ومغلوب وبين الشجاع القوي ومن هو أشجع منه

وأقوى .

ثم أصبح المال مقياس القدرة والرجحان بين الرجال . وكان مقياساً صحيحاً في العصور الغابرة وظل كذلك ألوفاً من السنين ، لأنهم كانوا يكسبون المال غنيمة في حومة الحرب ، او ربحاً من أرباح التجارة التي تقحم أصحابها في مجاهل الأرض ، وتهدفهم لأخطار القتل والاستلاب وتلجئهم الى الحيلة تارة والى الحول تارات ، وتشهد لهم بمقياس القدرة والرجحان عن جدارة واضحة تغني المرأة عن التفكير ، وهي لا تعمد كثيرا إلى التفكير قبل الاختيار .

قلنا في الفصل الذي عقدناه على رأي المعري في المرأة من كتابنا المطالعات : « والذي نقوله في جملة واحدة إن المرأة وفية صادقة : وفية للحياة لا لهذا الرجل أو لذاك ، وصادقة في الحب لا في إرضاء أهواء من تحب ، ولو أنعمنا النظر لعرفنا أن المرأة تخون نفسها كما تخون الرجال في سبيل الأمانة للحياة ، وتكذب على نفسها كما تكذب على محبيها في صيانة عهد الحب ، فهي وفية بالفطرة رضيت أم لم ترض ، وهي صادقة بالالهام حيث أرادت وحيث لا تريد . . ».

إلى أن قلنا : « تحب المرأة الشباب ومن ذا الذي لا يحب الشباب ؟ إن الشباب نفحة الخلود وروح من روح الله . تصور الأقدمون الآلهة فلم يفرقوا بينهم وبين الشباب ، وأسبغوا عليهم كساء سرمدياً من نسجه وبهاء متجدداً من صنعه ، شعوراً منهم بأن الشباب سمة الحياة الخالدة وروح المعاني الالهية وترجيحاً لخير الشباب على شره ولمحاسنه على عيوبه .

« . . . ثم تحب المرأة المال ومن ذا الذي يكره المال ؟ غير أننا قد نرى للمرأة سبباً غير سائر الأسباب التي تغري بحب المال وإعظام اصحابه . نرى أن كسب المال كان ولا يزال أسهل مسبار لاختبار قوة الرجل وحيلته ، وأدعى الظواهر إلى اجتذاب القلوب والأنظار واجتلاب الاعجاب والاكبار . فقد كان أغنى الرجال في القرون الأولى أقدرهم على الاستلاب وأجرأهم على الغارات وأحماهم أنفاً وأعزهم جاراً . فكان الغنى قرين الشجاعة والقوة والحمية وعنوانا على شمائل الرجولة المحببة الى النساء أو التي يجب أن تكون محببة اليهن . ثم تقدم الزمان فكان أغنى الرجال اصبرهم على احتمال المشاق وتجشم

الاخطار والتمرس بأهوال السفر وطول الاغتراب وأقدرهم على ضبط النفس وحسن التدبير . فكان الغنى في هذا العصر قرين الشجاعة ايضاً وقوة الارادة وعلو الهمة وصعوبة المراس ، ثم تقدم الزمان فصار أغنى الرجال أبعدهم نظراً وأوسعهم حيلة وأكيسهم خلقاً وأصلبهم على المثابرة وأجلدهم على مباشرة الحياة ومعاملة الناس ، فكان الغنى في هذا العصر قرين الثبات والنشاط ومتانة الخلق وجودة النظر في الأمور . . ».

كان هذا كله في العصور الأولى قبل تشعب الحياة الاجتماعية وتعدد الملكات والصفات التي تكفل الرجحان والتقدم للرجال .

ثم تعددت هذه الملكات والصفات فقام في طبيعة المرأة « برج بابل » مخيف من اختلاط الأصوات والدعوات .

كان رجحان الرجل بسيط المظهر وكانت فطرة المرأة البسيطة قادرة على تمييزه بغير اعنات للفكر ولا إطالة للروية .

ثم تشعبت الملكات والصفات ووجد في العالم رجال ممتازون بأكبر المزايا وليس للمرأة من فطرتها البسيطة معين على تقدير مزاياهم وعرفان أقدارهم ، والترجيح بينهم وبين من دونهم من أصحاب المزايا الفطرية التي تنكشف للنظرة الأولى ولا تحتاج إلى إنعام نظر أو موازنة بين أنواع وأشكال : رجل الحرب الذي يظفر بالقوة والخدعة ، ورجل المال الذي يكسب بالقوة والخدعة ، وكلاهما مفهوم واضح مكشوف على ظواهر الأشياء .

ثم انفصلت الحرب عن الشجاعة في بعض المواقف ، وانفصل المال عن القدرة الراجحة في كثير من المواقف . فأغنى السلاح والكثرة ما لا تغنيه الشجاعة ، وكسب المال بالاسفاف والدناءة وخدمة الشهوات . . فهذا هو برج بابل الذي لا تدري المرأة فيه من تسمع ومن تجيب ، والذي تحار فيه قبل التمييز والتفضيل وقد كانت قبل ذلك لا تحار في تمييز او تفضيل .

وزاد برج بابل طبقةً على طبقاته الكثيرة أن الآداب الاجتماعية وآداب الأسرة ظهرت بين الناس وفرضت على المرأة أدباً جديداً غير الأدب القديم : أدباً يطالبها بالوفاء والأمانة ومغالبة الميول إذا تناضل من حولها الرجال ، فزاد في

الحيرة والتبلبل ولم يخلق بازائه في فطرة المرأة معين على التمييز والاهتداء إلا ما تقتبسه بالتعليم والتلقين والايحاء ، وهو ضعيف محدود لا يقوم لايحاء الفطرة القديم إذا اشتجر النزاع واضطربت الاهواء .

فانقسم النساء أقساماً شتى في الأخلاق الفطرية والأخلاق الاجتماعية : قسم مع الفطرة القديمة وقسم مع الأدب الجديد . بل أصبحت كل امرأة مجالا لتعدد هذه الأقسام تميل مع هذا أو ذاك كلما مالت بها دواعيه .

فنحن إذ نقول إن المرأة تطيع الغرائز الجنسية في التقلب والمراوغة وخيانة القرناء لا نقول ذلك لنعذرها كل العذر أو لنسقط عنها واجب التغلب على هذه الميول التي تغيرت وجهاتها مع الزمن ولا تزال عرضة لكثير من التغيير ، فان الأخلاق لم تجعل لابقاء الفطرة على عيوبها ، وانما جعلت لتهذيب تلك العيوب ورياضتها ، وشد أزر النفس الأدبية التي تعينها على عيوبها . ولكننا نقول ما نقول لنذكر أبداً ان فهم الغرائز الجنسية ضروري لفهم الأخلاق التي تتصل بها ، فلا فائدة من البحث في رياضتها بالأدب الاجتماعي قبل البحث فيما يقابلها من أصول الفطرة التي تعم جميع الأحياء ، وليس عمومها بين جميع الأحياء بمانع من اصلاحها بالرياضة والتقويم . بل هو الذي يسوّغ ذلك الاصلاح ويوجبه ويبشر بفلاحه ، لأن الانسان قد علا فوق سائر الاحياء ، فمن الواجب إذن ـ ومن المستطاع أيضاً ـ أن يعلو فوقها بالآداب والاخلاق .

ومن مفارقات العصور المتأخرة أن ينجم فيها طائفة من الدعاة وأصحاب الآراء يستخفون بالاحتجاز الجنسي الذي كان عصام المرأة من جماح الاهواء زمناً طويلا ، ويستخفون معه بما عداه من الحواجز الجنسية المغروسة في طباع الأحياء ، لأنها في رأيهم بقية لا ضرورة لها من بيئات المعيشة الحيوانية الأولى .

فعندهم مثلا أن حرية المرأة في العصر الحديث تبيح لها ما حرم عليها في العصور القديمة ، فلا يعيبها أن تبدأ الرجل وتلاحقه لتستولي عليه . كأنما كان تركيب الجسم الأصيل في الأنوثة والذكورة مسألة من مسائل الحريات التي يذهب بها نظام ويأتي بها نظام ويبرمها قانون وينقضها قانون .

وعندهم أن الحيوانات لم تقتصر على موسم واحد في التناسل إلا لأنها تشبع من الطعام في هذا الموسم فتمتلىء أجسادها بفيض من الثورة الحيوية يدعوها إلى طلب الذرية .

وليس أجهل بأسرار الحياة ـ وسر الجنس أكبر أسرار الحياة ـ ممن يقنع في تفسيرها وردها إلى أصولها بمثل هذا التعليل القريب .

فان هذا التعليل القريب لا يكفي على الأقل لتفسير الظاهرة التي أشار اليها أولئك الدعاة . إذ إن الثمرات النباتية تتوالد في الموسم بعينه وهي الغذاء الذي تعتمد عليه آكلات العشب من الحيوان ، ومتى زادت قوة التوالد في النبات فأحرى أن تزيد قوة التوالد في الأحياء لغير ذلك السبب الذي ذكروه وعلقوه بزيادة الثمرات .

ومن الحيوان ما يعتمد على اللحوم دون العشب ويأكل منها طوال العام ، ومنها الأسماك التي لا مواسم عندها للنبات وهي مع هذا تعرف لها مواسم للتناسل وتخرج إلى الأنهار القصية قبل الأوان الملائم للّقاح بين جرائيم الذكورة والأنوثة .

وقد تختلف الأوابد والدواجن في موسم التناسل ، ولكنها على التعميم لا تقارب الأنثى بعد حملها ، ولا تعبث بغريزة النوع للذة الأفراد .

فالسر أعمق مما يظنون بكثير .

وحواجز الجنس ودوافعه لا تفسر كلها بأمثال ذلك التعليل الهزيل .

ومما لا شك فيه أن الأخلاق الجنسية كسائر الأخلاق قوامها ضبط النفس ، وهو لا يوافق الذهاب مع الهوى حيثما تعرض المرء للاستهواء ، ولا بد من ضبط النفس والقدرة على الامتناع لتحقيق كل خلق كريم يصلح للأفراد أو للأقوام أو للأنواع .

والانسان أحوج الى الحواجز الجنسية من الحيوان ، وليس بأغنى منه عن تلك الحواجز تقدماً مع الحرية كما يخيل الى أولئك الثراثرة السطحيين .

فالحيوان يتشابه ويتماثل ويصعب التفريق بين أفراده في الصفات المشتركة

في سلالة النوع كله . فلا ضير على النوع أن يتلاقى أي ذكر بأي أنثى أو ينتجا أمثالهما من الذكور والاناث .

لكن الأنواع كلما ارتقت تعددت الصفات التي يكمل بها الفرد ذكراً كان أو انثى . ويبلغ تعدد الصفات أقصاه في النوع الانساني سواء بين الذكور أو بين الاناث ، حتى ليكاد الفرق بين رجل ورجل والفرق بين امرأة وامرأة أن يلحق بالفرق بين نقيضين أو مخلوقين من نوعين مختلفين .

فليس كل رجل بديلا من كل رجل ، وليست كل امرأة بديلا من كل امرأة . ويجب على الرجل إذن أن يمتنع حتى تتاح له المرأة التي تلائمه ، وعلى المرأة أن تمتنع حتى يتاح لها الرجل الذي يلائمها .

وأن يتعلق الأمر « بالشخصية » المميزة لا بمجرد امرأة كائنة ما كانت أو بمجرد رجل كائنا ما كان ، كما يغني كل فرد عن مثيله في الأنواع الوضيعة بين الأحياء .

وفي هذه الحالة لا ينتفع النوع بكل اتصال تتحقق به المتعة الجنسية ، بل ينفعه الاتصال الذي تتم به الشخصيات وتتوافر فيه أتم صفات الرجال وأتم صفات النساء .

ثم تنشأ الآداب الاجتماعية وحقوق الأسرة وأمانة النسل فاذا هي قد ألزمت الرجال والنساء آدابا من حقها أن تطاع وأن يحسب لها أوفى حساب .

نعم إن الآداب صناعية أو مبتدعة من أحكام البيئة التي خلقها الناس ، ولكنها ـ كجميع الآداب والفروض ـ تستند الى أساس فطري عريق في الطبيعة وهو ضبط النفس وقوة البنية على مقاومة النوازع والأهواء .

ونضرب لذلك مثلاً صغيراً من المحرمات التي جاءت بها الآداب الدينية أو العرفية بعد ظهورها في المجتمعات الانسانية . فان تحريم القمار أو الخمر او السرقة لم يعرف في آداب الناس إلا بعد ظهور هذه الآفات ، ولكن ضبط النفس الذي يناط به الامتناع عنها هو خلقة طبيعية لم تنشأ مع العرف أو الاصطلاح . فلا يزال الفرق بين إنسان يستطيع أن يمتنع عنها وإنسان لا يستطيع الامتناع فرقا

في صميم التكوين الذي لا ينشئه العرف ولا ينسب الى الأوضاع الصناعية .

وكذلك الحواجز الجنسية التي يفرضها المجتمع أو توجبها مصلحة الأسرة هي حواجز لازمة لا يقدح في أصالتها أنها حدثت بعد حدوث الحاجة اليها ، لأن القدرة عليها فضيلة من فضائل التكوين الأصيل .

والرجل الذي يقدر عليها هو رجل ممتاز في خلقته الطبيعية كالمرأة التي تقدر عليها . وكلاهما زوج أصلح من غيره للبقاء وإنجاب الأبناء .

فأسخف السخف ان يظن بالحضارة المدنية أنها رخصة تبيح التهافت على المتعة ونسيان الحواجز الجنسية . لأن التهافت نقص في الخلقة قبل أن يكون نقصاً في الآداب الاجتماعية ، وهذا النقص معيب وخيم العقبى وإن لم تحرمه الآداب .

وسيطول التبديل والتعديل في العرف والتشريع والشمائل المحبوبة بين الناس كلما تطاولت الأجيال . وسيقول كل ذي رأي قوله الذي يجوز فيه الجدال . ويبقى حكم واحد لا تبديل له ، وقول واحد لا يجوز الجدال فيه ، وهو أن الاحتجاز قوام أخلاق الأنوثة وأن المرأة التي تنساه هي حيوان ناقص في تكوينه ، وليس قصارى القول فيها أنها فرد مقصر في حقوق المجتمع والأسرة ، وأن مساك الأخلاق جميعاً ـ ما أوجبته الفطرة وما أوجبه المجتمع ـ هو ضبط النفس والترفع عن مطاوعة كل عارضة من عوارض الأهواء . .

حقوق المرأة

كلما ذكرت حقوق المرأة في العصر الأخير بدرت الى الذهن حقوقها السياسية التي يطالب بها بعضهن ويدور البحث عليها بين أصحاب المذاهب الاجتماعية الحديثة : هل لها حق في ولاية الحكم ؟ هل لها حق في التشريع ؟ هل لها حق في الانتخاب ؟ هل لها حق في الوظائف العامة وتدبير المتاجر والمصانع وأسباب لثروة على اختلافها ؟

ونحن في هذا الكتاب لا يهمنا تفصيل القول في هذه الحقوق من الناحية الفقهية أو الناحية السياسية . لأن المهم عندنا أن ننظر الى طبيعتها ، والى الفوارق الطبيعية بينها وبين الرجل ، لا الى تلك الحقوق أو هذه الفوارق التي يجيء بها تشريع ويذهب بها تشريع ، وتعرفها أمة وتنكرها أمة ، وتحتمل التعديل والتبديل بما يسنح للفلاسفة والساسة من الخواطر والبرامج والبدوات .

ولا يمنع العقل أو الخلق أن تظفر المرأة بما تشاء من الحقوق السياسية أو الحقوق الاجتماعية التي تتغير وتتبدل مع نظم الثروة ونظم المجتمع وأساليب المعاملات .

فلها كل حق لا يخرجها عن واجبها الأول لأنه واجبها الذي لا تحسن غيره ولا يحسنه غيرها ـ وهو البيت والجيل الجديد .

تنشىء في قلب هذا العالم الصاخب مأوى تسكن اليه البشرية فترة من الزمن من زحام الحياة .

وتنشىء للعالم الجيل الذي يقوى في غده على هذا الزحام .

وليس هذا ولا ذاك عمل الآباء ، فليكن هو إذن عمل الامهات لأنهن إذا تركنه

لم يحسنَّ خيراً منه ، ولم يحسنه غيرهن خيراً منهن . . ففي تركه تضييع بغير تعويض .

***

قال شوبنهور إن « أرسطو شرح في سياسته ما حاق بأهل أسبرطة من جراء تساهلهم مع نساء عشيرتهم وتخويلهن حق الوراثة والبائنة ومنحهن قسطاً كبيراً من الحرية ، وبيّن كيف أن هذا التساهل كان سبباً من أسباب سقوط أسبرطة واضمحلالها » .

ثم قال : « وما لنا لا نقول نحن إن نفوذ النساء الذي أخذ يمتد ويشتد في فرنسا منذ أيام لويس الثالث عشر كان سر ذلك الخلل الذي ألم بالبلاط والحكومة تدريجاً وما زال بها حتى أفضى الى الثورة الأولى وما جرت اليه من القلاقل والأهوال ؟ » .

والحقيقة أن المرأة التي خضعت طائعة أو كارهة طوال آماد التاريخ وما قبل التاريخ قد يدّعى لها كل شيء إلا السيطرة على الحياة العامة وتوجيه الدول والحكومات .

فليس في تجارب العصور ما يثبت ذلك وفيه الكثير مما يدحضه وينفيه . ومن العبث أن نستشهد على هبة الحكم عند المرأة بالملكات اللاتي جلسن على العروش الوراثية في الأزمنة القديمة ، فانهن مجهولات المواهب والمناقب مطويات في حجب الأساطير والأوهام ، مشتركات في الحكم غير منفردات حتى في تلك الأزمنة التي كان حكم الفرد فيها مرضياً عنه غير منصوص على بغضه في الكتب والدساتير . ولكننا إذا استشهدنا على هبة الحكم بالملكات المعروفات في العصور الحديثة قبل قيام الحكومات الشعبية فهن أبداً بين اثنتين : امرأة مفسدة أو امرأة صلحت بمقدار ما نقص فيها من صفات الأنوثة وزاد فيها من صفات الرجولة وبمقدار من أعانها من المشيرين والخبراء . والمثل البارز على ذلك مثل « اليصابات » ملكة الانجليز على عهد شكسبير .

لقد كانت الأمم المستعبدة تدين بالملك لاحدى الملكات اللاتي اشتهرن بالعزم والمثابرة من طراز كاترين الثانية في البلاد الروسية . فتصلح كما يصلح

الملوك الرجال وتفسد كما يفسد الملوك الرجال ، ولكن الأمر الذي يفوت بعض المؤرخين ان البلاد الروسية لم تكن لتحتمل فساد عشر ملكات متواليات من طراز كاترين كما احتملت فساد عشرات من الملوك الذين توالوا على عرشها القديم . لأن فساد جيل واحد في حكم كاترين الثانية قد هدم نظام جيشها وعرضه للهزائم مدى أجيال .

وما لم يكن أنصار الحقوق النسائية يزعمون للمرأة أنها أقدر على الحكم من الرجل فقصارى ما يزعمونه ان الرجل مثلها وأنها هي مثله في سياسة الحكومة . فلا ضير إذن من تفرد الرجل بالحكم لأنه سيحكم كما تحكم ولا يهبط بالسياسة الى ما دونها . وإنما الضير أن تنصرف هي عن تنظيم البيت وتنشئة الجيل المقبل وهي صاحبة هذا العمل وأولى به وأقدر عليه .

واعتقادنا أن الطريق يطول بنا قبل الوصول إلى نتيجة من سؤالنا عن مساواة المرأة للرجل في الحقوق السياسية وهل لها حقوق هذه المساواة أو ليست لها هذه الحقوق ؟

لكننا ننتهي إلى الغاية قبل ذلك إذا سألنا : هل تفيدها هذه الحقوق ؟ وهل تساوي فائدتها فائدة الشمائل البيتية إذا توفرت عليها النساء ؟

واعتقادنا هنا أيضاً أنه لا النساء ولا الرجال يصلحون المجتمع بالقوانين والأصوات الانتخابية . وأن القانون المستقيم يعوج في المجتمعات العوجاء ، ويساء تطبيقه وتنفيذه ولو أفرغ في قالب الكمال . فاذا صلح تطبيق القانون وجرى تنفيذه على سنة العدل والانصاف فلا بد لذلك من صلاح سابق وتمهيد شامل يبدأ من البيت والمدرسة ويعم الشارع والحانوت .

وعند المرأة حقوق غير حقوق الانتخاب تصل بها الى التوجيه والطلب والايحاء ، وهي حقوق الأم وحقوق الزوج وحقوق الخطيبة وحقوق الصديقة الموحية إلى الذهن والعاطفة والخيال ، فان كانت هذه الحقوق مشلولة في يديها فذلك هو إفلاس الأنوثة الذي لا يعوضها عنه عوض قط يأتي من جانب التشريع وأصوات الانتخاب .

ولسنا نعرف كلمة وزنت حقوق المرأة كما وزنها التشريع الاسلامي حيث

جاء في القرآن الكريم : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » .

فميزان حقوق المرأة الخاصة هو واجباتها الخاصة .

وواجباتها الخاصة هي الواجبات التي تحسنها ولا يحسنها غيرها ولا تحسن عملا أفضل منها .

وهي الأمومة وتنظيم الحياة البيتية . عمل إذا تركته لم يخلفها الرجل عليه ولم تتول عملا آخر أجدر منه بولايتها .

ذلك هو ميزان واجباتها وحقوقها .

وللرجال عليهن درجة الاشراف على الحياة العامة التي انفردوا بها منذ نشأت في العالم حقوق أو واجبات اجتماعية ، وانفردوا بها بحكم الفوارق التي بينهم وبين النساء في تركيب الأجسام وخصائص الخلق والتفكير .

نعم إن زحام العيش في العصر الحديث يلجىء المرأة إلى كسب الرزق بالعمل ، ولا يغنيها بالحياة البيتية عن المشاركة في الحياة الخارجية .

ولكن المرأة كانت في الحقيقة تعمل للرزق منذ كانت ولم تبدأ العمل للرزق في العصور الأخيرة .

فاذا كانت هذه العصور كفؤا لمقابلة الضرورات التي تواجهها ، فمهمتها الكبرى هي تقسيم العمل بين القادرين عليه بحيث لا يجور عمل المرأة على رسالتها في الحياة : وهي رسالة الأمومة والبيت والأسرة .

وكم من عمل تستطيعه المرأة ولا يجور على تلك الرسالة !

بل كم من عمل يتمم أعمال تلك الرسالة ويوافقها ويجري في أثرها كأنه جزء منها !

فهناك تربية الطير والدواجن وصناعات الألبان والفاكهة والرياحين ومشاركة الأزواج والآباء فيما يقدرن عليه من أعمال الريف والزراعة الخفيفة والاشتغال بصنوف كثيرة من الصناعات الدقيقة التي قد تجيدها الريفية والحضرية على السواء ، ومنها النسج والتطريز وتنسيق التحف وسائر الحرف اليدوية التي

تمارسها يد المرأة منذ عهد الحضارة الأولى ، وهذا كله عدا التعليم والتطبيب والمؤاساة في البيوت ودور العلاج .

فالذي يضن على المرأة بالعمل في غير هذه الميادين لا ينكر عليها حقاً من الحقوق ، ولكنه يحيلها إلى واجبها الأصيل أو يوفق بين حقوقها ورسالتها الوحيدة في العصر الحديث على التخصيص . لأنه عصر يشتد فيه الكفاح . والعصر الذي يشتد فيه الكفاح لا يستغني عن حضانة المرأة الرفيقة بل هو أحوج اليها ، ولا يلغي البيت ويهدمه بل هو أحرى أن يدعمه ويحرس حماه ، ولا يجند المرأة لاقتحام الزحام بل يجندها لتهوين هذا الاقتحام .

وقد قيل كثيراً عن استغلال المرأة في العصور الحديثة وليس كل ما قيل بالكذب وليس كل ما قيل بالصحيح .

ولكننا لا نعرف استغلالا للمرأة هو شر من استغلال قضيتها في ترويج المذاهب الاجتماعية التي تهدم الأسرة وتبطل مزية المرأة باسم المساواة بين النساء والرجال .

فتقسيم المزايا بين النساء والرجال أفاد الانسانية قيما من الأخلاق والعواطف يمحوها التشابه المزعوم بين الجنسين ، والمساواة المدّعاة بين الفطرتين .

ولم يزل من دأب الطبيعة أن تقسم الوظائف وتغنم منها المزيد من التنويع والتحسين في صور الأخلاق وألوان الاحساس .

فانقسام النوع الانساني إلى جنسين قد زاد ثروته من صور الأخلاق وألوان الاحساس ، بما خص النساء من صفات لا تكمل في الرجال ، وما خص الرجال من صفات لا تكمل في النساء . وهذه هي القيم الحيوية التي لا يفرّط فيها أحد يعلم ما معنى التقدم والارتقاء في أطوار الحياة .

ونشأة الأسرة قد أنشأت بين الناس تلك الأواصر التي هي أساس العلاقات الاجتماعية وأساس الشعور بالألفة والمعاطفة أو الشعور بسجية الولاء والايثار والتضحية أو الشعور بالتوقير والحنان والرفق والايناس ، وأشباه ذلك من ألوان الشعور التي ما كان لها من أصل تتفرع عليه لولا أصل الأسرة القديمة ، حيث اتصل الآباء والأمهات والأبناء والأزواج والزوجات بتلك الوشائج النفسية ،

فتعددت في طوية الانسان ألوان المودة وتفرعت من الأسرة الى البعداء فالابعدين ، ولا تزال تسري وتتفرع إلى غير انتهاء .

تلك هي القيم الحيوية التي استفادتها البشرية من تقسيم الوظائف بين الجنسين ، ومن قيام الأسرة وهي تحوي الكبار والصغار من كلا الجنسين ، فتحوي العلاقات بين جميع الأسنان والمدارك والخوالج وضروب الطاقة والاقتدار .

فهذه القيم التي هي مكسب الحياة النفيس من مخلفات الزمن القديم هي الثروة التي يعصف بها بعض الدعاة حين ينكرون الأسرة وينكرون الفوارق بين الرجال والنساء ، ثم يبنون حياتهم الاجتماعية على محو هذه الفوارق وإلقاء ما كسبناه من تنويعها في عرض الطريق .

وانهم ليفعلون ذلك لأنهم يريدون اثبات مذهبهم وتأييده ، لا لأنهم ينظرون إلى حقائق الدنيا ويحسون في طويتهم حسها السليم ، ويغارون على ثروة الحياة من القيم والمغانم الروحية ، وافانين الشعور والتفكير .

فأتباع كارل ماركس ـ وهم أصحاب هذه الدعوة ـ يفرضون المماثلة بين النساء والرجال لأنهم لو قصروا الكلام على العمال في مواجهة رأس المال بقي النساء وخشوا أن يقوم رأس المال على العاملات ، فوجب عندهم على هذا أن يصبح النساء مثيلات للرجال ليتاح لهم التغلب على رأس المال .

ولولا أن هذه المماثلة لازمة لتأييد مذهب الماركسيين لما سلكوا بها هذا المسلك ولا استغلوها لدعوتهم ذلك الاستغلال .

في الهند تكثر القردة ويكثر من قديم الزمن من يستغلون ذكاءها وقدرتها على التعلم فيعلمونها بعض الحيل المضحكة وبعض الحركات البهلوانية ويطوفون بها على الناس ليعرضوا عليهم حيلها وحركاتها ويكسبوا القوت النزر من هذه الصناعة المزدراة .

فخطر لبعض المستغلين على طراز العصر الحديث أن يستغلوا هذه القدرة فيما هو أنفع وأجدى ، وأن يجربوا تدريب القردة على تحريك أنوال النسيج وهو أسهل وأبسط من كثير من الحركات البهلوانية المعقدة التي تحذقها ولا تخطىء

فيها بعد المرانة عليها . ففعلوا ونجحت القردة في ادارة مصنع صغير يشتمل على عدة أنوال . . ولكنهم لاحظوا أنها إذا اجتمعت معاً في بقعة واحدة غلبت عليها طبيعة اللعب التي ركبت فيها فتركت العمل أو عبثت به وأفسدته ، فعالجوا ذلك بالرقابة والارهاب ، ووكلوا بها حارساً يحمل سيفاً مصلتاً كلما ونى من القردة وانٍ أو عبث عابث أهوى عليه بالسيف فطاح برأسه فاذا هي قد نفضت عنها العبث وهرولت الى العمل ، وجدّت فيه فلم تزل جادة غاية الجد برهة من الوقت حتى تنسى الرأس الطائح فيعاد عليها الدرس المخيف من جديد .

لو علم كارل ماركس وأتباعه بقصة هذه القردة وعلموا أن شيوعها مستطاع في معامل النسيج الحديثة وغيرها من المعامل التي تشبهها لما كان بعيداً منهم أن يعمموا الحقوق والمشابهات قليلا أو كثيراً حتى تنطوي فيها فصائل القردة . . ولا تنطوي على نوع الانسان وحده من العاملين والعاملات بين الرجال والنساء .

لأن المذهب عندهم ليس بحق لأنه حق ، وليس بباطل لأنه باطل ، ولكنه حق بمقدار ما يثبت من دعوتهم ويمهد لها ، وباطل بمقدار ما ينقض من دعوتهم ويعترض في سبيلها ، ولولا ذلك لما عموا عن الفوارق في الخلق وعن فائدة الانسانية من تنويع هذه الفوارق وخسارتها بمحوها وتعفية آثارها .

***

ولقد سلكوا في نظرتهم الى الأسرة مثل هذا المسلك فأنكروا فضلها في خلق الأواصر والعواطف وتوليد الحقوق والواجبات بين الأفراد من الأقرباء والبعداء ، ولم يعرفوا لها إلا أنها أعانت الاستغلال في عصور الاقطاع خاصة فارتبط بها نظام الميراث وقامت عليها قواعد الملك والادخار والتوريث وتعاقب السادة من النبلاء والفرسان وغير النبلاء والفرسان ، وخلطوا كدأبهم بين كراهة الطبقة كأنها جزء من نظام الثروة العامة وبين كراهة الطبقة كأنها جزء من الانسانية يعمل عمله في توليد تراثها وتزويدها بالقيم الأدبية ويترك لها محصوله من هذه القيم فيتعين عليها أن تصونه وتضيف اليه كما صانت المخترعات والآلات ، ولم تقل إنها تنبذها وتعفّي على آثارها لأنها من توليد عصور الاقطاع

أو عصور المرابين والمستغلين .

فاذا كانت القرائح الذهنية قد أبدعت الصناعات والآلات التي أعانت على تسخير الضعفاء وطغيان الأقوياء فمن الحسن أن تذهب السخرة حيثما أمكن ذهابها وليس من الحسن أن تذهب القرائح الذهنية ولا أن تذهب الصناعات والآلات او تحتقر القدرة التي تسنى بها الابداع والاختراع .

وإذا كانت عواطف الأسرة قد أخرجت للناس قانوناً يضير أو سنة تعاب أو عادة تتخلف عن أوانها فمن الحسن أن تذهب القوانين والسنن والعادات وليس من الحسن أن تذهب عواطف الأسرة ولا أن ترجع الى مصادرها من فوارق الطباع والخوالج بين الأزواج والزوجات والآباء والأبناء ، فننعاها ونسفه أحلام المعتزين بها ونبطل هذه الفوارق من معدنها ونقول إن وشائج الرحم بين الأنوثة والذكورة فضول من بقايا عهد الاقطاع أو بقايا عهد الرعاة أو بقايا عهد الربا والاستغلال . فكل لون من ألوان الوشائج الانسانية فهو قيمة نفيسة نجمعها ونقتنيها ونضيفها إلى ذخائرنا الحيوية ولا نفرط فيها كما لم نفرط في القيم الصناعية والقيم الذهنية ، فليست كل ثروة الانسان ثروة مصنوعات ومخترعات ، وليس الزاد الانساني ـ زاد الاحساس والعاطفة وأفانين الشعور والخلجات ـ هو الزاد الرخيص الذي يستوي أن يبقى أو يذهب من حيث جاء .

***

وستنال المرأة من حقوقها الصحيحة أو المزعومة كل ما تستطيع المرأة أن تأخذه وكل ما يستطيع الرجال أن يمنحوه أو ينزلوا عنه .

ولكن الحقوق التي تقوم على محو الفوارق بين الجنسين في تكاليف الأسرة والحياة الاجتماعية هي من بداية الأمر ليست بحقوق كما يسميها المتحدثون بها ، لأن الحقوق لا تناقض طبيعة التكوين . .

وهي بعد هذا ليست مما يملكه الرجال لينزلوا عنه طائعين أو كارهين ، وليست مما تأخذه المرأة لأنها لا تزيد في الخلق ولا تنقص منه ما تشاء . ومحو الفوارق قضاء بيد الطبيعة لا بأيدي الأمم أو أيدي الحكومات ومجالس التشريع .

وربما استقرت الحقوق الاجتماعية طويلا على ظلم المرأة لأن ظلم الضعيف سنة معهودة في الطبيعة لم تبطل قط ولا نخالها تبطل كل البطلان في حياة الحيوان ولا في حياة الانسان .

ولكن الحقوق الاجتماعية لا تستقر طويلا على ظلم الرجل لأنه اختلال ينقض سنة العدل وسنة الطبيعة على السواء .

ومن ظلم الرجل ألا تكون له مزية في الحقوق الاجتماعية وهو أقدر عليها من المرأة كيفما تقلبت الآراء . فمهما يبلغ من غلو المتحدثين بالمساواة فهم على الأقل لا ينكرون أن الرجل يقدر على أعمال كثيرة في خارج بيته لا تقدر عليها المرأة ولو في بعض الأوقات التي تشغل فيها بالحمل والحضانة وتدبير البيت .

ومن ظلم الرجل ألا تكون رقابته على المرأة أوفى من رقابة المرأة عليه . لأنها إذا فرطت في حقوقه ألحقت به نسلا غير نسله ، وهو إذا فرط في حقوقها لم يلحق بها نسلا غير نسلها ولم يخالف بذلك قوام خلقه الأصيل في جميع الذكور ، فان الذكر يؤدي فريضة النوع إذا اتصل بأكثر من انثى واحدة ، وليس للأنثى فريضة نوعية تؤديها إذا اتصلت بأكثر من ذكر واحد ، إلا أن تكون شهوة خائنة أو تحللا من متانة الأخلاق .

ومن ظلم الرجل أن تنكر عليه العزيمة والارادة وما يتبعهما من وجوب الطاعة في بعض الشؤون إن لم يكن معظم الشؤون . فتركيب خلقه هو تركيب المريد وتركيب خلق المرأة هو تركيب الملبية أو الموافقة للارادة الأخرى . وما كمن في دخيلة الجنس منذ الأزل هيهات تبدله أقوال المجالس وصفحات الكتب ونصوص الدساتير .

وكل نظام اجتماعي يبنى على هذا « الظلم » عبث وضلالة ولو طغت به نوبة من نوبات المذاهب المغرضة إلى حين . فلعل صلاح المذاهب للدوام لا يعرف من دليل حاسم كما يعرف من دليل الفوارق السرمدية بين الجنسين ، ومن مبلغ الجور على حدود الطبيعة إزاء الرجال وإزاء النساء .

ومن لغو القول أن يسهب الباحثون في حقوق المرأة بعد أن تتيسر لها رعاية البيت وتنشئة الجيل الجديد ، فهذه الحقوق فضول لا تريده المرأة ولا ترحب

به إذا جاءها بغير سعي منها، بل هو وهم لا يجيء بسعي في مقـدور ساع أو ساعية . وإن المرأة تطالب المجتمع والرجال بما يملك المجتمـع أن يعـطيه وبما يملك الرجال أن يعطوه . وليس إلغاء الفوارق ونتائجها مما يعطى بقوة أو بحيلة ، أو مما يساغ فيه الأخذ والعطاء .

الجنس

ظواهر الجنس أعرق وأهم وأشيع في دنيانا من أن يتركها الانسان تمضي به ذلك الزمن الطويل بغير فهم أو بغير تفهم يحاول به التحقيق من طريق التخمين والتوفيق ، إن أعوزته وسائل العلم إلى الفهم الصحيح .

وقد خمن وأصاب .

فقال قديماً بلغة الأساطير ، ما يقوله الباحثون اليوم بلغة العلم والتفكير ، ولمس الحقيقة بخيال الشاعر وفطنة الساحر قبل أن يلمسها بمبضع الجراح ومجهر الكشاف .

وخلاصة ما يقوله العلم اليوم إن الحياة التي لا جنس لها سابقة للحياة التي انقسمت الى جنسين ذكر وانثى ، وان صفات الجنسين موزعة بينهما في أصولها الأولى ، وإن هذا التوزيع في أرفع الأنواع الحية لم يبلغ من الحسم مبلغه الذي يمنع كل تماثل ويدفع كل التباس .

وقديماً لمحت الأساطير إلى هذه المعاني برموزها التي تطوي الحقائق لينشرها من يريد كما يريد .

في أسطورة من أساطير اليونان القديمة أن الذكر والأنثى كانا بنية واحدةً فشقها الآلهة شقين لأنهم أوجسوا خيفة من تمردها وعصيانها . وأنها لا تفتأ منذ انشقت نصفين يبحث كل منهما عن صاحبه ليتم به ويرجع معه إلى أصله .

وفي أسطورة أخرى هي أعمق الأساطير في معناها اشارة إلى اختلاط الصفات الجنسية على نحو لا يقال في لغة الرموز ما هو أصدق منه ولا ابين عن الحقيقة . وفحوى هذه الأسطورة أن رباً من الأرباب وكل إليه أن يصنع جمهرة من الذكور وجمهرة من الإناث . ثم دعي الى وليمة في الأولمب فسكر وعربد وذهب إلى مصنعه مخموراً لا يعي من الخمار وأمامه عمل النهار لم يصنع منه شيئاً وليس له

أن يرجئه الى غده . لأن الاقدار تصنع كل شيء بميعاد لا يختلط بغيره . وكان قد أعد الأعضاء والجوارح والخوالج والأحاسيس ونوى أن يميزها ويقسمها قسمين قبل أن يضعها في أهبها وتراكيبها . فلما أعجل عن التمييز والتقسيم إذا هو يتناول الاهاب فيلقي فيه بما اتفق له من الأعضاء والخصائص والطباع ، فيقذف قلب رجل في إهاب امرأة ويضع رأس امرأة على عنق رجل ، ويمنح فتاة عضلات فتى أو يمنح فتى أعطاف فتاة ، فلم يأت الموعد الموقوت حتى كان قد فرغ من عمله وصنع كل ما عنده من الذكور والاناث ولكنها هذه الصنعة المختلطة التي يلتبس فيها النظر وتختلف فيها الأسماء والمسميات . فلا يندر أن ترى امرأة لها صلابة رجل أو رجلا له رقة امرأة ، ولا يتفق لك دائماً أن ترى رجلا بحتاً كله رجولة أو امرأة بحتاً كلها أنوثة . ولا أن توافق المسميات ما أطلق عليها من الأسماء أو ما أودعته من الجوارح والأعضاء .

وجاءت الفلسفة في القرن الماضي فأعادت هذه الأسطورة بالصيغة الفلسفية التي اختارها النابغة الالماني « أوتو فيننجر » في كتاب الجنس والأخلاق . ومجمل رأيه كما لخصناه في كلامنا على حب المرأة من كتابنا ساعات بين الكتب : « انه لا ذكورة ولا أنوثة على الاطلاق ، وانما هي نسب تتآلف وتتخالف على مقاديرها في كل إنسان ، ولا عبرة فيها بظواهر الجوارح والأعضاء ، فاذا فرضنا مثلا أن صفات الذكورة مائة في المائة فأين هو الرجل الذي تتم له المائة جميعها بلا زيادة ولا نقصان وتتآلف ذرات تكوينه واحدة واحدة بلا نشوز ولا انحراف ؟ وكيف تجتمع له هذه الصفات المتفرقة بحيث لا تتخلف صفة ولا تحل واحدة محل أخرى ؟ وكذلك النساء أين منهن المرأة التي هي مثل أعلى لجنسها جامع لكل ما هو نسائي في الجمال والعقل والعاطفة والأعضاء والهندام ؟ إن هذا الاتفاق لا يجيء به الواقع لأن التمام من وراء ما يبلغه الانسان أو كائن سواه في هذه الحياة . ولكنها أمور نسبية تدخل فيها صفات الرجولة والأنوثة كما تدخل فيها صفات سائر الأشياء . فليس في الدنيا رجل هو الرجولة كلها وليس في الدنيا امرأة هي الأنوثة كلها . وهيهات أن تقع على إنسان فيه كل صفات جنسه في جميع أخلاقه وأطواره كما تقع كل يوم على قطرة ماء فيها كل صفات المائية التي لا بد منها لتكوين كل قطرة . فان العناصر هنا مقيدة محدودة . أما عناصر الطبائع والأخلاق والمواهب والأجسام فمما لا

يقيده الحد ولا يحده التقدير ».

وعلى هذا « يحب الرجل المرأة أو تحب المرأة الرجل على حسب ما بينهما من التوافق والتباين في تلك العناصر والصفات .

فالرجل الذي فيه ثمانون في المائة من الرجولة وعشرون في المائة من الأنوثة تتممه امرأة فيها ثمانون في المائة من الأنوثة وعشرون في المائة من الرجولة . ويجوز على هذا أن توجد امرأة ليس لها من جنسها إلا ظواهره ، فتكون هي التي فيها الثمانون في المائة من الرجولة وهي التي تنشد الرجل الذي فيه عشرون في المائة من صفات جنسه . ومن هنا تنشأ الميول الشاذة في الجنسين وتنبو الطبائع عما خلقت له في سواء التكوين . . ».

والعلم الحديث يعرف هذه المعالم الجنسية ويعرف هذا الاختلاط في توزيعها بين الجنسين ، ولكنه يعرف ذلك على نهجه لاعلى نهج الشاعر في أسطورته ولا على نهج الفيلسوف في حدسه وتقديره . . وسينتهي إلى الحقيقة الممحصة حيثما بدأ من البداهة النافذة والواقع المشاهد ، وهما لا يأذنان له بالضلال عن سواء النهج وان تشعبت مسالك الناهجين عليه .

ومن الثقات الراسخين في علم الحياة اثنان يعتمد على ذكائهما كما يعتمد على تجربتهما في هذا الموضوع . وهما سير ارثور تومسون Arthur Thomson وسير باتريك جيدس Patrick Geddes صاحبا كتاب تطور الجنس Evolution of Sex وغيره من المراجع المعتدّ بها في علم الحياة

فهذان العالمان الجليلان ينزلان بالفارق بين الجنسين إلى قرارة المادة الحية التي تتمثل في النبات . ويوشك أن يجعلا في الأنوثة شيئاً من النباتية التي تمكث في موضعها ، وفي الذكورة شيئاً من الحيوانية التي تنفق من مادتها بالحركة .

ويمكن أن نتوسع في شرح رأيهما فنقول إن التفرقة عندهما بين الأنوثة والذكورة كالتفرقة بين التجميع والتصريف ، أو بين الاختزان والاحتراق ، أو بين الاحتجاز والاندفاع .

ففي كل كائن حي عملان كيميان يتقابلان ويتكافآن ، وهما البناء

والتصريف ، أو جمع الغذاء وحرق ما اجتمع منه .

ويتبين هذا في الورقة الخضراء التي يعرضها النبات للشمس فيجري فيها بناء مادة من السكر وما شابهه ، وذاك فيما يرى العالمان الجليلان أهم عمل كيمي في الخليقة . لأن جزءا من قوة شعاع الشمس يستخدم لصنع مركّبات الكربون من ثاني اكسيد الكربون الذي في الهواء وفي ماء التربة .

ولوفرة المادة التي يبنيها النبات لغذائه يستطيع أن يعتمد عليها كما يعتمد عليها معه آكلو العشب من جميع الأحياء .

إلا أن الحي الذي يتحرك ويعمل يحرق جزءا من مركبات الكربون فيه وتنطلق القوة منه كما تنطلق من الآلة البخارية .

فالذكورة هي حالة البنية التي تتطلب احتراقا أعنف وأكثر وأقرب إلى الاطراد من الأنوثة ، والأنوثة هي حالة البنية التي تتطلب تجميعاً للغذاء أهدأ وأقرب إلى القرار من الذكورة .

أو هما كما أسلفنا يفترقان بالقدرة على التجميع والقدرة على التصريف ، ويفترقان بنزعة الاحتجاز ونزعة الاندفاع ، ولنا أن نترجمها في لغة الأدب والواقع المشاهد بالتفرقة بين التلبية والاقتحام .

وكأنما قال العالمان إن الرجل حي النزعة في مجمل صفاته ،وإن المرأة نباتية النزعة في مجمل صفاتها .

وهي هي ما تزال منذ درجت من الحياة الأولى « تلك الشجرة » التي تبسط زهرتها وهي في مكانها لتتلقى فيها اللقاح على جناح الهواء .

وكل بنية حية ففيها النزعتان متقابلتين متكافئتين . فحيث زادت القدرة على التجميع فثم أنوثة ولو حملت غير اسمها ، وحيث زادت القدرة على التصريف فثم ذكورة ولو حملت غير اسمها . . وعود على بدء إذن إلى أسطورة الرب السكران .

***

وأيا كان تعليل العلم لنشأة الفوارق الجنسية في قرارها فالعلماء المحدثون

المعنيون بمسائل الجنس يرجعون بالاختلاف بين مزاج الذكورة ومزاج الأنوثة في جسدي الرجل والمرأة إلى الهرمون الذي تفرزه الغدد الصماء ، وهو سائل شفاف يسري في الجسم من غدد ثلاث توجد في أجسام الأحياء الفقارية ، إحداها الغدة الدرقية في الحلق ، والثانية الغدة النخامية في أسفل الدماغ ، والثالثة الغدة الكظرية على مقربة من الكليتين ، وهي عظيمة الأثر فيما يشاهد من الاختلاف بين أجسام الذكور والاناث بعد سن البلوغ . ومتى تشخصت الذكورة والأنوثة ظهر الفارق الأكبر في تركيب الخصية وتركيب المبيض ، فاختص الرجل بافراز المني واختصت المرأة بافراز البويضات .

ومن التجارب في بعض الحيوان كالجرذان يلاحظ أن استئصال الغدد المنوية يميل بالحيوان إلى مزاج الأنوثة ، ولكنه إذا استئصل منه المبيض لا يستعير مزاج الذكورة إلا باضافة الغدد المنوية اليه .

وقد يتفق أن يكون في الانسان خصية ومبيض بدلا من الخصيتين ، فيسري في جسده افرازان يميل به احدهما الى الذكورة ويميل به الآخر إلى الأنوثة ، ويشاهد في مثل هذا الانسان أحياناً مشابه من المرأة في الصدر وبعض الأعضاء الداخلية .

على أن الحيوانات الدنيا تتناوب الذكورة والأنوثة كما في بعض الحالات النادرة . فتكون المحارة البالغة ذكراً ثم تنقلب أنثى ثم تعود ذكراً مرة أخرى . وهي لا تلد البويضات إلا إذا ارتفعت الحرارة حولها إلى درجة معلومة . ففي الدرجة من عشرين إلى اثنتين وعشرين تنقلب المحارة أنثى مرة في كل سنة ، وفي الدرجة الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة تنقلب أنثى مرة كل ثلاث سنوات أو أربع سنوات ، ولا تنقلب أنثى فيما دون هذه الدرجة على الاطلاق .

وتشاهد هذه الظاهرة في بعض الأسماك الصغرى وبعض الحشرات المائية ، . فيحدث فيها التحول على نحو يشبه التحول في المحار ، ولا يشترط فيه تفاوت الحرارة بذلك المقدار .

فالفوارق بين الجنسين تتقارب كلما هبط الحيوان في سلم الخلق حتى تزول الفوارق جميعاً في الخلية الأولى ، ولكنها تتشعب وتتعدد ويصبح التحول

بينهما فلتة من فلتات الخوارق كلما ارتقى الحيوان في سلم الخلق ، حتى تبلغ هذه الفوارق قصاراها من التنوع والتكافؤ في بنية الانسان .

***

ومع هذا يوجد الفارق بين الخلايا المنوية والخلايا البيضية محسوساً مميزاً لمن يكشفه بالمجهر ، فتختلف الخلية المنوية من الخلية البيضية بالحركة والشكل والتركيب .

والخلايا المنوية في الحيوانات اللبون هي التي تقرر جنس الجنين ذكراً يكون أو أنثى . . لأن الذكر يفرز نوعين من الخلايا أحدهما يشبه خلية الأنثى والآخر خاص بالذكورة لا يشبه البويضات الأنثوية . فاذا امتزجت عند اللقاح خليتان متشابهتان فالمولود أنثى وإذا امتزجت خليتان مختلفتان فالمولود ذكر . لأن الخلية المختلفة هي التي تعطيه صفة الذكورة .

وقد لوحظ أن خلية الذكر تتألف على الأكثر من نواة تميل إلى الحركة وتقل فيها المادة الغذائية الأخرى التي تكثر في الخلية الأنثوية . وتقبل مادة النواة الاصطباغ فيسهل تمييزها بألوانها ، ولذلك سميت في اللغات الأوربية Chromosome نسبة إلى الصبغ والتلوين .

وفي كل خلية عدد من هذه الصبغيات يتساوى في خلايا النوع كله . أقله صبغيان اثنان كما في الدودة الخيطية التي تعلق بالخيل ، وأكثر ما شوهد منه في خلية الانسان حيث يبلغ عدد الصبغيات ثمانية وأربعين . ولكن هذا العدد ليس بالمهم في الدلالة على ارتقاء النوع . . لأن بعض الحشرات الحلزونية تشتمل خلاياها على مثل هذا العدد .

إنما المهم أن عدد الصبغيات بعينه يتكرر في كل خلية من خلايا الجسم كله ، وأن الخلية المنوية تشتمل على نصفه فقط ، وكذلك الخلية البيضية ، كأنما الملحوظ من البداية أن النصفين يكونان خلية واحدة هي التي يتخلق منها الجنين .

ومن عجائب الاختلاف العريق بين خصائص الذكورة وخصائص الأنوثة أن عدد الصبغيات في خلية الذكر سبعة وأربعون وفي خلية الأنثى ثمانية

وأربعون . والذي يحدث عند اللقاح أن خلية الذكر تنقسم نصفين وخلية الأنثى تنقسم نصفين ثم يتقابل نصف من هذه ونصف من تلك . فاذا كانا عند الامتزاج يؤلفان ثمانية وأربعين فالمولود الذي يتخلق من هذه الخلية أنثى ، وإذا كانا يؤلفان سبعة وأربعين فالمولود الذي يتخلق من الخلية ذكر . . وكأنما النواة الكثيرة الحركة هي العوض في خلية الذكر من الصبغي الناقص فيها .

ما أعجب بداهة الأساطير في النفاذ إلى حقائق الحياة !

في الأسطورة التي أشرنا اليها زعموا أن الذكر والأنثى كانا في النوع الانساني بنية واحدة فأوجست الآلهة منهما متحدين متفقين فشطرتهما شطرين . فهما منذ تلك اللحظة يبحث كل منهما عن النصف الآخر ليتم به نقصه ويجد فيه لفقه الذي يسكن إليه .

وتلك هي الحقيقة في ظلمات الرحم تشطر الذكر والأنثى نصفين ثم تطلق كلا منهما يبحث عن لفقه حتى يسكن اليه ثم تطلقهما بعد ذلك نصفين في كل منهما حنين إلى النصف الآخر يبحث عنه حتى يلقاه .

***

خلاصة هذا جميعه أن الجنس محدود الفوارق منذ الخلية الأولى ، وان هذه الفوارق كائناً ما كان اسمها ترجع إلى فارق واحد يلخصها بأجمعها ، وهو مزيد من الإقدام في جانب الذكورة ومزيد من الإحجام في جانب الأنوثة ، أو مزيد من الارادة يقابله مزيد من التلبية ، أو مزيد من التصريف والحركة يقابله مزيد من التجميع والدعة . ثم يتفرق هذا الفارق الوحيد على مئات من الصور في كل من الجنسين .

والباحثون المعنيون بالجنس يسجلون درجات من الفوارق بين الرجل والمرأة تتفاوت في الظهور بين ما هو ظاهر من اللمحة الأولى إلى ما يظهر بعد كثير من البحث أو قليل : وأشهر من تكلم في هذه الفوارق الباحث الانجليزي Havelook Ellis في كتبه الكثيرة وبخاصة كتابه « الرجل والمرأة ودراسة الخصائص الثانية والثالثة بينهما » .

Man and woman A. Study of Secondaru and tertiary sexual charaters

وهو كتاب جامع تناول فيه الفوارق التي تبدو من المشاهدة والفوارق التي تبدو

بعد الفحص والتحليل في كل جزء من أجزاء البنية الانسانية . . فاستقصى ذلك أحسن استقصاء مما يضيق بنا المقام هنا لو شرحناه او لخصناه .

ولكننا نلم بالفوارق الذهنية أو الفوارق النفسية العامة فنجتزىء منها ببعض الملاحظات التي تدل على سائرها :

فمنها ـ ولعله أهمها ـ أن النساء الموسومات بالعبقرية لم ينبغن مستقلات بأنفسهن أو بمعزل عن رجل يعتمدن عليه : فمدام كوري أشهر النابغات في ميدان العلم كانت زوجة رجل من كبار العلماء يشاركها أو تشاركه في بحوثها وآرائها . ومسز بروننج ، الشاعرة الانجليزية نظمت أجمل قصائدها وهي زوجة للشاعر روبرت بروننج . . وجورج اليوت كتبت أفضل رواياتها وهي في عشرة لويس صديقها المأثور لديها . . . واللادي ديلك Dilke كتبت في الدراسة العلمية حين كانت زوجة للعالم الأديب مارك باتيسون pattison ، وكتبت في السياسة والادارة حين أصبحت زوجة رجل من رجال السياسة والادارة .

وأشار هافلوك اليس إلى تجارب الباحثين بأنحاء القارة الأوربية فيما بين الرجل والمرأة من الفوارق الذهنية والنفسية ، فكانت خلاصتها أن المرأة مطبوعة على الوصول إلى النتائج بالحيلة والتحسس وخفة التناول والتنفيذ ، وأن الرجل يقابل ذلك بالاتجاه الصريح والنفاذ والتصميم .

وممن درس هذا الموضوع على الطريقة العلمية الأستاذ ارنست كرتشمر Ernst Kertschmer أستاذ الامراض النفسية والعصبية بجامعة ماربورج ، فألم في كتابه نفسيات العباقرة إلى النساء اللائي اشتغلن بالفنون ، ولخص رسالة موبياس Mobius الذي خص القول بالموسيقات لأن المرأة لم تعطل قط عن تعلم الموسيقى والعزف على آلاتها . . قال : ومع هذا لم يبق من أسماء نابغات الموسيقى إلا الأسماء التي كانت تتصل ببعض الرجال كاسم كلارا شومان زوجة شومان الموسيقي العالمي المعروف ، وفاني مندلسن أخت مندلسن وكورونا شروتر صديقة جيتي ، وغيرهن على هذا المنوال .

وذكر الشاعرة الألمانية انيت فون درست هلشوف Anette von droste Hulshoff فقال إنها كانت أقرب إلى الرجولة في مزاجها وكلامها ، وكانت تتزيا بأزياء

الرجال وتتمنى في بعض شعرها لو كانت صياداً منطلقا بالعراء أو جنديا مقاتلا أو رجلا على الأقل . . ولم تنظم قط في عواطف الأمومة أو وصف الطفولة أو حنين المرأة الى الحب والالفة البيتية وما شابه ذلك من معارض الشعر التي يكلف بها النساء ، وأضاف إلى ذلك أن هذا النزوع الى التشبه بالرجال والتزيي بأزيائهم مشهود مطّرد في نساء التاريخ المشهورات مثل اليصابات ملكة انجلترا وكاترين قيصرة الروس وكريستينا ملكة السويد . . فهن ينبغن في اقتدارهن على بعض أعمال الرجال بمقدار ما ينقص فيهن من صفات الأنوثة ، لا بمقدار ما يزيد ويفضل عن الحاجة إليه .

* * *

وأسلم ما يقال في هذا الباب ولا يقبل الخلاف عليه أن فاصل الجنس موجود ، وأن هناك صفات ذكورة وصفات أنوثة لا التباس بينها حين تنعزل وتتمادى إلى طرفيها ، ومن خير بني الانسان أن يصان لهم هذا التنويع في الصفات على اختلاف ألوانها وظلالها ودرجاتها وطبقاتها ، لأن التنويع زيادة في ثروة الاحساس ، وزيادة في ثروة الحياة ، وزيادة في الأعمال التي تستطاع في كل حالة من هذه الأحوال ، وترتقي إلى غايتها من الاتقان كما يرتقي كل شيء إلى غايته بالتخصيص وتوزيع العمل فيه .

وأن الجنس لم يخلق ليزول ويتشابه الجنسان .

ولكنه خلق ليبقى ويتعاون جانباه على إتمام حياة الانسان .

الحُب

نرانا مرة أخرى أمام تضليل اللغة لنا عن فهم الحقيقة أو أمام جناية الأسماء على المدارك الانسانية .

فالأسماء قد حصرت المعاني فأفادت لأنها جمعتها من الفوضى والشتات وحصرتها فأضرت ، لأن المعاني أوسع من أن تقبل الحصر ولكل منها حالات مثلها لا تحصى .

ومن هذه الأسماء اسم « الحب » لذلك العالم الزاخر الذي لا نهاية لمعانيه .

فهو اسم واحد ولكنه ليس بشيء واحد .

ويضل من أجل هذا عن حقيقته كل من ينتظر شيئاً واحداً حين ينظر إليه .

لأنه على أية حال ليس بشيء واحد موجز المعاني كلفظه الوجيز الذي يدل عليه .

***

في كل حب بين رجل وامرأة شيء من حاسة الجمال ، وشيء من الأثرة وحب الاحتجان ، وشيء من الغريزة النوعية والخصائص الجنسية ، وشيء من الرغبة في المتعة الحسية والنفسية ، وشيء من التجميل وزخرفة الخيال والتطلع إلى المثل الأعلى ، وشيء من الألفة التي تحبب إلينا كل مألوف ، أو توحشنا من بعده والمعيشة بدونه ، وشيء من الخوف والقلق والرجاء والحيلة والمحاولة وكل ما يدور في سريرة الانسان حول تلك العناصر التي تشتمل عليها تلك الكلمة الصغيرة ذات الحرفين الاثنين .

وهذه الخصائص توجد في حب الرجل والمرأة ، وتوجد في غيره من العلاقات .

فالانسان يألف المرأة التي أحبها ويألف الموطن الذي أطال الاقامة فيه .

ويلجأ إلى التجميل وزخرفة الخيال إذا فتن بالعظمة والنبوغ ، كما يلجأ إلى التجميل وزخرفة الخيال إذا فتن بالمعشوقة الحسناء .

ويروقه الجوهر النفيس فيتمنى أن يملكه ويستأثر به دون غيره ، وكذلك يفعل حين يروقه جمال المرأة التي يهواها .

ويحس الغريزة النوعية حين يحب ولا يحب ، وتتيقظ فيه الخصائص الجنسية وهو بعيد من المرأة أو قريب منها .

ويستمتع بحاسة الجمال وهو ينظر إلى الشفق وإلى الريحانة وإلى الصورة وإلى التمثال .

فهي عناصر تتفرق في الدنيا وتتجمع في عاطفة الحب ، كما تتجمع العناصر القليلة في صور لا تقبل الحصر ولا تحدها الأسماء .

ومن الأمثلة التي تقرب لنا هذه الحقيقة أن عناصر المادة تعد بالعشرات ، ولكن الصور التي نراها في هذا العالم تربي على الألوف وألوف الألوف .

وان حروف الهجاء لا تتم العشرات الثلاث ومنها الكلمات التي تضيق بها المجلدات في جميع اللغات .

فلا نهاية لألوان الحب التي تتجمع من تلك العناصر القليلة ، لأنها تتباين في الترتيب وتتباين في القوة وتتباين في المقادير وتتباين أبعد التباين على حسب المحبين ، وعلى حسب الأعمار والأطوار النفسية في المحب الواحد .

ولا وجه للمقابلة بينها كما لا وجه للمقابلة بين كلام وكلام لأنهما مركبان من حروف متشابهة ، فحب هذا الانسان لا يشبه حب ذاك الانسان ، وما يشاهد من محب في عنفوان هواه لا يلزم على وجه من الوجوه أن يشاهد من سائر المحبين .

إنما العنصر الذي لا تخلو منه عاطفة الحب بالغة ما بلغت ألوانه ودواعيه هو تمييز شخصية بين سائر أفراد الجنسين . فحيث لا يوجد رجل مميز بين الرجال وامرأة مميزة بين النساء فلا حب ولا علاقة ولكنها شهوة كشهوة الطعام يشبعها كل غذاء ، ولذة كلذة الحس من متاع اللمس والسمع والرؤية ولو في جماد .

ولا يزال الأمر في حدود الاستحسان والروعة والرغبة في الحب حتى تمتاز بين أفراد الجنس شخصية لا تغني عنها شخصية أخرى وإن شاركتها في مجمل صفاتها أو زادت عليها في محاسنها . فاذا امتازت هذه « الشخصية » فذلك هو الحب وذلك هو الغرام . وفي اسمه بالعربية شرح لأطواره وشروطه وأولها الألفة واللجاجة والعكوف . وقد يولد الحب من النظرة الأولى .

ولكنه ينمو بعد ذلك لا محالة حتى يستوفي نموه بعد التمييز والألفة والافتتان في صور الخيال .

وإنما يولد الحب من نظرة واحدة إذا استولى بتلك النظرة على حاسة الجمال ، أو أثار الغريزة ، أو أذكى حمية الغيرة والشوق إلى الحيازة والاحتجان ، ولكنه لا يكون أقوى الحب حتماً لأنه ولد على عجل أو جاش في النفس من نظرة واحدة . فربما أبطأ الحب وسرى في الضمير غير محسوس به ولا ملتفت اليه ، ثم يشعر به المحب يوماً فاذا هو أقوى من كل حب تثيره المفاجأة وتعجل به النظرة الخاطفة .

ودأب الحب في ذلك كدأب الخوالج الانسانية في أطوار السرعة والزوال ، وأطوار الاناة والبقاء .

وقد يلتقي الرجل بالمرأة فيعرض عنها وينفر منها ، ثم يلتقي بها في حالة غير تلك الحالة فيألفها ويتعشقها ويصمد على هواها . لأن المعول في هذه الحالات على الابتداء وتسلسل البواعث الأخرى . فاذا حسنت البداءة تبعتها البواعث التالية في نسق مقبول حتى تبلغ مداها .

ولو كان الحب شيئاً واحداً لما اختلف وقعه بين نظرة ونظرة ، وبين مقابلة ومقابلة ، وبين الرجل في آونة من الزمن والرجل نفسه في غير تلك الآونة .

هو في عناصره كألوان الطيف الشمسي لا تنطبق على عدها أصابع اليدين ، ولا تكفي أرقام الحساب كلها لاحصاء ما يتألف منها ويتفرع عليها من الظلال والشيات والأصباغ .

ولهذا لا نسأل عنه سؤالنا عن خصلة واحدة او خصال محدودة ، كما لا نسأل عن الألوان والأصباغ على هذا الأسلوب .

فمن ضيق النظر إلى الحب أن يقول قائل إنه ينطفىء بالاتصال بين الجسدين ، أو إنه يسلتزم الاتصال ولا يذكو بغيره .

ومن ضيق النظر ان يقال إن الحب يكون عذريا أو لا يكون ، أو يستدل عليه بهذه الصلة ولا يستدل عليه بصلة سواها .

لأن الحب قد وجد بين الجنسين قبل أن توجد الأواصر الاجتماعية التي تحرم الاتصال بين الرجل والمرأة بغير عقد مشروع .

فاذا سئل عن الحب العذري فليس السؤال هل يوجد او لا يوجد ، وهل هو

مشروط في طبيعة الحب أو غير مشروط فيها ؟ وإنما السؤال هل المحبان قد غلبت عليهما نزعة الفطرة أو غلبت عليهما آداب الجماعة أو أوامر الدين ؟ وقد يستتبع هذا السؤال سؤالاً تالياً وهو : هل جمحت الغريزة بصاحبيها أو لا تزال في قبضة العنان التي يقدر عليها الأقوياء أو يقدر عليها بعض الضعفاء إذا هان أمر الجماح ؟

وعلى هذا يوجد الحب العذري ولا يوجد ، ويعهد في بيئة ولا يعهد في بيئة غيرها ، ولا يعدو أن يكون لوناً من ألوان الحب ، يستطاع في علاقات وتنوء به الطاقة في غيرها من العلاقات .

وكذلك السؤال عن الحب هل هو سعادة أو هو شقاء ؟ فقصارى القول فيه انه هو حب سواء قلت حب شقي أو حب سعيد . فاذا اتفقت جوانبه الكثيرة فهو أقرب إلى السعادة ، وإن كان لا يستغني عن قلق يغلبه ويعيد الأمن به والسكون إليه بعد المخافة عليه . وإذا افترقت جوانبه الكثيرة فهو أقرب إلى الشقاء وإن كان هذا الشقاء لا يخلو من دواعي الاغراء والاعزاز لأنه هو التكاليف التي تقوّم بها قيم الشعور .

ولكنه ـ لكثرة عناصره ـ أقرب إلى الشقاء منه إلى السعادة ، لأنه عرضة لافتراق الهوى في النفس الواحدة حين تتناقض الرغبة والكرامة ، أو تتناقض أسباب الألفة واسباب النفور ، وعرضة لافتراق الهوى بين نفسين اثنين لا تزول الحواجز بينهما كل الزوال وإن أفرطا في المودة والوفاء ، وعرضة لافتراق الهوى بين تينك النفسين وبين البيئة التي يعيشان فيها ، وعرضة لافتراق الهوى من تقادم العهد وتبدل الاحساس وتجدد العلاقات التي يتعرض لها كل هؤلاء .

وإنما كان له هذا الشأن الأكبر بين العواطف الانسانية لأنه هو العاطفة التي تنفذ إلى جميع العواطف ، والتجربة التي تمتحن بها النفس في جميع طواياها ، والشعور الذي تتأهب له بنيتان وطويتان بكل ما أودع فيهما من نوازع الجنس العريقة في أعمق جذور الحياة من الخلية الأولى إلى فطرة الانسان .

ولا يقال إن امرءاً عرف نفسه وسبر أغوار ضميره ما لم يسبرها في هذه العاطفة مرات ، لأنها لا تتغلغل إلى انحاء الضمير جميعاً من نوبة واحدة ، ولا تزال لكل نوبة رسالتها التي تحملها إلى قرار في أغوار الضمير لم يكن بالمعروف ولا بالميسور . وقد تطلع المرء على أخس ما فيه كما تطلعه على أنبل ما فيه .

فهي بوتقة لا نظير لها ، وهي بوتقة تدخلها معادن لا تحصى ، وقد يدخلها المعدن ذهباً تارة وقصديراً تارة أخرى ، على حسب الشخصيتين وعلى حسب النوازع التي تثار في العلاقة بين تينك الشخصيتين .

ولا يلزم أن تكون الضعة في إحدى الشخصيتين ضعة في العاطفة وتعبيراتها ، لأن هذه الضعة قد تحيي في النفس مناعتها ، وتستجيش محاسن العطف والرحمة فيها ، كما تحيي الجرثومة مناعة البنية التي تداخلها وتستنفر حراسها وحماتها .

وعلى هذا النحو لا يلزم أن تكون الرفعة في إحدى الشخصيتين رفعة في العاطفة نفسها ، فمن الرفعة ما تلقاه النفس بالاعجاب ولا تلقاه بالفطرة الثائرة التي ترجها وتزلزلها وتستخلص منها ذخيرتها وكوامن قواها .

إنما هو تفاعل بين شخصين . وكثيراً ما يتفق في العواطف البشرية كما يتفق في الكيمياء أن يكون للمادة الخسيسة فعل مفيد وأثر نفيس في المادة التي تفاعلها ، ولا بد من التفاعل بين النقائض والمتشابهات في بوتقة النفس وفي بوتقة الكيمياء .

مُعَامَلة المرأة

إذا كانت هذه هي المرأة في جملة صفاتها ومزاياها ونقائصها وحقوقها فكيف نعاملها ؟ أو كيف نهتدي بمجمل هذه الآراء والمشاهدات في معاملتها ؟

ولا ينصرف هذا السؤال إلى معاملة المرأة في الأندية ومجالس البيوت والمحافل العامة ، لأن هذه المعاملة تجري على سنة المجاملة التي تفرضها آداب كل أمة ، وتجري على سنة المراسم التي يرعاها من يدين بها ويتقيد بعرفها ونكرها .

وهو أيضاً لا ينصرف إلى معاملة المرأة في القوانين والدساتير لأن جميع القوانين والدساتير سواء ما لم تدرأ المرأة عن حوزتها الأولى وفريضتها العليا ، وهي الاشراف على مملكة البيت وعلى تنشئة الجيل المقبل وصيانة الأسرة .

إنما ينصرف السؤال إلى « المرأة الطبيعية » لا سيدة النادي ولا عضو المجتمع ولا صاحبة الحقوق في القانون والدستور .

وأوجز ما يقال في جواب السؤال على هذا المعنى ان الرجل الذي يحسن معاملة « المرأة الطبيعية » هو الرجل الذي يشغل إحساسها ، وان الذي يشغل إحساسها ولو بالسخط والغضب والاثارة أقرب اليها ممن يتركها فاترة النفس لا تغضب ولا ترضى . ولا تميل ولا تنفر ولا تشكر ولا تنطوي على حقد أو موجدة .

وقد شوهد نساء كن يُحسبن من السعيدات المنعمات لأن أزواجهن كانوا يغدقون عليهن النعمة ، ويتأدبون غاية الأدب في خطابهن ، ولا يزالون معهن على ديدن الكياسة في الخلوة والاجتماع ، كأنهم يعيشون معهن الدهر على ملأ من نبلاء القرون الوسطى . فلم تنقض عليهن مدة حتى طلبن الطلاق وألحفن في طلبه ، وذهبن إلى أزواج يمزجون الرضى بالغضب واللين بالخشونة ، فأخلدن إلى العيش معهم ، وآثرنه على تلك المجاملات التي لا انقطاع لها في خلوة ولا اجتماع .

وشوهد نساء يشكين بين الجد والمزاح أن أزواجهن يسرعون إلى استجابة كل إشارة لهن وإنجاز كل رغبة من رغباتهن . وسمعت من هؤلاء النساء من تقول : بودي لو يخالفني يوماً فيأبى أن يذهب إلى دور الصور المتحركة حين أقترح عليه الذهاب إليها ، وبودي حين يقبل الذهاب أن يخالفني ولو في اختيار الدار التي أدعوه اليها .

وفي هذه الأمنية من جد أكثر مما فيها من مزاح .

لأن المرأة تستريح إلى الشعور « بالحماية » ، وتنوط بهذا الشعور طمأنينتها وتسند إليه ضعفها ، وهي لا يخلص لها الشعور بالحماية إذا انطلقت بغير وازع يمنعها بعض المنع ويردها إلى الطاعة من حين إلى حين . وقد تخالف الرجل فتسعد بالنجاح في المخالفة ، ولكنها تشيّع هذا النجاح بالندم وتود لو حبطت مخالفتها وتعوضت منها الشعور بالقوة التي تردها إلى طاعتها .

وشغل الاحساس ضرورة للمرأة لا محيص لها عنها ، أو ضريبة مفروضة عليها لا نجاة لها منها . وكفى من بواعثها إلى شغل إحساسها أنها تمتحن في كل دورة قمرية بثورة لا تكبحها أو بهمود لا ينقذها منه إلا تلعجها وتحرك رواكدها ، وإنه مع هذا لسبب عارض يزاد على السبب الدائم الذي جعل حياتها منوطة بالمؤثرات الحاضرة غير حافلة بما يعقبها .

ومن المتواتر في أقوال بعض الرجال من عشراء النساء الطبيعيات ان المرأة تحب الرجل الذي يضربها ويهينها ، وتؤثره على الرجل الذي يكرمها ولا يزال يترضاها .

وقد يكون في هذا القول تقديم وتأخير : تقديم للضرب والاهانة على الحب ، وأحرى أن يتقدم الحب على الضرب والاهانة . فان المرأة تقبلهما ممن تحبه لتزداد شعوراً بحبه وغلو قيمته لديها ، وقد يسرها أن تعلم كيف أصبحت أثيرة عند الرجل حتى أثارته غيرة عليها أو اهتماماً بشأنها . لأن قلة الاكتراث هي أخوف ما تخافه من الرجل الذي يعنيها .

ولكن التقديم والتأخير في ذلك القول لا يجردانه من الصدق الذي تعرف له علة معقولة . فان المرأة يلذ لها الخضوع إذا وجدت من يخضعها لأنه يحقق لها أنوثتها بين يدي الفحولة الغالبة عليها ، وإنها ليلذ لها الألم أحياناً لأن الألم مقترن بأحب الوظائف إلى طبيعتها وهي طبيعة الأمومة . ومتى لذ لها الخضوع

والألم فلا عجب أن يلذ لها الضرب والهوان ممن يعنيها .

ويشبه هذا القول ان المرأة تعرض عمن يقبل عليها وتقبل على من يعرض عنها ، لأن المرأة تتهم نفسها إذا أعرض عنها الرجل فلا يهدأ بالها حتى تدفع عنها التهمة وتسترد اليها الثقة بفتنتها وغوايتها . وقد تشعر أنها بلغت من الرجل كل ما توده إذا هي لمحت منه الاعجاب بها . فلا حاجةً بها إلى المبالاة به لأنها عرفت قيمتها لديه . إلا أن يكون الرجل قد أعجبها فهي تتخذ من إعجابه بها وسيلة إلى استبقائه في أثرها .

وذاك الذي يصدق على المرأة في هذه الخلة يصدق على كل ضعيف يلتمس قيمته في نظرات الناس إليه . فانه ليقنع ويتعالى إذا لمح المبالاة به . . وإنه ليخنع ويتردد إذا لمح الاعراض عنه . ومهما تكن المرأة جميلة فاتنة فهي تتهم جمالها وفتنتها إذا عجزت عن غزو رجل من الرجال بهما ، ويقع في خاطرها على الأثر أنه يهملها لأنه يعرف من النساء من هي أجمل وأفتن . فيكون رضاه أحب إليها من رضى المعجبين بها والحائمين حولها .

ومن المحقق أن المرأة لا تضن براحة ولا سمعة ولا كرامة في سبيل الرجل الذي تتبعل له تبعل الأنثى لفحلها . وقد تأنف من معاشرة الضرة مع رجل لا يملكها بفحولة طبعه ومتانة أسره ، ولكنها تقبل معاشرة الضرات طيعة راضية إذا صادفها الرجل الذي يملكها بفحولة طاغية على مشيئتها ، وتسرها يومئذ ساعة الحظوة لديه بين ضراتها كأنها نعمة منتزعة من السماء ، تظل تحلم بها وكأنها لا تصل إليها إلا أن يسعدها الحظ عند مالكها ومولاها .

وقد تقول « سيدة النادي » غير ذلك بلسانها ، ولكنها لا تقول غير ذلك لا بلسانها ولا بقلبها إذا حلت فيها « المرأة الطبيعية » محل السيدة الاجتماعية ، وإنما تحل فيها هذه « المرأة الطبيعية » محل سيدة النادي بين يدي « الرجل الطبيعي » الذي ينفذ بها من شعائر العرف المصطنع إلى ما وراءها .

والمرأة بعد لا تتطلع من الرجل إلى شعور أحب إليها من شعور الحماية المحيطة بها والقوة الغالبة عليها ، ولهذا يرضيها أن يمتزج بمعاملتها شيء من معاملة الطفلة المدللة ولو من ابنها وأخيها . فأحب الرجال إلى المرأة هو الرجل

الذي تسكن إليه طفلة مطمئنة تقبل حنانه وتخاف غضبه وتتوخى رضاه ولا تأنف من تأنيبه وتعذيبه .

تلك هي حواء ، في قرارة الوقائع والآراء ، لا تتبدل حتى تتبدل الأرض والسماء .

من كتب المؤلف

للمؤلف في كتبه ومقالاته آراء عن المرأة والجنس بعضها موجز عارض وبعضها مطول موقوف على هذا الموضوع . وفيما يلي نبذ منها تمت إلى فصول هذا الكتاب وتُعد في مكانها إلى جانب بحوثه وتعليقاته ، وقد تفيد في تقريب جوانبها كما تمثلت للمؤلف في أزمنة مختلفة . ونتوخى في اقتباسها الايجاز دون الاسهاب .

***

النساء أسرع تقليداً لأنهن أشد غيرة . وهن أشد غيرة لأن المشاكلة بينهن في المناقب والمفاخر أقرب مما هي بين الرجال .

« خلاصة اليومية ـ ١٩١٢ »

***

لا ينبغي أن يقتصر الغرض من تربية البنت على تعليمها كيف تكون زوجة إلا إذا كنا نعلم الفتى في المدارس ليكون زوجاً . والواجب أن نعنى أولاً بتعليمها ما تنشأ به امرأة قادرة على النهوض بنصف أعباء الهيئة الاجتماعية . فان العشرة الزوجية ليست حرفة يتلقى الطالب أسرارها في دور التعليم ، ولكنها عمل كسائر أعمال الحياة يحسنه الانسان أو لا يحسنه بمقدار ما له من الحذق والاختبار .

« خلاصة »

***

المرأة ألطف زكانة وأفطن إلى تشابه الملامح من الرجل . فقد رأيت بعض النساء يرين الطفل الصغير قبل أن تشخص ملامحه فيحكمن بأنه من آل فلان وأن فيه شبه العائلة الفلانية ، وقد لا يبدو بينهما أدنى شبه . والظاهر أن كثرة اشتغالهن بتجميل الملامح قد أكسبهن هذه الخبرة فيها .

« خلاصة »

إنما رأيها في الرجل هو رأي الرجل في نفسه . ولهذا كان أكثر الرجال توفيقا عند النساء أشدهم اغترارا وزهوا . حتى لقد وُجدت المرأة ترى الجمال فيمن يراه لنفسه ، وإن كان الجمال من الأشياء المحسة بالبصر .

« الانسان الثاني ـ ١٩١٢ »

***

في المرأة من أخلاق الطفل غيرته المضحكة ونزقه السريع واستغراقه في الحاضر الذي بين يديه ، وقصور نظره على الظواهر والقشور ، ومرحه وغرارته ونفوره مما يهم ويصلح ، ومحاكاته كل ما يراه ، وتعويله في أموره على سواه ، وتقلبه وكذبه ورياؤه وأثرته وولعه باستطلاع المضمرات والأسرار ، وجشعه وطمعه وموجدته وافتتانه بالثناء والاطراء .

« الانسان الثاني ـ ١٩١٢ »

***

شغلها اليوم كشغلها قبل التاريخ . فما تزال صارفة كل عنايتها إلى تزيين ظاهرها وتحسين هندامها ووسائل اعجاب الرجل بها ، ولا يزال لها ولع الهمجي بخرزه وريشه الطويل وشغفه بالألوان المبهرجة الزاهية والصور البراقة الخالبة . . وما أفادها تقدم العمران وتدرج العصور إلا أنها جعلت الطلاء مكان الوشم ، والجواهر في موضع السبح وثقوب الاقراط بعد ثقوب البُرى ، وعطور الرياحين والأزهار بدلا من دخان الند والعود . مع شيء يسير من التهذيب كان لا مندوحة لها عن اقتباسه من الرجل في عشرة الدار التي تجمع بينهما على تباين الأفكار وتباعد الأوطار .

« الانسان الثاني ـ ١٩١٢ »

***

ليس إلا غرور كغرور . . بنت حواء يزين لها أن تقول للرجل : أنا ربة الجمال وصاحبة القوة فوق الجمال . أسعى سعيك وأدأب دأبك . . وليس هذا كل ما عندي . بل إنك لتعمل ولا عائق لك يثنيك عما أنت آخذ فيه . أما أنا فأعمل كما تعمل في حين أنهض بأعباء الحمل والوضع والحضانة والتربية .

فأغلب عاملي التعب والألم وأنت تنوء بواحد منهما . ولا أراني قانعة بأن أكون مثلك . فاني لأصلب منك عوداً وأشد جلداً ، وأجمل منظراً وأحدّ ذكاء . .

« الانسان الثاني ـ ١٩١٢ »

***

هذا المجتمع معركة ضروس . . والنساء فيه آسيات جروحه وضامدات كلومه وجابرات كسوره . فكيف به وقد طرح آسياته المراهم واللفائف ، وتبدلن منها الخناجر والقذائف ، ثم برزن للنضال بين المتناضلين . . . أعوذ بالله ، إن المجتمع ليكونن ساعتئذ كأنه قطيع من الذئاب قد أضراه الجوع والسعار ، فانبعث عاويا عاديا يتخطف كل من مسه الكلال فوقع من بينه معيى في بعض الطريق .

« الانسان الثاني ـ ١٩١٢ »

***

لو قام رجل فادعى أنه يستطيع أن يزاحم المرأة في الولادة والرضاع لقام في وجهه مكذب من تركيب الجسم ونظام أجهزته وأعضائه . أما صفات الرجولة التي قدمناها فليس لها جهاز خاص ظاهر للنظر أو لعلم التشريح . فلذلك ظنت المرأة أن ادعاءها الحزم وسعة العقل وقوة الطبع أيسر عليها من ادعاء الرجل الاستعداد للحمل والرضاع . مع أن الأمرين بمنزلة واحدة من الصعوبة والاستحالة ، وكل ما بينهما من الاختلاف أن مزية المرأة في التركيب الجسمي ظاهرة للحس ، وأن مزية الرجل لم تظهر في شكل خصوصية جسمانية . على أن هذا لا ينفي أن آثار هذه الخصوصية تظهر في أعمال الرجل ومراميه وإن لم تظهر أعيانها في أعضائه وجوارحه .

« مجمع الأحياء ـ ١٩١٦ »

***

أيتها المرأة ! كأنك قلت منذ هنيهة متباهية : أنا أجمل من الرجل . . نعم أنت أجمل من الرجل في عين الرجل . أما في عين أختك فأقبح رجل أجمل منك وأحب إليها ، ولو كنت تمثال الزهرة حسناً وحوراء الجنة شباباً ، فلا تظني

أنك كنت تتحلين بهذه الحلية لو لم يردها الرجل لك . أليس جمالك الأنثوي هو الثوب الذي أعجب الرجل أن يراه على جسدك قد ألبسك إياه فلبسته ؟ وهل أنت التي تحبين هذا الجمال لنفسك أو هو الذي يحبه لنفسه ؟ وهل كنت ترين سمته على وجهك ورواءه على أعضائك أو هو كان يراه فيختار منه ما يحلو له فيبقى عليك ويزهد فيما لا يلائمه فيزول منك ؟

أيتها المرأة ! لا تقفي بثوب العرس تقولين للرجل إن ثوبي أفخر من ثوبك . فانه هو الذي أهداه إليك ولو لم يعجبه لما أعجبك .

« مجمع الأحياء ـ ١٩١٦ »

***

الحق أن المرأة ليست بأسلم جانباً من الرجل كما تقول ، لأنها أميل منه إلى الشحناء والشجار . فربما اتفق مائة رجل على الخطب المتفاقم الجسيم ولم تتفق امرأتان على الهنة الواهنة الطفيفة . وقد أغناها عن أن تكون مجرمة بنفسها أنها تجرم بيد غيرها ، لأن أكثر الجرائم إنما يقع بسببها ولأجلها ، فهي تدرك ما تشاء من الجريمة دون أن تحتمل تبعتها .

« مجمع الأحياء ـ ١٩١٦ »

***

إن المرأة ما برحت أبعد عن أوضاع المدنية وفروضها من الرجل . . . إن المرأة كما يعلم الخبيرون تؤتمن على كنتها وقد لا تؤتمن على بنتها . لأنها لا تبالي من أي الرجال تلد بناتها ، ولكنها تبالي كل المبالاة أن تلد كنتها من غير ولدها . وذلك لأن الطبيعة لا تندبها لغير إنتاج الذرية سواء كان إنتاجها على حكم العرف أو على ضد حكمه .

« مجمع الأحياء ـ ١٩١٦ »

***

. . . ما يدريك ما عصر الاسترخاء والترف ؟ إنه عصر تزيغ فيه الأبصار والبصائر فتكل عما وراء القشور والظواهر . عصر تكون البهائم فيه أصدق حبا

من الناس لأن البهائم لا تلعب بحبها ولا تبتذل غرائزها . تهجع المشاعر في أمثال ذلك العصر فتعربد الحواس ، ويموت الحب الفطري فتمرح في رفاته ديدان الشهوات ، ويأخذ الناس من كل شيء بأيسره ، ويقنعون من كل مطلب بأقربه إلى الحس وأصغره ، فلا يكون الجمال إلا صبغة في البشرة تلحسها الألسنة حتى تزول ، ثم تمجها كما يمج البصاق الملوث من فرط التقزز والاحتقار . .

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

***

. . . أين هو الرجل الذي يفهم الحرية وهو يسكن إلى شريكة في الحياة مستعبدة ؟ وأين هو الرجل الذي ينعم بثمرة الحرية وهو وليد أم مقيدة؟ وأين هو الرجل الذي تحيا نفسه وقد مات فيها الجانب الذي خلقت المرأة لتحييه ؟

إنه العنقاء التي يتحدثون عنها في أساطير الأولين .

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

***

. . . في السويد كاتبة كبيرة تدعى « الن كي » تقترح أن يفرض التجنيد على الفتيات كما يفرض على الفتيان ، فتقضي كل فتاة تبلغ الثامنة عشرة مدة سنتين في الخدمة العمومية . وفيم تقضي هذه المدة ؟ لا في حمل السلاح طبعاً ، ولا في التدرب على اطلاق المدافع وحفر الخنادق ؟ ولا في شن الغارات وتدويخ المستعمرات ، وإنما تقضيها في التدرب على وظائف الأمومة بين مدارس الأطفال وملاجىء المرضى ومستشفيات الولادة ومعاهد الفنون الجميلة وما هو من هذا القبيل .

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

***

لكل عضو جماله الخاص به ، وجمال العيون والشفاه عام لا يجمل الجمال إلا به . ولو نظرنا إلى مزية في العيون والشفاه تجعل لها هذا الشأن في تقدير الجمال غير اتصالها بالاحساس ذلك الاتصال الذي ألمعنا إليه لما أبصرنا لها

مزية سواها . فلماذا لا نقول إن الأصل في حب الجمال هو امتحان قابليات الجسم بأظهر أجزائه للناظر ؟

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

* * *

إن الفرق بين الناس في الأهواء الجنسية لم ينجم عن فرق في الانخداع للوهم والتمرد على القيود . ولكنه نجم عن فرق في مناعة النفس ووثاقة الخلق وفي الصلاح للأبوة وبقاء الذرية ، بحيث يمكن أن يقال ـ بل يقال على التحقيق ـ إن الفضائل الجنسية الصحيحة كانت في أول نشأتها مزايا جسدية فزيولوجية قبل أن تكون مزايا أدبية أو دينية .

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

* * *

ليس أدل على اضمحلال أمة أو على قرب اضمحلالها من سهولة الشروط الفطرية التي تبنى عليها العلاقات بين الجنسين وشيوعها في جميع الناس على السواء . فالرجل الذي لا يتخير لعاطفته الجنسية يقول بأصدق لسان ينطق به ـ لأنه لسان كل ذرة من ذرات جسمه ـ إنه أب حقير لا خير للعالم في نسله ولا موجب للتمييز والتدقيق في ذريته .

« الفصول ـ ١٩٢٢ »

* * *

جمال المرأة حلة من نسج الطبيعة ـ ولكنه ـ بعد ـ حلة كسائر الحلل يلبسها أهلها كما يلبسها غير أهلها . فكم من مليحة تحس وأنت تنظر إليها أنك في حل من محو ملاحتها ، وانك إن نزعتها لم تكد تنزع عنها شيئاً من لحمها ودمها . . فهي طلاء أو هي برقع أو هي تزويق ، ولا يمنعك إلا الحياء أن تصيح بها : اذهبي فغيري هذه الملابس التي عليك . . أما إذا اتسق الجسم واعتدل هندامه ونضجت حلاوته واستوت أجزاؤه وانسكب عليها رواؤه فأي اختيار يبقى للجمال ؟ إنه لا مفر له من النزول هناك . إنه من نسج الجسم وله نصيب في كل موضع منه ، وليس هو بالخلعة التي تستره ويجاد بها عليه . إنه حلة لا

تنفصل عن لابسها لأنها لونه الذي تنضح به طبيعته ، ونوره الذي تشعه حياته ، كاحمرار الوردة واخضرار الشجرة ونضرة الفاكهة ووهج الجمرة المتقدة لا افتراق بينها ، ولا عذر لمن يجن بغير هذا الجمال .

« مطالعات في الكتب والحياة ـ ١٩٢٤ »

***

إن الزينة هي العناية بالظواهر ، والتمنع هو إخفاء ما في باطن النفس . . وكلاهما لازم للمرأة أو للطبيعة ، وكلاهما يستدعي الرياء والمحاولة ، ولا سيما إن كان في خلق ضعيف لا يقدر على اظهار كل ما يخالجه ولا يأمن أن يبوح بكل سره . . ولو أننا خيرنا بين امرأة صريحة أي تهجر الزينة وتطيع أول رغبة وبين امرأة مرائية أي تتحلى وتستعصم لما طال بنا التردد والاختيار ، ولعلمنا حينئذ أن فلسفة الطبيعة أصدق وأحكم من فلسفة علم الأخلاق . مطالعات ١٩٢٤ .

من أسوأ العلامات في الزمن الأخير أن يصغر قدر الرجولة في نظر المرأة حتى تأنف من الاقرار للرجل بحق الانفراد دونها بشأن من شؤون الحياة ، وحتى تدعي أنها تستطيع به أن تكون امرأة ورجلا في آن واحد ، وهو لا يستطيع أن يكون رجلا مستقلا بعمل من الأعمال .

« مطالعات ـ ١٩٢٤ »

***

إن آداب الأندية يوشك أن تبغي على آداب الكتابة ومباحث الفكر . فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما يغضب المرأة ولا يوافق هواها كما يحبس لسانه عن ذلك في أندية الأنس ومجالس السمر ، ويكتب حين يبحث في مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الأمين . ولكن الأندية شيء وأمانة الكتابة شيء آخر . لا بل يجب أن نذكر أصل آداب الأندية فلا ننسى أن الرجل إنما يخص المرأة بالزيادة في الحفاوة والملاطفة ويحرص على مجاملتها وتقديمها لسبب واحد ، وذلك أن الرجل لا يكلف المرأة ما يتكلفه هو ، وأنه يعفيها مما يطالب به أنداده وأكفاءه في القوة والواجب . . ولم ذاك . . ؟ لا

لأنهما سواء ، ولا لأنهما متكافئان ، ولكن لأنهما غير سواء في الواجبات والتكاليف ، وغير سواء في القوى الجسدية والنفسية .

« مطالعات - ١٩٢٤ »

***

لوحظ أن المرأة تعنى بسلامة الأعضاء - كل عضو على حدته - أكثر من عنايتها بجمال الأعضاء وحسن تناسبها في مجموع شكلها . فاذا نظرت إلى الرجل تفرست في كل جارحة من جوارحه ، وتأملت في تركيبها تأمل الطبيب الذي يفحص أجزاء الجسم ، لا تأمل الناقد الفني الذي يلتفت إلى عموم الشكل ثم إلى نسبة كل جزء منه إلى جملة أجزائه . ومعنى ذلك أن النزعة النفعية أغلب على مزاجها من النزعة الجمالية الفنية . وإنها تنظر إلى جسم الانسان نظرها إلى جهاز ركب لأغراض مفيدة لا إلى دمية معبودة أو تمثال وسيم من صنعة الفن الجميل .

« مطالعات - ١٩٢٤ »

***

حرية اختيار الزوج حق للمرأة إن شاءت تولته بنفسها وإن شاءت تركته لأوليائها . على أنني لا أغالي بهذا الحق مغالاة الذين يحسبونه أس السعادة كلها في الزواج .

. . . إنني أحب أن تحتفظ المرأة الشرقية « بأنوثتها » وألا تقتبس من المدنية الغربية إلا ما كان سلاحا لهذه الأنوثة في أداء وظيفتها وصون حقوقها .

« مراجعات في الأدب والفنون - ١٩٢٥ »

***

رأيت منذ أيام صورة الأم والابن للمصور الانجليزي دافيس - وهي صورة فرس مرضع ترأم مهرها الصغير - فما تمثلت حين رأيتها إلا الأمومة وحنانها وتضحيتها بغض النظر عن الأم هل هي امرأة أو فرس ، أو عن الولد هل هو طفل أو مهر . ولو وضع المصور في موضع الفرس والمهر أما آدمية وطفلها لما اختلف شعوري بها في جوهره . لأنني إنما رأيت الحنان الماثل في الصورة

وتجاوزت الشكل الظاهر إلى ما وراءه ، أو لعل صورة الفرس والمهر أبلغ في تمثيل الحنان ، لأننا نستغرب أن تحل هذه العاطفة في قلب حيوان أخرس ، فيكون عطفنا عليه ألذ وأعظم ، وتأملنا في عجائب تلك العاطفة داعياً إلى الامعان في الشعور بها والتعمق في استحضارها .

« مراجعات في الأدب والفنون ـ ١٩٢٥ »

***

المرأة ما خلقت فيما مضى ولن تخلق بعد اليوم قانوناً خلقياً ، أو نخوة أدبية تدين بها وتصبر عليها ، غير ذلك القانون الذي تتلقاه من الرجل ، وتلك النخوة التي تسري إليها من عقيدته . ولو ظهرت في الأرض نبية بمعزل من دعوة الرجال لما آمنت بها امرأة واحدة ، ولا وجدت لها في طبيعة الأنثى صدى يلبيها إذا دعت إلى التصديق والايمان . وإنما المرأة تؤمن بالرجل حين تؤمن بالنبي وبالاله .

« ساعات بين الكتب ـ ١٩٢٧ »

***

تلك هي « أما » كما يدعوها المقربون أو « لادي هاملتون » كما عرفها المجتمع ، أو هي المرأة الالهية . . كما كان ينعتها رومني المصور المفتون .

تعود صاحب لي كلما رأى صورها التي عندي أن يقول : طوبى لنلسون ! إني أريد أن أحسده ، فلا أدري أعلى هذه الحبيبة أحسده أم على تلك العظمة التي أصبح بها في الخالدين ؟ إن الرجل لسعيد ! ولكني لا أعلم أسعيد هو بالنصر في عالم الحرب ، أم سعيد بالنصر في عالم الغرام ، ولو أننا سألنا نلسون لأجاب وأغنانا عن التخمين . . فما كانت العظمة لنلسون ولا لغيره إلا تكاليف وفروضاً يشقى بها المكلفون ، وما كان المجد إلا صخباً لجوجاً لا نوم فيه ولا سكون ، وإن لم يخل من أمانيه وأحلامه . . فان كانت سعادة في المجد فهي سعادة قلب لا سعادة رؤوس وأكاليل . ولن يسعد قلب بغير عطف ، ولن يكمل عطف بغير حب جميل .

« ساعات بين الكتب ـ ١٩٢٧ »

إن الغيرة ثمرة الحب والأثرة والخوف ، وهذه العناصر الثلاثة تثمر في طبائع النساء ما ليست تثمره في طبائع الرجال . فهؤلاء وهؤلاء يغارون ولكن أحرى الفريقين بالزيادة من هو أحرى بالاشفاق وأخسر صفقة في الضياع .

« ساعات بين الكتب ـ ١٩٢٧ »

***

ما من رجل ، كبر أو صغر ، إلا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه في جميع نواحيه أو بعض نواحيه : إن كان محبوباً ففي الرجال من هو أحب ، وإن كان مهيباً ففي الرجال من هو أهيب ، وإن كان جميلا أو ثريا أو قويا ففي الرجال من هو أجمل وأثرى وأقوى . ولقد تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . فليس من الضروري أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصالح والأصلح . . وليس من الضروري إن هي فاضلت ـ أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ . فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم إلى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق . كما يذهب الانسان إلى غدائه فيلقاه مطعم يفغم أنفه ببعض روائحه فيميل إليه ، وقد يعافه في غير تلك الساعة .

« سارة ـ ١٩٣٨ »

***

« نزلت سارة وهي مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء . ومن دأب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الأعباء ، وهذا الذي يلوح للرجل في صورة البراءة فينخدع ، أو هذا الذي يسمونه أحياناً بعمق المرأة وقدرتها على إجادة السرياء واخفاء ما في الطوية ، وإنما هي في خفتها كالطفل الذي تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل . . ».

« سارة ـ ١٩٣٨ »

***

إن الرجل يعشق الأنثى في مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه إذا أوغل في عشقها

وانغمس فيه أحبها لأنها « المرأة » كلها أو المرأة التي تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهي تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة . وأي شعور هو بعيد من نفس الانسان في هذه الحالة ؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة ، وشعور الجمال ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من آراء مرهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها في النور والظلام . . لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هي مناط الخلق والتكوين ، وأداة التوليد والدوام والخلود ، وهي مظهر القوة التي بيديها كل شيء في الوجود وكل شيء في الانسان .

« سارة ـ ١٩٣٨ »

* * *

إن الرجل حين يحب المرأة فانما يريدها هي ولا يريد ما هو أجمل منها ، وإنما يحسها ويحس بها لأنها هي لا لأنها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء .

وكالنظارة التي تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشوقة للعاشق الذي عاشرها وألف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل « مخصوص » لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارة التي هي أبعد أمداً وأنفس زجاجاً تغني العين التي تنظر بما دونها ، ولا المرأة التي هي أجمل طلعة وأكرم سليقة تغني القلب عن المرأة التي تعوّد أن يخفق لها أو يخفق معها .

« سارة ـ ١٩٣٨ »

* * *

أوجه ما نقوله في تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية ان النبي عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحاً يختاره من يختاره وله مندوحة عنه ، وانما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة في بعض الأحوال لأنها خير من ضرورات . ولن ينكر هذا إلا متعنت ينكر الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان .

. . ولا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم

لها وللمجتمع من نبذها في معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم ، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حي يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هي الغرض الأكبر من كل زواج ، ولولاها لانتقض في المجتمع الانساني أساس كل زواج .

ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات .

ولا شك أن تسهيل الزواج ، وبخاصة في أوقات الحروب التي ينقص فيها الرجال ، أكرم للمجتمع الانساني وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التي لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق ، ولا ترفع المرأة في عصمة رجل أو في متناول كثير من الرجال .

« عبقرية محمد ـ ١٩٤٢ »

***

إنما العقوبة التي آثرها النبي ﷺ هي الهجر الطويل أو القصير ، بعد العظة والعتاب الجميل .

والهجر ـ ولا سيما الهجر في المضاجع ـ عقوبة نفسية بالغة ، وليست كما يتبادر إلى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة . فان فوات السرور والمتعة أياماً لا يؤلم المرأة هذا الايلام الذي يجعل الهجر في المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق .

. . فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الانسان في غروره وتشككه في صميم كيانه : في المزية التي يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه .

والمرأة تعلم أنها ضعيفة الى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت انها فاتنة له ، وانها غالبة بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها .

فليكن له ما يشاء من قوة ، فلها هي ما تشاء من سحر وفتنة . وعزاؤها الأكبر

عن ضعفها أن فتنتهـا لا تقـاوم ، وحسبهـا أنهـا « لا تقـاوم » بديلا من القـوة والضلاعة في الأجساد والعقول .

فاذا قاربت الرجل مضاجعة له ، وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة ، ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس بما تهجس به في صدرها ؟

أفوات سرور ؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبة ؟ كلا . بل يقـع في وقرهـا أن تشك في صميم أنوثتها ، وأن ترى الرجـل في أقـدر حالاتـه جديراً بهيبتهـا وإذعانها . وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة . فهو مالك امره إلى جانبها وهي إلى جانبه لا تملك شيئاً إلا أن تثوب إلى التسليم .

« عبقرية محمد ـ ١٩٤٢ »

***

الفارق فيما نرى ـ بين النبي والفاروق ـ هو الفارق بين انسان عظيم ورجل عظيم .

فالنبي لا يكون رجلا عظيما وكفى . بل لا بد ان يكون انساناً عظيماً ، فيه كل خصائص الانسانية الشاملة التي تعم الرجولة والأنوثة ، والأقوياء والضعفاء ، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بني آدم ، فيكون عارفا بها وإن لم يكن متصفاً بها ، قادراً على علاجها وإن لم يكن معرضاً لادوائها ، شاملا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه ، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد ، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة ، وأخبر بسعة آفاق الدنيا التي تتسع لكل شيء بين الأرض والسماء ، لأنه يملك مثلها أفاقا كآفاقها وهي آفاق الروح .

ومن الصفات الآدمية التي كثيراً ما يطيقها الانسان العظيم ويبرم بها الرجـل العظيم كل غرور صبياني يحيك بنفوس الناس . . وهـو ضروب ليست لهـا نهاية : غرور الشاعر بأماديحـه ، وغـرور الفنـان بصنعتـه ، وغـرور المـرأة بجمالها ، وغرور الشيخ بثرائه ، وغرور الأحمق بخيلائه ، وغرور الجاهـل بعلمه . . وفي كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس ، وكانت بينهما دروس تجري بها الحوادث تعليما وهدى كما

تجري عرضاً غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين .

« عبقرية محمد ـ ١٩٤٢ »

***

لا الرجل « زير النساء » ولا الرجل « العاشق » بالحجة في ذوق الجمال . لأن زير النساء موكل بحب الأنوثة في المرأة ينظر اليها قبل أن ينظر إلى جمالها ، ولأن العاشق موكل بحب « شخصية » معينة تستهويه كائناً ما كان حظها من الجمال ، ولهذا يحب المرأة ويؤثرها على سائر بنات جنسها ، وأمام عينيه منهن من هو أجمل منها وأوفر حظا من المحاسن والمغريات .

مثل الرجل « زير النساء » في هذا مثل الرجل الأكول يلتهم كل ما صادفه من المأكول ، فليس هو بالحجة في التمييز بين الأطعمة والطعوم .

ومثل الرجل العاشق في هذا مثل الرجل المولع بصنف واحد من المأكل ، فهو مصدوف عن كل ما عداه ولو كان فيه ما هو أفضل في التغذية وأمتع في اللذة .

فلا هذا ولا ذاك يسأل في صناعة الطهي ومتعة الطعام .

وإنما يسأل عنهما الرجل الصحيح الذي يملك ذوقه فلا يصرفه صارف عن تمييز الحسن السائغ حيث كان .

« شاعر الغزل ـ ١٩٤٣ »

***

في حياة السيدة عائشة ميزان صادق لحقوق المرأة في عصرها ، وقد يقاس عليه الميزان الصادق لحقوق المرأة في جميع العصور .

فالحياة البيتية وما يتصل بها من حياة التربية والتعليم ومعونة الرجل في واجباته العامة هي خير ما تتولاه المرأة من الأعمال .

والسياسة ـ ولا سيما السياسة في عصور الاضطراب ـ هي المجال الذي يحسن بها اجتنابه ولا يرجى لها التوفيق فيه ، وقد تؤدي فيه هنالك الخير إذا التزمت جانب المسالمة وكانت لها وسيلة إليها . أما جانب الرئاسة والاشراف

فلا طاقة لها به ، ولا يتأتى لها ان تتولاه إلا نقلت إليه شؤون البيت ومزجته بما يهمها من أواصر القرابة والمعيشة الزوجية .

فالسيدة عائشة كانت ربة بيتها وشريكة زوجها ، وكان زوجها العظيم يعينها في شؤونه ويكون في مهنة البيت ما دام فيه .

وكانت هي تعينه على شؤون الهداية والاصلاح كلما وسعتها المعونة فيها ، وقد لقنت الناس ما تلقنته منه فأحسنت التلقين .

وهذا في جملته هو قوام الحقوق بين الجنسين .

ولكنها على ذكائها وعلمها ، وعلى أنها في بيت الرئاسة نشأت ، وفي بيت الرئاسة عاشت ، وأنها تعودت أن يؤبه لها وتسمع كلمتها ـ قد تحولت بها طوارىء العصر إلى السياسة العامة فكانت فيها طوعا لأوامر البيت ودواعي المودة والنفور التي توحيها ولم تكن مثلا يقتدى به في توجيه الأمور العامة كما كانت مثلا للنساء كافة وهي ربة بيتها وشريكة زوجها .

« الصديقة بنت الصديق ـ ١٩٤٢ »

***

تعطيل الارادة أصيل في الهوى كله ، ولا سيما الهوى الذي نسميه بالعشق أو نسميه بالغرام .

لأن المرء يرتبط فيه بارادة شخص آخر فهو مقيد بهذا الارتباط الذي لا تتفق فيه الارادتان في جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بارادة النوع كله أو بالارادة القاهرة التي تتمثل في الغريزة النوعية وتتغلب كثيرا على إرادة العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيدان بالعرف الذي يفرضه المجتمع وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التي تتاح على وفاق الهوى أو لا تتاح .

فاذا تميز العشق بين سائر العلاقات الانسانية بخاصة من الخواص الظاهرة فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لارادة العاشق من جملة نواحيه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لارادته أن يحول بينه وبين فهم إرادته فلا يعلم ماذا يريد فضلا عن أن يعلمه ويعجز عنه ، فاذا به قد انقسم على نفسه كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين ، ولا غنيمة لأحد منهما في الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو في الحالتين من خسار .

وينتهي به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره لا سروراً به ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راض عن هذه العلاقة يلتذها ويتشهاها ويتذوق النعمة والهناءة فيها ، ولكنه يتعلق به لأنه عاجز عن فراقه ، مقيد بضروب من العادات والوساوس لا حيلة له فيها ولا قوة له عليها .

ومثله في ذلك مثل المدمن الذي يتعاطى السموم ولا يجهل بلواها ، ولكنه يقلع عنها فلا يقرّ له قرار ، فيمضي فيها وهو كاره لها يبحث ما استطاع عن سبيل النجاة .

« جميل بثينة ـ ١٩٤٤ »

***

العشق أصيل في طبيعة الانسان إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية ، بل هو أصيل في طبائع بعض الاحياء من الطير والوحش كما ظهر من تلازم بعض الأزواج واقتصار بعض الذكور على بعض الأناث ، بغير تبديل إلى أمد طويل .

عباس محمود العقاد

إبليس ٧

فاتحة خير

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير .

وهي كلمة رائقة معجبة ، تروع المسامع وتستحق في بعض الاذواق أن تقال ولو تسامح القائلون والسامعون في بعض الحقيقة طلباً لبلاغة المجاز .

ولكنها في الواقع هي الحقيقة في بساطتها الصادقة التي لا مجاز في لفظها ولا في معناها ، ولا تسامح في مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هي من قبيل الحقائق الرياضية التي تثبت بكل برهان ، وتقوم الشواهد عليها في كل مكان .

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل ان يعرف الشيطان بصفاته واعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته .

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الانسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع ادراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء .

كانت الدنيا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن بين أعمالها الحسان وأعمالها القباح من فارق الا أن هذا يسر وهذا يسوء ، والا أن هذا يؤمن وهذا يخاف . أما أن هذا جائز وهذا غير جائز في ميزان الاخلاق فلم يكن له مدلول في الكلام ، ولم يكن له ـ من باب أولى ـ مدلول في الذهن والوجدان .

وكانت القدرة هي كل شيء .

فلما عرف الانسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التي تجمل بالرب المعبود ، والقدرة التي لا تنسب اليه ولكنها تنسب الى ضده ونقيضه .

وهو الشيطان .

وكانت فاتحة خير لا شك فيه .

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح في التعبير .
وكانت للانسان عين يعرف بها الظلام ، لانها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التي كانت مطبقة عليه .

فتاريخ الانسان في أخلاقه الحية لا ينفصل من تاريخ الشيطان .

وأوله هذا التمييز بين الخير والشر .

ولكنه الاول في طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه .

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة اخرى ألزم من تلك الخطوة الاولى في تاريخ الاخلاق الحية .
وتلك هي معرفة الخير في الصميم .

فقد كان على الانسان ان يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة .

فليس الخير خلواً من الشر وكفى .

وليس الخير ابتعاداً من الشر وكفى .

وليس الخير عجزاً عن الشر وكفى .

وليس الخير مخالفة للشر وكفى .

كلا . بل الخير شيء قائم بذاته ، وليس قصاراه انه امتناع من شيء سواه .

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين .

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان انه سقط لانه أنف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة اجمعين .

وانما فضل آدم عليه لانه عرضة للخير والشر ، ولانه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور .

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لانهم بمنجاة من غوايته ، وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين .

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان في هذا العالم وعرفت معها فضيلة الانسان .

فانما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الانسان أمام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام .

وانما فضيلة الانسان أن يصنع خيراً وللشر عنده غواية وله في نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان .

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخاً للاخلاق الحية في وجدان آدم وبنيه .

*

وتمتحن الاخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة .

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لان يعرف بعد جهل ، ويدرك بعد قصور ، فليس ـ غير الانسان ـ مصداق لذلك المخلوق .

ليست الملائكة ولا الجان في صورتها الحية مخلوقات نامية في معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة الى الرشد الى غاية المدى المقدور لكل مخلوق .

ولكنها في صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التي لا تفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ، ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافي ، وجريان الماء ، وخفقان الهواء .

ولا كذلك سليل التراب . انه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وانه ليجهل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لان يأتي بالعجب في علمه وجهله فهو مسؤول عن هذا وذاك .

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون .

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين .

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم .

« قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » .

فليست القداسة أن تكون نوراً وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون ناراً وأنت نار .

وانما القداسة والفخار أن تكون نوراً وناراً وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفساد والعدوان .

وكلما ذكرت الاخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان في ثوب الحياة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية في المطاوعة والاعتصام ، وتلك هي الاخلاق الحية كما تعيش في اللحم والدم وفي القيم والمزايا . فأما الاخلاق في صفحات الورق وفي مصطلحات الباحثين فهي كلمات وحروف وأصداء .

ولم يوجد النوع البشري بصفاته وأخلاقه ليكتبها سطوراً على صفحات ، ويجمعها أطروحة في قاعة درس أو سفرا على الرف الى جانب أسفار.

ولكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ، ويعطيها الاسماء التي تدله على تلك الحقائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ، ويواجهها برجائه وخوفه ، وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الاسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة في القواميس ، بل يفهمها حباً وبغضاً ، وغبطة وندماً ، ورضواناً وسخطاً ، وحركة تنبض بها العروق ، وسراً يختلج في الاعماق .

وهكذا ينطبع الحي على صفاته وأخلاقه ، وهكذا تتعارف عليها الامم وهي تحيا وتعتلج بالحياة ،وهكذا تضطرب بين الاكوان التي لا تحصرها الاوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجيء العقول طارئاً عليها وضيفاً في

رحابها ، وقد مضى عليها في مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .

الشيطان !

أي مجموعة من الاسفار تؤدي للضمير ما تؤديه هذه الكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان الى الاعماق .

والى اليوم يكتب الباحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقون بها ألف « لوجي ولوجي » على غرار السيكولوجي والبيولوجي والميثولوجي وغيرها من اللواحق في الاواخر على اختلاف الصيغ واللغات .

الى اليوم يفرقون بين الصفات والاخلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بها في الحس ولا في الذهن ما بلغه المتكلمون بلغة الحياة ولغة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التي تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة الى آخر الزمان .

وقد سمعنا عن الصفات الالهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الانسانية ، والصفات البهيمية ، والصفات السبعية ، فمن لم يفهم هذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئاً من فوارق الاخلاق يشرحها له ألف عالم ويسجلها له ألف كتاب .

ولمن شاء أن يرفع هذه الكلمات ويضع في مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوي أو الفلسفي من قبيل الاخلاق المثالية والاخلاق الاجتماعية والاخلاق النفعية وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما أشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها الا أنها بطاقات معلقة على واجهات ، أو شواخص لانبض فيها ولا دم ولا حراك .

ولكنه لأول وهلة يسمع الصفات الالهية فيفهم انها أعلى الصفات ، ويحس أنه يرتفع بالاتجاه اليها والرجاء فيها الى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغاليق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ، ولا يكون قصاراه من معرفتها انها مادة في معجم ، أو عنوان على مذهب ، أو اشارة مرور الى حيث يسير أو لا يسير .

ولاول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنهـا الطيبـة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها في الوقت نفسه بالحنين اليها لسلامتهـا ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشر عليها واحتجاب أساليب الكيد والخـداع عنها .

ولأول وهلة يسمع الصفات الانسانية فيعرف منها ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الالهية والملكية ، ويعرف في الوقت نفسه ان الانسان قابل للطموح الى ما يعلو عليه والهبوط الى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء .

ولاول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم انه في موقف احتراس وحذر وان لم يخل من تطلع في أحيان ومن إعجاب في أحيان أخرى ، ولا يضطر الـى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع في موقعها عنده كأنها نقلت اليه الشيء نفسه محسوساً ملموساً معقولا مدروساً ، ولم تنقله منه باشارة أو عنوان .

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية أو الصفات السبعية ، فانها كذلك تنقل اليه أشياء وأحياء ولا تنقل اليه حروفاً وكلمات .

ان خالق الكون لم يرد باعطاء الناس حياتهم أن يعطيهم قاموساً أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففي وسعهم هم أن يعطوا أنفسهم هذه القواميس ، وقد أعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هي أكثر الاشياء اختلافاً بين قبيل وقبيل وبين أمة وأمة ، واذا هي برج بابل يمتد على كرة الارض ولا يزال أبداً في حاجة الى ترجمان .

ولو كانت هذه المدلولات في اللغات هي الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد ألف كلمة في كل لسان .

ولكن هذا النوع الانساني تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش في ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية كائناً ما كانت أصداؤها في عالم الحروف والرموز والاشارات والكلمات والطلاسم أو في « الهيروغليفية الكونية » على الاجمال .

ومن شاء فليجادل ان كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليعد بالانسان الى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحسه وتعلمه من كلمة الشيطان أو كلمة الملك أو كلمة الخطيئة أو كلمة العصيان ، وليضع في مكانها ما يقترحه في تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقسمة ، ولينظر ماذا صنع بالانسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد ، فانه قاتله وملقيه في مقبرة من قاموسه الجليل .

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية » الكونية التي هي الكلام وهي متكلموه وهي المحسون به وفاهموه .

وليقف خاشعاً مستعيذاً « بالشيطان » من الغرور .

وليرجع في أمان هذه « المعوذة » الى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الاخلاق الحية وتاريخ الانسانية الخالدة .

فاذا كان لا يدرك تاريخ الاخلاق الانسانية حقاً وصدقاً الا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى .

انه وجود أرسخ من وجود الانسان .

ومن لم يكن في وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحياة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والاسرار ، فكل أولئك له معناه الذي لا يدركه ولا يدريه .

وسنكتب فيما يلي تاريخ الشيطان لنستخرج منه تاريخ الاخلاق الانسانية كما تشخصت في ثنية الحياة ، ونركب عليها بعد ذلك ما يوافقها أو يلافقها من مصطلحات القاموس !

الفصل الاول

* قبل الشيطان
* انواع ودرجات في الحرام والمحظور
* انواع الشيطنة

قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الانسان تملأ العالم باشتات لا تحصى من الارواح والاطياف .

وكان من هذه الارواح والاطياف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على اناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ، ومنها ما يتلبس احياناً بالاجسام ويظهر لكل من لقيه في مأواه .

ولم يكن الانسان يقسم هذه الارواح الى ذات خير وذات شر . لانه لم يميز بين الخير والشر الا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم .

وانما كانت هذه الارواح تنقسم عنده الى أرواح مصادقة او ارواح معادية ، والى ارواح نافعة او ارواح ضارة ، والى ارواح سهلة او ارواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة او درجة الفائدة والأذى ، وأما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة في طريق الايمان بالارواح .

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد .

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب اناساً ولا يصيب آخرين ، وقد يأتي من عمل ولا يأتي من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعاً لذاك ، فليست هناك طبيعة تسوقه الى الشر في جميع الاحوال بل هناك احوال متعددة واعمال منوعة ، وشأن الارواح في ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من أعدائها ، او بين قوم من خاصته في القبيلة وقوم ينفر منهم وينفرون منه لاسباب عارضة او باقية لا ترجع الى اصالة في الطباع .

وقد يصح تشبيه عالم الارواح عنده بعالَم الغاب او عالم السباع والحيوان .

فالغاب فيها النمر والثعبان ، وفيها البلبل والعصفور ، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه في مصالحه ويشركه في مسكنه ، وقد يكون

عنده الكلب الانيس وفي الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفي الخلاء الحصان الجامح الذي لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسألة احوال وأحيان أو أحوال رياضية واستعصاء .

وهكذا كان عالم الارواح في الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، او عالم هوادة واستعصاء ، او عالم صداقة وعداوة ، فاما عالم الخير الاصيل او عالم الشر الاصيل فلا تتمثل له صورة في بديهة الانسان قبل انقسام الطبائع وتباين الاقيسة والموازين بين الاعمال والاخلاق .

ويدل على أصالة الايمان بالارواح في بديهة الانسان انها وجدت في كل سلالة بشرية من السلالات التي نشأت في القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض في مسائل الدنيا والدين ، او من السلالات التي وجدت في الامريكتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهي لم تتعلم تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها الى مصدر معروف في العالم القديم .

ووجدت هذه العقيدة على اكثرها في الجزر الاسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الامازون في امريكا الجنوبية ، او وجدت في افريقية الجنوبية او الشرقية التي يقال انها مهد الجنس البشري قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك انها تلقت افواج المهاجرين من الجنس القفقازي قبل فجر التاريخ .

والمهم في هذا الشيوع انه اصيل في البداهة الانسانية ، وانه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم ان يفسروا كل شيء بالدجل والخداع .

ويكاد الشبه بين الارواح في القارات المتباعدة ان يكون اقرب من الشبه بين الآدميين انفسهم في تلك القارات ، فالكائن الروحي في الجزر الاسترالية إشبه بالكائن الروحي في امريكا الجنوبية من الامريكيين الاصلاء والاستراليين الاصلاء ، وليس بين روح وروح في الاقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذي يعتري الالوان والاشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فانك قد تنقل الاسترالي من الجزر الى امريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما

يريبه من الغرباء ، ولكنك اذا نقلت روحاً من هناك الى هنا او من هنا الى هناك لم تجده على غرابة في عالم الارواح ، ولم تكن بينه وبين العالم الذي انتقل اليه فجوة من الجنس واللون واللغة ابعد من الفجوة التي بينه وبين سائر الارواح في وطنه الاصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها في علم المقارنة بين الاديان ، لانها قد تفضي بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين الاجناس والاقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لان مخلوقات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين اساطير الامم في الاقليم الواحد فضلا عن شتى الاقاليم .

وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبائل الفطرية التي وجدوها في القارات الخمس خلال رحلاتهم اليها منذ اوائل القرن الثامن عشر الذي نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا انها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الاولى قبل عشرات الالوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها في العصر الحاضر كان هذا التشابه حقاً أجدر شيء من الباحثين بالالتفات اليه ، لانه دليل على ان وحدة السليقة الدينية اقرب جداً من وحدة القريحة والخيال ، اذ ليست اساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الارواح والاطياف في الاديان والمعتقدات .

ان الدين اعمق في كيان الانسان من الخيال الذي يولد الاساطير ويخلق اشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الاصلاء من الافريقيين والامريكيين والاوروبيين والاستراليين ملحوظاً في تقارب الاوصاف بين الارواح والاطياف حيث لا يلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الادوات وآنية الفخار ، وهي المصنوعات التي تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد في كل عصر من العصور الحجرية او عصور المرعى او العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحي بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الارواح والاطياف .

وقد تخصص لكل اقليم من اقاليم القارات رحالون مستقلون في دراساتهم للاحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الاسترالية اناس غير الذين

يكتبون عن القارة الافريقية ، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم الى بعض في تسجيل المشاهدات واثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشابهة بين العقائد حين يرجعون الى المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الاصول .

ولهذه المشابهات يقرأ القارىء عن « ارواح » اقليم من الاقاليم فلا يضيره كثيراً ان يخطىء فيحسبها ارواح اقليم آخر ، لانها بمثابة النبات الذي يصح زرعه على طول السنة في جميع الارضين ، فيزرع في هذا الموسم او ذاك ، وفي هذه البقعة او تلك ، بغير اختلاف كبير في طريقة الفلاحة والحصاد .

يقول باريندر « Parrinder » في كتابه عن النحل التقليدية في افريقية : « ان الارواح يمكن ان تتخذ مساكنها في كل شيء من اشياء الطبيعة : على كل قمة وفي ظل كل شجرة خضراء ، وان التلال والصخور البارزة أحرى ان تكون مأوى للارواح القوية » .

الى أن يقول : « وفي الآجام المتشابكة العميقة تسكن الارواح والاطياف ذوات الخطر والاذى . . . وحيوانات الغاب ـ او سكان الارض ـ كثير منها حرام على هذه القبيلة او تلك . . . فاذا قتل احدها وجبت الترضية له او يظل في مطاردة القاتل طيفاً لا يفر منه » .

ويقول شارل واجلي « Wagley » في كتابه عن « بلدة الامازون » من امريكا الجنوبية : « ان بعض القردة تخاف في أعماق الغاب وتحسب قردة الجريبه «Guariba» آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الانسان . . . واشهر اطياف الغاب وارواحها الكاروبيرا التي تشبه انساناً قزماً ويقال ان اقدامها ملتفتة الى ورائها ، وهي تعيش في اعماق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة ، ويقال انها مغرمة بشراب الروم والتدخين . . . » .

ثم يقول : وطيف آخر من الاطياف الخطرة يدعى « ماتن تابريرا » يظهر في المدن ولا يظهر كالاطياف الاخرى في الغابات والانهار . . واصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الاوروبية .

ويتكلم مالنوسكي « Madinowsky » علامة الدراسات الانسانية عن الجزر الأسترالية فيروي قصة الروح التي تسمى عندهم « بلوما » وتذهب بعد مفارقة الجسد الى جزيرة اخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون ان الاشياء لها ارواح تنتقل منها الى حيث تسكن ارواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به في الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى « كوسى » يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ في ايذائهم ، وحيثما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك اطيافاً اخرى لها علاقة بارواح الموتى يتخيلونها دائماً في صورة العجائز القباح ، وقد يشيرون الى عجوز حية معروفة فيقولون عنها انها قد اصبحت واحدة من تلك الاطياف ذات العلاقة بالموتى ، وانها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ .

وافضل المراجع التي يعتمد عليها في فهم العقائد البدائية تلك الرحلات التي يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها في جميع اطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون اليها لدراسة علم الاناس او تطبيقه عليها .

ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمناً بين القبائل في افريقية الوسطى الطبيب المشهور « البيرت شويتزر » صاحب جائزة نوبل منذ خمس سنوات ، ويؤخذ من مذكراته ان اخوف المحظورات عندها هي التي ترتبط بأهم المراحل في حياة الانسان ، وهي الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الارواح بالأب وتلقنه في الرؤيا او الايحاء اسماء الاشياء التي ينبغي للوليد ان يتجنبها في حياته والا اصابه الاذى من الارواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التي تفرضها كل بيئة على حسبها . واشق ما عاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة اجساد الموتى وهو محتاج في مستشفاه على الدوام الى حمل هذه الاجساد ومواراتها .

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب في جواره ان المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على انسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحي من ابيه او كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعاً ولا يستثنى فيه احد منها ، ويقول الطبيب

إن بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتي شفاؤهم من الوهم الـذي غلـب عليهم بعد انذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الادوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهـم تخلصـوا من عقيدة بعيدة ورسخ في اخلادهم ان الروح الذي اطلقهم من عقـال المحظـور اقـوى من الروح الذي حظره عليهم ، فهو لا يستـطيع ان يتعقبهـم بالاذى وان خالفـوه جهرة ، لانهم دخلوا في حمـاية روح آخـر اقـوى واعظـم واخـرى بالمبـالاة والاتباع .

وقد دخلت هذه الارواح والمحظورات في حساب السياسة كما دخلت في حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التي اوفدتها الحكومة الـى افـريقية الشرقية لتحقيق اسباب الثورة فيها ان « دراسة النفسية » التـي تنطـوي عليهـا عبادات جماعة الماو ضرورية لاستقصاء اسبـاب السخـط وعوامـل الثـورة ، وعقب الاستاذ ماكس جلكمان « Gluckman » على هذا التقرير بفصل مجمل عن اصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها انها تؤمن باله عظيم خلق العالم ثم تنحى عنه ، وانه سمع من اناس في قبيلة البـاوروتس « Barotse » علـى نهـر الزمبيزي الاعلى ان الاله تخلى عن الارض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وافانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الاله الان من عمل يستطيعـه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهـم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد ان الاله نيامبي « Nyambe » اعلم وأدرى ، ويدعي زعماء القبيلة انهم ينتمون الى هذا الاله من ذريته التي ولدتها له بنته قبل احد عشر جيلا فملكت على القوم في مكانـه ، وهـذا سر من اسـرار الطاعـة للزعمـاء والثـورة علـى الاجانـب والمستعمرين .

*

ويرى جلكمان ان المراسم والشعائـر حلـت بين القبائـل الافـريقية محـل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام الكتابة في تلك القبائـل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها ، وكل حركة تتحركها القبيلة كلها او بعض افرادها طلباً للصيد او انتجاعاً للمرعى او زحفاً للغارة على عدوها تتطلب منها الزلفى الى بعض الارواح والحذر من بعض الارواح الاخرى ، وتلجئها الـى

اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة في أجدادها .

وكل ما يصيب الانسان فهو من كيد روح ، او دسيسة ساحر ، او من عالم « وراء الطبيعة » على الاجمال . فاذا وطىء فيل انساناً فقتله فالافريقي يفهم ان قوة الفيل اكبر من قوة الانسان ولهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا الانسان هو المقتول ولم يكن انساناً غيره ؟ أليس هناك سر يرجع الى تدبير ساحر او نقمة روح غاضب او مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ . وهكذا تلتقي الاسباب الطبيعية المعروفة بالاسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الانسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الاحوال .

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التي تلجىء الافريقي من ساحر الى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته ، فلا ملاذ عندهم من السحر الا الى سحر مثله او اشد منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها الا ان تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الارواح[1] .

*

وقد حاول الرحالون والباحثون في الاجناس البشرية ان يرجعوا بالاعتقاد في الارواح الى مصدر مفهوم ، فلم يتفقوا على مصدر واحد ، ولم يصلوا الى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة .

فمنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى الاطياف التي يراها الهمجي في منامه ، والى الاحلام التي يرى فيها انه انتقل الى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده في بيته ، فيخيل اليه ان الاطياف تتحرك في الظلام وتترك الاجساد اذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وان الذي يحدث في حالة النوم يحدث في حالة الموت فيسكن الجسد ويبلى ويتحرك الروح الذي فارقه بفراق الحياة .

ومنهم من يرجع بهذه العقيدة الى طبيعة الاشحياء اي الى الطبيعة التي تخيل

(١) من فصل في مجلة Listener اللندنية الصادر في ٢٩ ابريل سنة ١٩٥٤

الى الهمجي ان الاشياء ذات حياة مثله ، فيعاملها كما يعامل الاحياء ، ويرضى عنها او يغضب عليها كالطفل الذي يضرب الارض اذا صدمته حين يسقط عليها ، او يشعر بالراحة حين نضرب الارض امامه ونعاقبها بجريرة سقوطه عليها واصابته من صدمتها .

وتتمكن هذه العقيدة في خيال الهمجي مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز في تعبيراتها ، فاذا سمع ان الارض ولدت عيون الماء وان اباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها اسرة لها اب وام وابناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء او بالسخط والاعراض .

ومنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى عبادة الاسلاف بعد الموت ، وقد يحدث ان يسمى السلف باسم حيوان كالاسد او النمر او الثعلب او النسر او الصقر ، فيحسب ابناؤه مع طول الزمن انهم تحدروا من ذلك الحيوان ، ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم ان يحرموا قتله ، وان يتوقعوا الضرر والسقم اذا قتله احد منهم او من غيرهم ولم يأخذوا بثأره .

ويكاد علماء الاجناس والعادات البشرية ان يجمعوا على ايمان القبائل الفطرية باله واحد اكبر من هذه الارواح المتعددة وأخفى منها في ظواهر الطبيعة .

وقد تقدم من كلام جلكمان ان القبائل في افريقية الشرقية تؤمن بالاله نيامبي الذي ارتقى الى السماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وافانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الارجح من بقايا عبادة الاسلاف التي يختلط فيها التاريخ بالخرافة ، واصلها على هذا الظن متصل بوحدة القبائل في جدها الاعلى ، فهو ربها جميعاً حيثما اختلفت اربابها وتعددت الارواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الاب الشيخ الذي اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة .

ولم ينفرد جلكمان بقصة هذا الاله الواحد الذي تشترك فيه القبائل المختلفة في افريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعاً متفقون على ايمان القبائل الاسترالية برب فوق الارباب يسمى « نانا » او يسمى بأبي الجميع « All father » على مثال

نيامبي في القبائل الافريقية .

ويتفق الرحالون كذلك على ايمان الاقـزام الافـريقيين بربب فوق الاربـاب تشترك فيه القبائل وان تعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الاجناس قبيلة فطرية بلغت من ارتقاء الادراك ان تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلما ارتقت من فوضى العقيدة الى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام .

*

وليس الهمجي جباناً ، فان الجبـن بين الاخطـار المحدقـة به أضـر به من الشجاعـة ، وقـد عودتـه مواجهـة السبـاع والحياة أن يواجههـا علانية ، وأن يصارعها وينصب لها الاحابيل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعييه ان يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الارواح والاطياف امام خطر مستور لا يدري من اين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد ان يتغلب عليه لانه عنده في حكم الاب او الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة اولى من التصدي له بالاسلحة والفخاخ .

ولا بد من مواجهة تلك الارواح والاطياف بما يكف غضبهـا ويدفـع أذاهـا ويستجلب رضاها .

ولا بد مما ليس منه بد في النهاية ، فاما السكوت عنهـا فلا يطـاق ، واما الصراع معها فلا يجدي فيه البأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هي الحيلة التي انتهى اليها ولم يكن له بد منها بحال .

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التي لا ترضى بالايدي والهراوات او الحراب .

وظهرت البداهة الانسانية في هذا التخصص كما تظهر عند الاضطرار اليها في توزيع جمع الاعمال .

فلم يكن السحرة المتخصصون لرياضـة الارواح والاطياف اناسـاً ممتلئين بالحياة صالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وانجاب الاولاد ، بل كانوا

على نقيض ذلك امساخاً عزلتهم الحياة او انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها في مطالبها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع في النفوس اثراً واحداً من التوجس والتساؤل والريب فيما وراء الظواهر والمألوفات .

وقد شهد الدكتور شويتزر « Schweitzer » ترشيح بعض السحرة وقال في مذكراته الافريقية : « ان الدميم السيء لا مطمح له في الحصول على امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لا يشترون له امرأة لنفورهم منه ، ويكون ابوه قد مات فيمتلىء بالمرارة ويتحول الى السحر للانتقام من قومه » .

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت «Benedict » ان بعض قبائل كليفورنيا من الهنود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصابون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة في بعض نوباته ، وانهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم لا يقصرون الكهانة عليهن ، وقد يكون الرجل المختار متأنثاً بطبعه لا يصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة[١] .

ووصف الاب هنري كلوي « Callawey » برنامج اعداد الساحر لوظيفته فقال انه قد يبدو في اول الامر قوياً سليماً ولكنه يهزل شيئاً فشيئاً ، ويصبح في عرف القوم « ناعماً » ويعنون بذلك انه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ، ويصوم عن بعض الاطعمة ويتأذى ببعضها ، وتطرقه الارواح والاطياف في منامه ويهدده بعضها بالموت ، ويقول العرافون انه يوشك ان يملكه روح تتصرف به على حكم الارواح ، وفي هذه الحالة يصاب اهل القرية بالارق ويتساءلون عما اصابهم لان وصول الساحر الى منزلة « الانيانجا » اي الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر في المكان بسلام[٢] .

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر في مبدأ الامر ، فالكاهن الذي يقوم بمراسم العبادة ، هو الساحر الذي يدفع اذى الارواح والاطياف ويستجلب رضاها ويسخرها في المآرب التي يختارها ، ثم ينفصلان شيئاً فشيئاً فيصبح

---

(١) كتاب الوان من الثقافة « Patterns of Culture »

(٢) ديانات الامازولر « Religious Systems of the Amasulu »

عمل الكاهن غير عمل الساحر او يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونـه لكهانتـه في اغــراض معلومــة ويقصدونــه لسحــره في غير تلك الاغراض .

والغالب ان السحر يراد لمصلحة خاصة او لالحاق الضرر ببعض الاعـداء ويعمد فيه الساحر الى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاماً شامل النفـع في جميع الاحوال ، وتستخدم فيه ارواح منقطة للأذى والضرر تعـودت ان تتآمـر علـى النكاية والنقمة وان تستجيب لمن يؤدي لها الاجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والاعمال الخفية .

ويلاحظ ان الكاهن قد يكون رئيساً للقوم وكاهناً يؤمهم في الصلاة والعبادة في وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل الى هذه المكانة الا ان يكون السحر عملا مضافاً الى الكهانة او فرعاً من فروعها التي لا ترتقي الى مرتبة الصدارة .

ويلاحظ كذلك ان السحرة مشوهون او مصابون بالآفات ، وان ادوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير اهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود .

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قد يكون من اقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات .

ويسبق الى الظن أن السحر والكهانة كلها خداع في خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لان السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين اقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التي توهموا انها كانت نافعة لمن قبلهم وانها تنفعهم اليوم اذا احاطوا بعلمهـا وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه اذا قصر في بلوغ ما يطلبونـه منـه واجتهد في علاج ذلك القصور بتكرار التجربة او سؤال الاقدمين الذين سبقوه في الصناعة ، وهو بطبيعة عمله لا يستغني عن الخداع والتلبيس في معاملـة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعاً في كل شيء ولا يزال خادعاً مخدوعاً في جوهر السحر كله ، وهو الايمان بفعل الطلاسم وقوة الارواح .

وكلما انفرجت المسافة بين وظيفـة الـدين ووظيفـة السحـر ترقـى الانسـان

الفطري من فوضى الارواح والارباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنها ما يقصده للنفع كما يتصده جميع ابناء القبيلة ، ومنهـا ما يقصده ليتواطأ معه على الاجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير انفسهم للنكاية والعدوان .

ويحدث في هذا الطور من التمييز بين الارواح والاطياف ان تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها .

وفي هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتمييز بين عمل الاله وعمل الشيطان .

أنواع ودرجات
في الحرام والمحظور

تكاد المحرمات في القبائل البدائية ان تربي على المباحات والمحللات . لان المحرمات تشمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار . فهناك امور محرمة لانها عظيمة مبجلة ، وامور محرمة لانها نجسة او مشؤومة ، وأمور محرمة لان اتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وأمور محرمة لانها تحتقر وتعاف .

وعدد هذه المحرمات في جملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الانسان الفطري ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا في التحريم على وجه من الوجوه ، لانه لا يباح الا بصلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل احد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من أعمال الجماعة أو الفرد ، فان الخوف من الاقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها في حساب المحظورات .

وقد ترقى الانسان وترقت معه اللغة ولم تزل في تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة في الممنوعات ، فكلمة الحرمة في اللغة العربية تدل على الشيء العزيز العظيم الذي يصان ويحمى بالارواح والاموال ، وقد يشمل الحرام كل اثم يعاب او يعاف .

وكلمة المنيع او الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على الرذيلة التي يجب على المرء ان يمتنع عنها ولا يقترب منها .

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والاناث الذين ينصبون انفسهم للبغاء في حرم الربة « عشتروت » او السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة في كتب العهد القديم بكلمة المأبونين والزانيات ، وهي في الاصل من القديس أو المقدس ، ويقال عن الربة نفسها إنها كانت خليلة الارباب ولدت منهم سبعين الهاً « ايليم » .

وفي القبائل البدائية ثلاثة انواع من المحرمات المقدسة وهي « الطوطم » والوثن او التعويذة ، والتابو أو الجرام الممنوع .

فالطوطم « Totem » هو الحيوان الذي تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها انها تناسلت منه أو لانها ترمز به الى معبودها وأصل وجودها .

والوثن أو التعويذة ـ وهو الذي اصطلع علماء الاجناس على تسميته بالفتيش « Fetish » ـ شيء جامد مصنوع او طبيعي يحمل في أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة ما دام على شرعتها في المباحات والمحظورات ، وقد يكون الوثن صورة او حجراً او حصاة او قطعة من جذع شجرة او الفافاً من الشعر وعروق الشجر وما اليها ، يصنعها السحرة او يصنعها الكبار للصغار .

والمحظور التابي اقل درجة من الطواطم والاوثان ، لانه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراماً عند بعض الناس حلالا لغيرهم في البيئة الواحدة ، بل قد يكون مستحباً مطلوباً لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضروباً من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض الارواح المزعومة التي تكشف عن ارادتها قبل وضع الجنين ، فتخبر اباه في الرؤيا باسم « التابو » الممنوع على الوليد . فمن هذه المحظورات اكل بعض الطلح أو البذور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة أو بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات في شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم ان الوليد يولد ذكراً ثم يتحول الى انثى اذا خولفت نبوءة او علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعله القاتل الذي لا تجدي فيه النصيحة ولا الاقناع ، ففي ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبياً في مدرسة البعثة أنبأه رفاقه أنه أكل من إناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظوراً على الصبي بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبي يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج الى أن مات بعد ساعات .

وتحيطهذه التابوات كثيراً بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة في الذكور والاناث ، فيندر بين قبائل الارض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم احداً غير أمها أو لا

تكلمها الا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبي بعيداً من بيته ليغسل في العيون المقدسة من روائح الأنوثة التي لصقت به من مصاحبة أمه ، ويجري له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام ، ومنها في بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمناً أو يدخل الكوخ وهي مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الانفصال في موضع حمله حيث اختلط بجوف الانثى وهو جنين .

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر أنهم ينوطون نسبة الابن الى أبيه بالمراسم والشعائر ولا يعتقدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وأنثى يحقق الولادة والنسبة الى الآباء ، ففي بعض القبائل يفرض العرف على الرجل أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعاً اليه ، لانه هو الذي جرت بينه وبينها مراسم الزواج .

ولا يعجبن أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التي تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الابناء والآباء ، ففي عصرنا هذا من يعتقد ان الولد من نسل الشيطان اذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف أمريكا الجنوبية وشيوع الامراض الزهرية في العائدين منها ، فكان فحواها جميعاً أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات في اواخر القرن الخامس عشر أصدر الامبراطور مكسميليان منشوراً ندد فيه بالحضارة وأنذرهم بالتوبة أو تدوم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان[1] .

*

وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخين الذين يقولون عن الديانات ومحرماتها ومباحاتها إنها حيطة اجتماعية تهتدي اليها بديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الابرياء من عدوان المجرم والاجرام ، فكل هذه المحرمات انما ترجع الى شيء واحد وهو اغضاب رب أو روح وتخطي الحدود التي تمنعها الارباب او الارواح ، ولها كلها علاقة

(١) كتاب الشياطين والعقاقير والاطباء لمؤلفه هوارد هجارد .
« Devils, Drugs and Doctors », by Haggard

بعالم الخفايا والاسرار وما نسميه اليوم بعالم ما وراء المادة لانه لا ينحصر في المحسوسات المادية . وأما الجرائم وعقوباتها فهي أعمال مفهومة مقصودة ترجع الى الاسباب الطبيعية التي يحيط بها علم الانسان كما تحيط بها ارادته ، وهي تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام وأداء الغرامة والدية ، بل يستمد الثأر قوته أحياناً من عالم الروح ، كما يقال عن روح القتيل في قبائل الجاهلية العربية إنها لا تزال هائمة مقيدة بجانب القتيل تنادي العابرين بها : « اسقوني اسقوني » حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالري وتستريح ، فليست المحرمات الدينية هي التي تتوقف على مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هي التي تتوقف أحياناً على عالم الاسرار والارواح .

وقد ثبت من أطوار المحرمات في القبائل عامة أنها تتقدم مع تقدم الانسان في ثلاثة أدوار متشابهة .

فالطور الاول أن تترقى من الحدود المحلية الى حدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والارضين ، فبعد الرب الذي يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة في غابة أو بقعة في جهة من جهات الاقليم يترقى الانسان الى فهم الرب الذي يسيطر على السحب والانهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التي تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى ادراكه لقدرة الرب الذي يملك زمامها ويصلي له المصلون لاجرائها في مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذي يحذرون عقباه .

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتي بعده ، طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامةفيا يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن انما يتوسل الى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التي يحسنها دون غيره ، أما وهو ساحر فهو يسخر الارواح أو يعاملها على أساس التواطؤ والتعاون على العمل الكريه الذي ينفر منه المشتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضى واختيار .

وكلما اتضح التمييز بين العبادة والسحر اقترب الانسان من الطور الآخر الذي يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين .

ففي الحياة البدائية يظل الانسان رهيناً بمشيئة الارواح التي تنفع وتضر

وتنطوي على الصداقة أو على العداء ، وكلها في رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد أن يحاسبها عليه ، ولكنه كلما ترقى في التمييز بينها ملك الميزان الذي يزن به أعمالها وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرؤوسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على أعمالها ، وأحس في طويته أن يطيع بعضها ضرورة وغصباً ، ويطيع بعضها حباً واختياراً لانه أهل للطاعة والرجاء .

ومن هنا تصبح الارواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على السنن القويم أو منحرفة عن هذا السنن الى الخطة العوجاء التي ينكرها كبار الارباب .

ومتى أتيح للانسان مقياس يقيس به الارواح والارباب ، ويقيس به أعمالها وحقوقها ، فهو اذن أهل للمشيئة والتبعة ، وأهل للتمييز بين الخير والشر وبين سلطان الاله وسلطان الشيطان .

أنواع الشيطنة

ما هي أنواع الشيطنة في العالم ؟

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعياً ، بل ضرورياً ، اذا وضع في صيغة اخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة الى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا ايضاً نتبين أن فكرة الشيطان أعمق جداً مما يخطر للمتعجل الذي يحسب انه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق ، أو يحل كل مشكلة باحالتها الى جهل الاقدمين وضلالهم في الحس والتفكير .

فهناك صور للشيطنة بمقدار ما في الذهن البشري من فكرة عن الشر في هذا الكون : هل الشر قوة أصيلة ؟ هل هو قوة ايجابية عاملة ؟ هل هو قوة سلبية ؟ هل هو عدم الخير ؟ هل هو نقص الخير ؟ هل هو عقبة في طريق الخير ؟ هل هو عقبة تريد وتعمل ما تريد ؟ هل هو عقبة لا ارادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه الى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشري قد تمثلت في صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الاسباب الكثيرة التي تدعو المفكر الذي يحترم عقله ان يفهم الصور الدينية على حقيقتها ، وحقيقتها أنها لغة حية تصور الوجود الحقيقي تصويراً صادقاً على اسلوبها الذي يستحق الفهم والتعمق والنظر الى ما وراء الظواهر والالفاظ .

كان الشر ارواحاً ضارة متفرقة في اعتقاد الانسان على الفطرة الهمجية ، فلما أصبح مسألة كونية عامة تمثلت صورته في حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة في هذا المضمار .

كان الشر في تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير : كان في الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار .

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، واذا غاب الليل فهناك نهار .

كان للنور دولة وللظلام دولة ، وكان لهذه جنود ولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لان ينفرد بنفسه في معزل من القوة الاخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء .

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التي يصنعها ، وكل منها حسن في نظر نفسه ، محمود بمقياسه لا يبالي مقياس غيره ولا يتمناه .

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن الى حين ينتهي آخر الامر بهزيمة الظلام وغلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئاً يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولا يظهرون للابصار ، وانما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال .

وعظم التفاوت بين القوتين شيئاً فشيئاً حتى اصبحت قوة الشر كقوة الامير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئاً الى جانب سلطانه ولكنه لا يستطيع جميع الاشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه في كل شيء .

ومن إلهين متعادلين تحول الخير والشر الى إله كبير وإله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الاله الصغير وينهزم الاله الكبير ، وقد يؤول الامر بينهما الى معركة حاسمة أو يظل العراك بينهما سجالا الى أن تزول الارض والسماء .

ثم آمن الناس بإله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر الا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر في هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله .

وفي هذه الصورة ظهر الشيطان في ديانات الامم الكبرى ، ثم ظهر في الديانات الكتابية بمختلف الاسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والإفساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين . . . . كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الاعمال .

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، او تملي للنقص في عيوبه ، أو تقف في طريق الكمال عقبة تصد الساعين اليه ، او تزيف « العملة » الالهية فتجعل الزائف منها كالصحيح في رأي المضلل المخدوع .

ولكنها في جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجودة بأية حال ، وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه .

وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينتقصه ويستر محاسنه ويبدي عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ، ولكنه يعمل تابعاً ولا يعمل مستقلا في كون من الاكوان غير الكون الذي خلقه الله .

وفي هذه المراحل جميعاً يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى . فهو المتمرد أو هو « الضد » أو هو الواشي النمام أو هو الساعي بالفتنة والمغري بالفساد والموغر للصدور .

وما من اسم للشيطان بين هذه الاسماء الا وهو يحمل في دلالته معنى الافساد والمنع والتشويه ، فليست له قدرة على الخلق والانشاء الى جانب قدرة الله .

*

ولما تقررت المقاييس الالهية في الاخلاق والاعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعاً لها وبالنسبة اليها ، فكان الجديد فيها انها معالم شخصية ذات ملامح معلومة لا ترتسم اعتباطاً في الواقع او في الخيال .

وقد عالج الشراح الدينيون ان يلخصوا « الشيطنة » في صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحسد وذكروا الكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صفات لا تحسب من لوازم الشيطان الا بعد علم بوجود الاله المتصرف في المقادير والاكوان .

فالكبرياء افتئات على مقام الاله ، والعصيان خروج على شريعته ، والحسد انكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والكراهية صفة قد يتصف بها الابرار حيناً بعد حين اذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ،

ولكنها اذا كانت قوام الطبيعة كلها فهي صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الالهية في الصميم وهي الحب ولوازمه من البر والانعام . اما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء .

على ان الارواح الاولى في جاهلية الانسان قد تطورت في اتجاه آخر مع هذا الاتجاه في مجال الخير والشر وعالم النفس الانسانية بما يعرض له من صلاح وفساد .

ذلك الاتجاه الآخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والارضين .

فهنا أرواح من الجان الخفي لها عمل غير صلاح النفس الانسانية وفسادها ، ولها قدرة خاضعة لسلطان الاله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب اليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الانسان .

وليست قدرتها هذه لأنها تعلمت ما لم يتعلمه الانسان ، ولا لأنها ذات عقول اكبر من عقله واصلح منه للفهم والتفكير .

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الاسرار الذي تعيش فيه ، فهي تسخر القوى الطبيعية لانها تعيش بين اسرارها وتحسب منها أو في حكمها ، واذا فطنت للمعنى الدقيق الذي لم يفطن له الانسان فانما تأتي فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها الى العالم الذي يطرقه حس الانسان ولا يتسلل اليه عقله .

وهذه هي شياطين الفنون والصناعات ، تبني الصروح وترفع الصخور وتنهض بالأثقال التي تعيا بها كواهل الانسان وتنوء تحتها ادواته وصناعاته ، وتدخل في ثنايا الخفاء فتلهم الشاعر ما يدق عن سائر بني آدم من غير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وامثالهم من اصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لانهم يخاطبون الجانّ ويفقهون عنها ويلحنون منها اسرار لغاها واشارات وحيها .

وتلك هي انواع الشيطنة من جانبيها في اتجاه الضمير وفي اتجاه الذهن والقريحة .

في اتجاه الضمير ترتبط « الشيطنة » بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعي الانسان نحو الكمال والرشاد .

وفي اتجاه الذهن والقريحة ترتبط « الشيطنة » بالاسرار والبواطـن وبالوحـي الخفي وغرائب العبارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل واشارة .

وسيكون لكل نوع من هذه الانواع نصيبه فيما يلي من الصفحات .

* أسماء الشيطان الاكبر
* الشيطان في الحضارة المصرية
* الشيطان في الحضارة الهندية
* الشيطان بين النهرين
* الشيطان في حضارة اليونان

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج أن يقول ان الكلمة تفعل الاعـاجيب ، وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان ، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها ، ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما « تعمقها » الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذي لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن في البداهة الانسانية فعله فلا تبـدو هذه النقلـة كأنهـا الطفـرة المنقطعـة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية في أعلى الدرجات .

*

ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد في تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذي استخدمه علماء العصر الاخير في مراجعة العقائد وضـم الأشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق أو جليل .

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت الى فارق بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه في العبـادة ، وربما كان الساحر والامام شخصاً واحداً ولكنه يشعر من نفسـه بالفـارق بين حالته وهو يذهب اليه طلباً للسحر وحالته وهو يذهب اليه طلباً للصلاة .

فحيثما ذهب اليه يطلب سحراً فهو يحس من نفسه أنه يذهـب اليه خفية ، ويستر عنده ما يطلبه ، ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ، ويعلن ما يفعله وما يرجوه ، ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام .

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقاً أصبح السحر عمـلا من أعمـال الظلام ، وان اختلف الاعوان عليه بين الارواح الخبيثة والارواح الطيبة ، أو بين الارواح التي يحكمها الشيطان والارواح التي لا حكم له عليها ، ولا يرجع اليه في تسخيرها .

ومع الزمن ظهر التخصص في صناعة السحر كما يظهر في كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتخالفات ، فانقسـم السحـر الـى أبيض وأسود ، والى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لا يقدرون على صناعتهم التي لا شك فيها ،

أسماء الشيطان الاكبر

تمثلت قوة الشر « العالمية » في شخصيات مرسومة الملامح معروفة الاسماء ، اشتهرت بها في كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التي سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هذه الشخصيات بملامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التي لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت في الاعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لأسماء الشيطان الاكبر التي بقيت الى اليوم لورودها في الديانات الكتابية ، ولأنها قد اصبحت ذات مدلول لغوي الى جانب مدلولها الديني ، فان حضور هذه الاسماء في الذهن يبرز معالم الطريق الى الوجهة التي انتهت اليها سوابق التاريخ ومقدراته ، منذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الاكبر في الحضارات الغابرة ، الى ان ظهرت شخصيات هذا لشيطان في كل ديانة من الديانات الكتابية التي اسلفنا ان اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية الى جانب دلالته الدينية .

واسم « الشيطان » بالألف واللام هو أشهر هذه الاسماء ، لانه ورد في كتب الديانات الثلاث ، ودخل في تعبيرات اللغات الاوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطاني ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوي على الخبث والبراعة وحب الأذى والتمتع بالايذاء ، كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه .

والرأي الغالب ان كلمة « الشيطان » هذه عبرّية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية انها لغة اليهود وان ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية وللاسلام ؛ ولكنه ظن يصدق في حالة واحدة : وهي أن يكون اليهود أصلاء في الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة اليه ،

الا انها حالة لم تثبت . وقد يكون الثابت خلافهـا ونقيضهـا . فان اليهـود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم الى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الامم السامية غير اليهود .

والارجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها في اللغة البابلية ، لان اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أي احتمال وعلى كل تقدير .

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن . وفي هذه المواد معاني البعـد والضـلال والتلهب والاحتراق ، وهي تستوعب أصول المعاني التي تفهم من كلمة الشيطان جميعها .

فالشطط من الغلو الذي يدخل في أخص عناصر « الشيطنة » ، والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ في مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان .

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشاطه بمعنى أهلكه وأتلفه ، وانطلق شوطاً أي ابتعد واندفع في مجراه ، وشطن أي ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال .

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبير بالشيطان ، ويقال في بعض التفسيرات ان هذا المعنى هو المقصود من « طلعها كأنه رؤوس الشياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لآدم في صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه السلام - وهو عربي باتفاق المؤرخين - أن الشيطان كان معروفاً بين العرب من ذلك العهد الذي كان سابقاً لعهد خروج بني اسرائيل من مصر ، ويؤخـذ من تاريخ الادب العربي في الجاهلية ان العرب قد عرفوا الشيطان في أدواره الفنية والادبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه في موضعه من المأثورات العبرية .

وأشهر أسماء الشيطان الاكبر في اللغة العربية هو اسم « ابليس » الذي يختلف اللغويون في أصله كما يختلفون في نسبة كلمة شيطان الى احدى اللغات السامية .

والمتكلم العربي يفهم من وصف انسان من الناس بأنه « ابليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهي دالة في كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنـة والدهاء والسعي بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعاراً من صفات إبليس في العقيدة الاسلامية .

ويرى بعض الغربيين ان الكلمة في أصلها يونانية من كلمة ديابلوس « Diabolos » التي تفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقيعة ، وأصلها في اليونانية من ديا « Dia » بمعنى أثناء ، وبالين « Ballein » بمعنى يقذف أو يلقي ، ومعنى الكلمتين معاً قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى معنى الوقيعة .

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين ان كلمة ديفل « Devil » أي الشيطان في اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر « Do-evil » اي من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « ايفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفة الشيطان من الصفة التي توحي بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف .

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التي تستفيدها من مادة « الابلاس » أي فقد الرجاء . فان ضياع الأمل ألزم صفات ابليس على ألسنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذي يضرب بأمل ابليس في الجنة مرادفاً لمعنى الامل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة ابليس وكلمة الشيطان في ملامح الشخصية ، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء ، وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس .

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية في صيغة النعت وقلما يستخدمونها في صيغة العلم . فاذا قالوا عن شيء انه « ديابولي » أو ابليسي فالمفهوم منه انه عمل من أعمال التمرد والجبروت لا يلزم انه سيء كل السوء وانما يلزم انه خلا من الصفات الالهية أو الصفات « الرحمانية » على الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التي تدمر الظلم وتنسف معالم الطغيان ، فهي من الجبروت بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الاعمال « الرحمانية » في الرفق والرضوان .

*

ومن أسماء الشيطان التي دخلت في الدلالات اللغوية اسم لوسيفر « Lucifer » أو حامل النور ، وهو في أصله اللاتيني اسم الزهرة حين تكون « كوكب

صباح » . ولم تكن له من مبدأ الامر دلالة سيئة ولكنه جاء في كلام النبي أشعيا في معرض التبكيت لملك بابل الذي سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » ان المقصود هو الزهرة وانه كناية عن الخيلاء التي تقود صاحبها الى السقوط . على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح انه تحدث عن نفسه فقال : « أنا كوكب الصبح المنير » .

واذا وصف انسان اليوم بأنه « لوسيفر » فالمفهوم من هذا الوصف انه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرثاء الذي يصاحب المجد المنهار .

ويذكر الاوروبيون بعلزبوب وبعلزبول في مقام المتهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعلزبوب انه اله معبود في عقرون ، يقال عنه انه رب الطب وانه يشفي المرضى لانه سيد الشياطين . وكانت الامراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصرع والهزال تنسب الى تلبس الشيطان بجسم المريض .

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحوله العبريون الى بعل زبول أي رب الزبالة سخرية منه وتحقيراً لأمره ودعواه ، لانهم كانوا ينكرون عبادة البعل ويدعون الى عبادة « يهوا » أو الايل . وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح في شفاء المرضى انه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول .

والدلالة اللغوية التي يفيدها وصف « بعلزبول » في أساليب العصر الحاضر هي الاقرار بالقدرة على قمع الشر لانها مستمدة من الشر نفسه . فهي الشيطنة التي تقمع الشياطين لزيادتها عليها في الشيطنة ، لا لانها تصلح أو تبتغي الاصلاح ، وهي الى ذلك لا ترتفع في قدرتها عن قدر الزبالة والذباب .

*

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفليس ، ويقال انها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مي » بمعنى لا ، و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى يحب . ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهي مستمدة من السحر البابلي الذي سرى الى الغرب على أيدي اليهود واليونان ، وتمثل روحاً من ارواح النحس التي تتسلط على بعض الكواكب

ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء .

وشيطنة مفستوفليس « ذهنية » موسومة بعيوب الذهن في أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شيء بالحيلة والمكر والدهان ، فهو ذهن يصنع الشر لانه لا يبالي الشر والخير على السواء ،واذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما انه يفعل الشر ولا يلوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل في الصلاح والفضيلة لانه يثبت بذلك فلسفة السخرية وسخافة المثل الاعلى ، ويدفع عن نفسه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين .

وقد كان مفستوفليس في القرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخذونه مثلا للعلماء الكفار الذين غرتهم المعرفة الدنيوية فانصرفوا اليها وشغلوا بها عن معارف الدين .

ويتردد من حين الى حين اسم اله الخراب أو اله القفار « عزازيل » .

وهو اسم ورد في العهد القديم واختلف الشراح في نسبته الى أصله ، ويرى بعضهم انه من مادة الازالة العربية ، ويقول آخرون انه كان رئيس الملائكة الذين هبطوا الى الارض فأعجبتهم « بنات الناس » وتزوجوا منهن . ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء . ويقال أيضاً إن ابليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء .

وقد كان من عادة اليهود أن يقترعوا على ضحيتين تذبح احداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا الى عزازيل رب الارض الخراب ، وشيطنة اليوم في لغة المجاز مرادفة لمعنى العظمة التي تحتفظ بحق التضحية لها وحمل القرابين اليها ، ولو كانت تساق الى عرش يستوي على مملكة الخراب .

وليس بين أسماء الشيطان الاكبر التي دخلت في مدلولات اللغة ما هو أشهر ولا أدل من هذه الاسماء : الشيطان وابليس ولوسيفر وبعلزبول ومفستوفليس وعزازيل ، فهي اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معاني الشيطنة كل ما نستقصيه فيما يلي متفرقاً عن تواريخ الامم والديانات حول « قوة الشر الكبرى » او قوة الشر العالمية ، في موقفها امام عوامل الخير والكمال .

الشيطان
في الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التي تمثلت فيها قوة الشر في صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضاة مصر القديمة .

فمن أقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التي تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الابدية في العالم الآخر . ولم يكن العالم الآخر عندهم مؤجلا أو منتظراً في المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوي ، ولكنه كان امتداداً للعالم الذي هم فيه وهو الديار المصرية ، وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالماً قائماً بعدها ، وانما كانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين في كل وقت ، احدهما ظاهر يسكنه أحياؤهم والآخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب في الارض فانما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الاولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والانصاف ، وتأتي الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الارض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها في ظل حكومة كحكومتها ، او هي في ظل حاكم خالد كان فعلا في يوم من الايام حاكم الارض المصرية اثناء حياته الفانية .

وفي كل أمة من الامم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن نقمة الاله الاكبر على الجنس البشري وندمه على خلقهم وتفكيره في ابادتهم عقاباً لهم على ذنوبهم ، وتختلف هذه الذنوب باختلاف الامم والكهانات ، فهي تارة مسألة تقصير في الضحايا ، وتارة مسألة غيرة « الهية » من المعرفة البشرية ، وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات الى غير ذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب في جميع الاساطير الاولى .

أما هذه القصة في الديانة المصرية فهي قصة حاكم يغضب على المحكومين لانهم

ثاروا عليه وهموا بخلعه لانهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة على ولاية الامور .

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة في هيكل سيتي الاول الذي بني حوالي سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وخلاصتها ان الاله الاكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم في أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأي على ابادة العصاة ، وأرسل الاله الاكبر عينه عليهم فألفاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنوده فأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الارض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هنا وهناك من زبانيته ، فحزن « رع » لانه أحس حقاً بالعجز عن ابادة العصاة أجمعين وطفق بعض الارباب يواسونه ويقولون له : ان مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه .

وتتم القصة على صورة أقرب الى الرفق والمسامحة فيقال في ختامها ان « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والاقامة في السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا اليه فلم يعدل الاله الاكبر عن نيته ولكنه أمر اله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وأن يهدي بها الى السلامة من هو أهل للهداية .

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف في الاساطير الاولى ، فأشدها وأصرمها هذه القصة التي نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ في بطش الارباب ومصير العصاة ، وأقربها الى الرفق تلك الروايات التي تقول ان الارباب راجعوا الاله الاكبر ، وراح بعضهم يمزج الجعة بالاصباغ الحمراء ليحكي بها لون الدم ويزعم للارباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفي للزجر والعقاب .

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر أو قوة الاله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شيء في مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشي والاضافات التي تلصق بها من كل حقبة مرت بها في طريقها البعيد .

ففي صورة اله الشر بقية من عبادة الاسلاف ، وبقية من امتزاج السحر بالعبادة ، وبقية من عبادة الشمس ، وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر

العليا ، وفيها مع ذلك اثارات تدل على انها في جملتها معلومات تاريخية واقعة عرض لها التشويه ، وانطوت في عداد المجهولات التي يستدل عليها بالتخمين والترجيح .

ومهما يكن من خلاف في العقائد المصرية العريقة ، فالقاعدة المطردة في تمحيص لبابها انها مشتملة ولا بد على شيء يتعلق بكيان الاسرة ، وشيء يتعلق بكيان الدولة ، وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعي ، أو على ما نسميه اليوم بالنظام .

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الاخ الشرير والحاكم المغتصب والمفسد الذي يعيث في الارض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هي صورة الاله « ست » اله الظلام في عقيدة الشعب المصري على الاقل ، لان عقائد الكهنة كانت تخالف العقائد الشعبية في تفصيلاتها ان لم تخالفها أحياناً في الجملة والتفصيل .

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معدوداً من آلهة الحق والاستقامة ، وكان الاله الموسوم بالشر هو « أبيب » الذي كانوا يرسمونه في صورة حية ملتوية تحمل في كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال اله الشمس « رع » في حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء الى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الى الشروق ، وقد خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الالهين اله الشمس واله الليل ، أو اله النور واله الظلام .

وربما كانت القضية كلها في أوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقي لكل منهما حزب يعظمه وينتصر له ، حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة فتضاءل أنصار الفريق المغلوب ، وشاعت عنه أنباء الشر والتهمة وانتهى بتمثيله في صورة « أبيب » اله الظلام وتمثيل أخيه في صورة « رع » اله النور .

ولا يبعد أن يكون في الامر خيانة زوجية أو شبهة من قبيلها ، لأن أسطورة أوزيريس تروي أن الاله « رع » فاجأ الملكة « نوت » زوجته وهي في عناق « سب » فلعنها ولعن ذريتها وأقسم لا تلدن في يوم من أيام السنة ، فلجأت الى الساحر الاكبر « توت » الذي كان مشهوراً بعلم السماء وتسخير الارواح العلوية والسفلية فاخترع أيام النسيء الخمسة لتضاف الى السنة ، واستطاعت نوت أن

تلد ولديها التوأمين أوزيريس وست في اليوم الثالث من هذه الايام ، وهي غير محسوبة من أيام السنة التي يطلعها « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفي احدهما ـ أو كليهما ـ طبيعة الظلمة أو طبيعة النور المختلس بغير علم من اله النور .

أما الرواية التي استقرت عليها قصة أوزيريس فهي أن الاخوين تنافسا ، فخدع « ست » أخاه وصنع له صندوقاً أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه في النيل ، فجمعتها أيزيس ـ زوجة أوزيريس ـ بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس في حالة الغروب .

وهناك رواية أخرى لعلها هي الأرجح والاقدم في التاريخ ، وخلاصتها أن « ست » لم يقتل اوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك في حياته وبعد حياته ، ولم يكن للاله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب في مكان « كوم امبو » اليوم حيث كان معبد التمساح .

ومما يرجح أن القضية في أوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك ان اسم « ست » محي من الهياكل بعد زمن ، وأن أتباعه لاذوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم في عاصمة المملكة الشمالية ، وان ملوك الرعاة أعادوا لـ « ست » كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلا في مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك .

وقد استعيرت صفات « ست » من صفات أوزيريس على التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صفات أوزيريس « أنه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الارباب والناس وإله الآلهة وملك الملوك ، وسيد العالم الذي لا يفنى سلطانه » .

أما صفات « ست » فهي نقيض الخلود والسيادة على الارباب والناس ، فلا سيادة له على غير الارواح الخبيثة والاحياء الدنيا ، ومن ثم يصورونه برأس حيوان مجهول لا يراد به تمثيل حيوان معين ، ولكنه يمثل الحيوانية في صورتها المبهمة ، ويجعلون له أذنين منتفضتين كناية عن الاسراع الى استطلاع الشر ، وذنباً شائلاً كناية عن الحران والاشر ، ويعودون عليه باللائمة كلما أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لانهم شخصوا فيه عوامل التمرد

والانتقاض ، فربما كان هذا من أسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عوناً لهم وخصماً للسلطان الزائل الذي أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا الى عباده في الجنوب تمهيداً لضم الاقاليم جميعاً في مصر العليا الى دولتهم التي استقرت بمصر السفلى زمناً وتوقفت عندها جهودهم قبل اجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال .

ومن اصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم في أقدم المأثورات المصرية ، أن الاساطير العريقة في القدم تروي لنا من أخبار خصومة ست وأوزيريس ، أن « ست » اتهم أخاه بالجور عليه ، فوكلت الارباب قضيتهما الى أمينها الخاص الذي يعرف أسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمن على قضاياها ـ وهو الاله توت ـ فتبين له صدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مديناً بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصري في الزمن القديم يتقرب الى اله الحكمة ، عسى أن يتولى الدفاع عنه بعد الموت ، وينصفه في قضيته كما أنصف أوزيريس من أخيه المفتري عليه .

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية في عهود الازمات التي تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة . فقد كان « ست » يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفة لا يستطاع دفعها ، ومن هذه الآفات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط وأوبئة المرض وسائر الامراض التي كانت تنسب من قديم الزمن الى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة أيضاً في بقاء السحر الخبيث لانه كان على علم واسع بفنونه ولم يكن في وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله وأسراره ، ولهذا كثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها ما بقي الى اليوم في صور الجعل والحشرات والاساور والقلائد التي لا تصنع للزينة ولكنها تقرن بالادوية والعقاقير طلباً للشفاء ، ويقول الاطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر إن لدواء هو الذي يشفي ويبرىء من المرض ولكن التمائم والتعاويذ هي التي تمنع « العكوس » من فعل أرواح الشر وأطياف الظلام .

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون الى السحر لمغالبة الارواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثاني بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيماً منه لقدر السحر ، ولكنه فعله ايماناً بضرورة اختيار

الترياق من جنس المرض ، ولكل شيء آفة من جنسه ، كما قيل من قبل ويقال في كل زمان .

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الانقاض والمحفورات ، وكلها تروي أعمال السحرة في مجازاة الاشرار ، كقصة الساحر « أبانير » أي فالق الصخر الذي استخدم سحره في الاقتصاص من عشيق زوجته ، فصنع على يديه تمساحاً من الشمع أرسله في البركة التي يغتسل فيها العشيق فالتهمه ، وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كي تحدث في ملكه بعلمه واقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصاً من المسيئين اليه والى الفضيلة فهو من قبيل « خفة اليد » التي يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة ، كما فعل الساحر « خاتشا منخ » حين سقط الخاتم من أصبع احدى الجواري المصاحبات للملك « سنفرو » في زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن أرض البركة حيث استقر الزورق الى جانب الخاتم المفقود ، ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويداً رويداً حتى استوى على البركة كما كان .

*

يقول صاحب كتاب صناعات السحر في مصر القديمة :

« ان السحرة المصريين كانوا على علم تام بلزوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب ، وفي اعتقادهم على الدوام ان الالهة انما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الايمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة »[1]

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الاسرار الى أقسام ودرجات ، فمنها العلم الذي يستعان فيه بقدرة اله الخير على الشر وجنوده ، وقوامه الصلوات والرياضات الروحية .

ومنها العلم الذي يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار .

ومنها السحر الخبيث للاغراض الخبيثة ، ولا يليق بالكهان الابرار أن يشتغلوا

---

(١) « The Occult Arts of Ancient Egypt » by Bernard Bromage

به وان وجب عليهم أن يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه .

ويمكن أن يقال على الجملة إن الشر في العالم كله انما كان في عرف الحضارة المصرية « جريمة اجتماعية وطنية » غير مشروعة ، ولم يكن عنصراً اصيلا في تركيب الدنيا او تركيب الانسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيدة في تفكيرهم الديني أن اخناتون استغنى عن الجحيم ، وأنكر دعوى أوزيريس في السيطرة على عالم العقاب بعد الموت .

ولا نظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى في علوم الآثار أو في علم المقابلة بين الاديان ، فان الذي عرف منه الى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التي كانت تلوح للنظرة الاولى ضرباً من الخيال أو اللعب بالجناس ، ولا نعني تسويغ القول بها أنها ثابتة أو انها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعني انها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يزال من يرفضها محتاجاً الى سند وثيق .

فالمؤرخ بلوتارك يذكر في كتابه « ايزيس وأوزيريس » ان « ست » كان يلقب « بيبون » ، وان هذا اللقب معناه العقبة المعترضة في طريق يفضي الى الخير لتتحول به الى الشر ، ويقول في الفصل الثامن والعشرين إن الاساطير تروي أن اليهود هم أبناء « ست » من أتان ، ويعلق المؤرخ « اوليفيه بور جارد » على ذلك في كتابه عن الارباب المصرية فيقول إن هذه الاسطورة أصل الخرافة التي شاعت في تقديس اليهود في هيكلهم لرأس حمار[1] . . ويقول غيره بين الجد والهزل ان شمشون حاربهم من اجل ذلك بفك حمار ، وانهم لهذا يتبركون بالمخلص الذي يأتي في آخر الزمان على حمار ابن أتان .

وقد تكرر القول بأن كلمة « ست » و « ستان » أو الشيطان العبرية من اصل واحد ، ولا نزاع في اقتباس اليونان والعبريين من المصريين في تصوير « الشخصيات » العلوية والسفلية ، فليس من الاناة ان نجزم ببطلان التشابه في اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للاله الفرعوني كما تقدم ، وليس من الاناة أن نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول اسم الشيطان « Diabolos » باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض

---

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الارباب المصرية .
« Les Divinités Egyptiennes » par Beauregard

والدخول بين شيئين للتعويق والافساد ، وقديماً شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الآلهة المصرية بين بلاد اليونان في آسيا الصغرى وبين الاثيوبيين واليمانيين في الجنوب ، وقال ديودور الصقلي انه رأى في « نيسا » من بلاد العرب عموداً للاله أوزيريس وشيئاً من قصته ملخصاً على ذلك العمود .

وقد ختم الاستاذ بورجارد كتابه الذي أشرنا اليه آنفاً عن الارباب المصرية قائلا إن النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر الى الشام واليمن ، ونقلها الاغريق الى اليونان ونقلها الفينيقي قدموس الى اليونان والى بلاده ، وان اعظم العقول اليونانية كانت تهاجر الى مصر لتدرس المعرفة المصرية في طيبة ومنف وعين شمس وسايس ، وعدد منهم ليكرج « Lycurgos » وصولون وطاليس وفيثاغورس وأفلاطون وايدوكس ، وعدد بعدهم انما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب ، ولا شك في شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الابرار وعالم الاشرار في الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب أن تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الاناة على الاقل ان ينتهي تاريخ « ست » حيث انتهى في هذا الموضوع ، وقد قيل إن العزى هي ايزيس ، وان مناة هي منوت أو موت ، وان النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض اناشيد أتون ، وإن أيوب عليه السلام كان يسكن الى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التي تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذي يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، واقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحاً بعده لما تأتي به الكشوف وتسفر عنه المقارنات .

الشيطان
في الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات ان الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرة من ديانـة المصريين الاوائـل ، ويرى برستيد واليوت سميث ان معظـم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ، ومن شعائر تقديس الملوك التي يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية اليها .

ويرد ذكر مصر في كتب البورنا التي جمع فيها الهنود الاقدمون قصص الآلهـة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الاولين .

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التي بلغتها تلك المقتبسات ولا يمكن ان تذهب بعيداً الى ما وراءها ، فهـي لا تكون بطبيعـة تلك الديانـة إلا من قبيل الشعائر والمراسم ، ولا يتأتى ان تتخطاها الى اصول الديانـة في جوهرهـا ، اذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضـين او الطرفـين المتقابلين ، ولو اراد احـد ان يضـع ديانتـين يتوخـى فيهما التقابـل في العقائـد الاساسية التي تدور عليها كل ملة لما استطاع أن يبلغ في هذا التقابل ما بلغه اهل مصر واهل الهند في العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال .

والعقائد الاساسية التي تدور عليها كل ملـة تتنـاول وجـود الانســان ونظـام المجتمع ووجود العالم كله أو الوجود على اطلاقه ، وفي هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتـان موقف التقابـل من طرف الى طرف ، كأنهما عامدتـان الى تصوير سعة الآفاق التي تحيط بالعقائد في ضمائر بني الانسان .

فالديانة المصرية تصون جسد الانسان وتستبقيه الى الحياة الابدية ، والديانـة الهندية تنكر الجسد ، وتعلم اتباعها أن الروح تنسخ جسدها مرة بعد مرة ، ولا تنال الخلاص الا اذا فني الجسد كل الفناء .

والديانة المصرية تعتبر دوام الاسرة آية من آيات النعمة الالهية ، ولا تعرف دعاء

الى خالق الكون احب الى الداعين من بقاء تراث الآباء والاجداد واتصال العقب الى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التي تعلق النجاة بالافلات من دولاب الحياة والموت والرجوع الى « النرفانا » من طريق « الموكشا » أي اجتناب العلاقة الجنسية ولو في حالة الزواج .

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانة اهل الهند التي تحسبه شراً محضاً ، وباطلا موهوماً ، ومنبعاً لجميع الشرور التي تعترض عالم الحقيقة ، وتشغل الروح بالاعراض والقشور .

ويكفي هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص في مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بنواميس الكون الخالدة ، سواء منها ما يتمثل في صورة « الذات » الالهية ، أو ما يتمثل في الناموس الاعظم أو « الكارما » الذي ليس له ذات .

على أن الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الاديان أشد الحيرة في أمر « الشخصية » التي تقابل شخصية الشيطان او قوة الشر العالمية عند اصحاب الديانات الاخرى ، وأسباب هذه الحيرة متعددة لا يصادفها العلماء بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة في غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها .

من هذه الاسباب أن الهنود الاقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين ، وربما تعمد القادمون ان يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ، ومن ذلك في هذا الباب عقيدتهم في العفاريت الخبيثة أو العابثة التي يسمونها بالـ « راكشا » وينسبون اليها اعمالا كأعمال الشياطين في الديانات الاخرى ، فان الباحثين في اشتقاق الكلمة يقولون تارة انها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة اخرى انها الاسم الذي كان يطلق على الهمج الاولين الذين سكنوا الهند قبل اغارة الآريين عليها وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ في الاذهان من احاديث القتال بينهم وبين الآريين انهم اعداء البشر وانهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم في كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا في أساطير

العامة الى اقسام ثلاثة : احدها يشبه ارواح « الياكشا » البريئة التي تهيم على وجهها ولا تؤذي احداً الا ان يتعرض لها ، والثاني يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادي الانسان الد العداء ، والقسم الاخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والخراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم إنهم مشوهون ، بعضهم ذو راسين وبعضهم ذو ثلاث ارجل ، ومنهم من له عين واحدة في راسه ومنهم من له عدة أعين ، وكلهم على خلاف البشر في التركيب .

ولا ينسب الى هؤلاء « الراكشا » عمل من أعمال الاغراء والاغواء ، ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ، ويتلصصون في الطرق المقفرة ، ويستبيحون الاذى للكيد او للعبث والدعابة ، ورئيس هؤلاء « الراكشا » المسمى « رفانا » هو الذي اختطف الحسناء « سيتا » زوجة البطل « رام » كما جاء في ملاحم « الريجيفيدا » ثم حملها الى جزيرة سرنديب ، ولم يستطع زوجها ان يهتدي اليها ويخرجها من أسرها الا بمعونة القرد هنومان .

فالشياطين في صورة « الراكشا » هم « الشر » الذي ابغضه الآريون وصوروه لابنائهم في الصورة التي تنفرهم منه وتحذرهم من كيده ، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله اعداؤه ، ويدفعون به الى اقاصي الارض وزوايا المدن ، ويستثيرونه احياناً من فرط الظلم فيثور ، ويهملونه أحياناً فيهيم على وجهه عاجزاً عن الاذى قانعاً بالسلامة أو متحفزاً للانتقام .

*

والى جانب التتابع في الديانات والاقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل في جميع العهود ولا سيما العهود الاخيرة التي تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على اعقاب الكهان المتنسكين أو الدهاة المتحكمين ، ففي هذه العهود الاخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن في « الوجود » الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير الا ان يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم الى عالم الفناء .

وقد اشتمل الثالوث الابـدي في الديانـة البـرهمية علـى ثلاثـة اربـاب هم « براهما » الاله في صورة الخالق ، و « فشنو » الالـه في صورة الحافـظ ، و « شيفا » الاله في صورة الهادم ، فكان الهدم ـ من ثم ـ عملا ربانياً يقوم به الاله في صورة من صوره ، وينصف به الحق من هذا الوجود الباطل الذي ينبغي أن يزول ليمهد سبيل الطهارة والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة اليه في نظام الوجود .

ومن الصعوبات التي تحير علماء المقارنة بين الاديان أن التناسـخ أو تعـدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشعبـة في الديانـة البـرهمية وفروعهـا ، فليست هي مقصورة على الانسان في أدوار حياته المتعاقبة ، ولا على الحيوان في أشكاله المتنوعة ، بل تعم الوجود كله من الارباب العليا الى ما دونها من الحيوان والنبات حتى الجماد ، ولهذا يتفق ان تكون للاله صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين أناس للاله « شيفـا » علـى انـه مصدر الخير وقائد الارواح في طريق الفناء الى حظيرة « الوجود » الأسنـى ، ويرهبه أناس آخرون على انه سلطان الغضب والنكاية ، فلا رحمة عنـده ولا موئل من قصاصه وتقلب أطواره .

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من أسباب الحيرة وتناقض الصفات في الالـه الواحـد ، بل هنـاك سبب آخـر يضـاعف هذا التعــدد ولا يمنــع « الشخصية » الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشـخصيات الربانية في معظم الديانات ، وهذا السبب هو اضافة الـ « شاكتي » أي قرينـة الاله الانثوية الى وظيفته في المسائل الدنيوية .

فكل إله له « شاكتي » بمعنى القرينة او الزوجة ، هي التـي تنـوب عنـه في « شؤون الدار » أو في الشؤون التي يتركها ولا يتفرغ لها إيثاراً للعمل في الآفاق العلوية .

وتعود الاقاويل الى « الشاكتي » فتجعل لها طبيعتين : طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة ، وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح « الشاكتي » الواحدة ذات أربعة أسماء غير اسمهـا الاصيل ،

وعلى هذا المثال تسمى قرينة سيفا إله الشر باسمها الاصيل « ماهسواري » ، ثم تسمى باسم « أوما » واسم « جورى » حين ترجى منها الرحمة والمودة ، وتسمى باسم « جوري » واسم « كالي » حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم كالي الاخير هو الاسم الذي يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين ، واتخذوا شعارهم في القرابين البشرية قتل الضحايا بغير إراقة الدماء .

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للالهة « كالي » بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاريبها ، وتتخيل هذه الالهة على مثال امرأة عابسة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين ، وتحمي كل من يطيعها ويتقرب اليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم في ذلك أن الاله « فشنو » يحافظ على الاحياء فيتكاثر عددهم ، ويعجز الاله « شيفا » عن ملاحقته في مهمة الابادة والافناء ، فيستعين « بالشاكتي كالي » على هذه المهمة ، ويتزلف اليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء ، لان الدم الذي يراق على الارض تتولد منه الحياة .

وجماعة الخناقين هذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهون أحلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات ، فضلا عن الانسان ولكنهم لا ينكرون ربوبية « كالي » ولا يتركون عبادتها على النحو الذي يرتضونه ويحسبون انه اقرب الى رضاها ، ومن ذاك أنهم يترهبون او يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة الى قتل الابرياء .

وتلك الاسباب في جملتها هي التي تحير علماء الاديان كلما أرادوا ان يحصروا الشر في « شخصية شيطانية » تنعزل بقوتها عن القوى الالهية في أقانيمها المتعددة .

ولكنهم يثوبون في النهاية الى عقيدة واحدة مشتركة بين النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر في صورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هي الايمان بأن العالم المحسوس شر وباطل ، وان كل ما يربط الانسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الانسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل امل يفتنه بلذة من لذاته او قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة

في « المرأة » لانها سبيل الروابط الدنيوية التي تقيد الحي بالدورات الابدية في دولاب الولادة والموت ، وأن لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب الى « النرفانا » بغير علاقة ترده الى هذا العالم المحسوس ، ومن ثم يفضي به المطاف في الآباد المتطاولة الى غاية كل مطاف من الفناء والسلام .

ويلاحظ انهم يحيلون الامر على « الانوثة » كلما عرضوا لعمل من أعمال الارباب ينزهون عنه الالهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الارضية .

ويلاحظ كذلك أنهم يقولون عن العالم المحسوس كله انه « مايا » أو وهم وضلالة ، وأنهم يصورون هذا « المايا » في صورة انثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الانثى التي تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة . فيحسبون اللذة نعمة تبتغى وهي شقاء ابدي لا يؤدي الى غير شقاء .

وليس في الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذي يسمونه « المارا » من الموت ، ويقولون انه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الارضية ، وكأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحد بدلا من تعميم القول على الفتن التي تساور النفس ولا تتمثل لها ذات في الحس أو الخيال .

وهذا « المارا » هو الذي قيل في قصة « بوذا » انه وسوس له والح في وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال .

فالشر الكوني هو الشر النفسي الذي يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الاوهام والاباطيل .

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطاناً أو أرواحاً شيطانية غير الارواح التي يسمونها بالراكشا ويردونها الى الشراذم المشردة من أبناء البلاد الاصلاء الذين صمدوا للآريين زمناً ثم استكانوا على مضض وتربص أو على هوان واستسلام .

أما « الشيطان الكوني » فهـو مرادف للفتنـة وكل ما يغـري النفس بمطامـع الحياة .

ويصعب على المتتبع للاعمال التي تنسب الى بعض الآلهة والاعمال الهامة التي تنسب الى الشياطين الهادمة أو المعادية للجنس البشري ان يفرق بينهما بغير الرجوع الى النيات ، فقد تتشابه في الهدم ولا تفترق عن القصد والنية ، فما كان هدماً للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهـو خير ، ومـا كان هدمـاً للتنافس على هذه المطامع والوقوع في هذه الحبائل فهو من عمـل الشيطـان كيفما كان الاسم الذي يطلق عليه .

الشيطان
بين النهرين

ظفرت « بلاد النهرين » بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الاديان لم يظفر بها قطر آخر . لأنها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان آخر في اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد أقوامه وتيسر البحث فيه لنوعين من المقارنة يندر جداً أن يتيسر في رقعة أخرى من الكرة الارضية ، وهما مقارنة الاديان ومقارنة الاجناس في وقت واحد ، اذ كان وادي الدجلة والفرات وطناً قديماً أقام فيه الآريون والساميون والطورانيون ، وسواء صح أن السومريين الذين اقاموا فيه زمناً قد وفدوا اليه من الصين أو لم يصح هذا القول الغالب فقد صح أن « زرادشت » نبي المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنوية المجوسية بعض التوفيق .

وهذا التعدد في السلالة يصاحبه تعدد آخر في الاحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين أناس يبنون الهياكل وأناس لا يعرفون البناء ، أو اناس يعبدون النار والكواكب وأناس يلصقون عبادتهم بالارض ومعالمها ، وعناصر الطبيعة التي تهيمن على أرزاقهم ومساعيهم .

وتتضاعف العناية بالديانات التي نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الاسباب يهتم به الاوربيون وأتباع الاديان الكتابية على العموم ، لان مراجع الاديان الكتابية تبتدىء في بلاد النهرين منذ عهد ابراهيم الخليل الى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابي الى عهد السبي واختلاط بني اسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم في العرف الديني والشعائر التي لها اتصال بمراسم العبادة ، ثم تأتي عبادة « مترا » وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة في دولة الرومان من شواطىء آسيا الى الجزر البريطانية .

فالعقائد الدينية التي نشأت قديماً حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد في جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التي يدين بها الاوروبيون ، وهم أول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث .

ونحن في هذا الفصل لا نقصر الكلام على البلاد التي تحصرها الاوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضي معها الى حدود الحضارة التي تأثرت بها أو أثرت فيها من وراء النهرين شرقاً الى ارض فارس ، ومن ورائها غرباً وجنوباً الى الاقطار العربية أو الاقطار السامية التي كان لها اتصال بالدولة القائمة في بابل وأشور ، ولا حاجة بنا ـ في هذا الفصل ـ الى استقصاء العقائد والشعائر في هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وانما نظر الى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الامم التي دخلت في عداد المؤمنين بالاديان الكتابية ، فليست في حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة في هذا الصدد من الحضارتين البابليه والفارسية ، وكلتاهما تدخل في العنوان الشامل الذي نطلقه على أقطار « ما بين النهرين » بشيء من التجوز من الوجهة الجغرافية ، وبغير تجوز من الوجهة الثقافية .

فنحن نرجع الى « بابل » لفهم التطور في معنى « الخطيئة » مميزاً من معنى الذنب أو العيب أو الرذيلة أو الجريمة .

ونحن نرجع الى « فارس » لفهم التطور في مذهب « الثنوية » أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر في الاكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الارضية .

*

اذا كنا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتمسها في جميع مظاهرها وهي صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة ، فالصبغة التي تغلب على حضارة بابل ـ على هذا النحو ـ هي صبغة التنجيم والازياج الفلكية ، وسنرى أن علماء المقارنة بين الاديان لم يلتفتوا الى هذه الناحية في علاقتها بفهم المقصود من

معنى « الخطيئة » مع أنها ـ على ما نرى ـ لا تفهم حق فهمها ما لم تبتدىء من هذه البداية .

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من أقدم الازمنة، وعلقوا مصائر الناس وأقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السماء ولا يشقى بغضبها الا وهو في الحالتين عرضة للقضاء المسطور في ازياج النجوم .

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحباً لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هذه الخرافات والاوهام خداعاً من الكهان السحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والالغاز التي يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها .

وما من قصة بلغتنا من أرض بابل في تاريخها القديم الا وهي قصة من قصص المناظرة بين الارض والنجوم ، في شكل من الاشكال التي يفتن فيها الحس والخيال .

فربة الارض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به الى مناجزة الارباب في سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الاساطير المزعومة فانما هي في مدلولها خروج من الارض على ارادة السماء لا تلبث السماء أن تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة ، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان .

فلم يكن للبابلي من هم في سره وعلانيته الا أن يستطلع ارادة النجوم ويخرج بالاذعان لها وموافقة هواها من عداد « المنحوسين » الى عداد السعداء .

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لي في كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع .

لم يكن الأمر هنا امر الحسن والقبيح أو أمر الصلاح والفساد او أمر الاستقامة والاجرام ، كلا . . . وانما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب ، أو أمر الغضب الذي يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب في مجراه .

والفارق بين الامرين انما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء .

*

وينبغي أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذي يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه يباينها في طبيعته ولا يتأتى للانسان ان يعرف موضوع التحريم منه الا اذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب أو العيوب او الرذائل او الجرائم بهذه الصفة الخاصة بين المحرمات ، لان الانسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذي يعيش فيه .

فالذنب اساءة قد يجنيها الانسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة انصاف أو اجحاف في المعاملة .

والعيب نقص يعتري الانسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور .

والرذيلة اسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذي يروض نفسه على الكمال ، فهي مسألة كرامة وابتذال .

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على انكاره ومجازاة فاعله ، فهي مسألة قانون وقضاء .

أما الخلاف الذي يسمى « خطيئة » فيكفي فيه أن يعمل الانسان ما لم يرده الاله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه ، لأن الخلاف قلة ايمان بالمشيئة الالهية ؛ فهو مسألة أدب أو سوء أدب مع الله .

ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه في علم السحر والكهانة تقربه من الاذهان على نحو سائغ في كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذي يتلقى خفايا السحر والتنجيم ان يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم الى حين ، وعليه أن يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوماً متعجلا أو مستريباً فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الاسرار .

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناط بمشيئة الله ولا يطلب من العباد أن يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وان خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها .

وقد أورد برتشارد[1] في كتابه عن شعائر الشرق الادنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن اصحابها التوبة ، ويطلبون الغفران لانهم اكلوا طعاماً محرماً ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب .

وقد نزيد المسألة توضيحاً حين نقول ان الاله وحده هو الذي يحق له ان يحرم شيئاً ولا يذكر سبب تحريمه ، لانه هو وحده الذي يعلم مصلحة الخلق جميعاً فيما يبيحه لهم وينهاهم عنه ، فأما غير الاله فالمحرمات التي ينهى عنها لغير سبب لا تدين أحداً بالخطيئة وكل ما يخشاه من اتيانها أن يتعرض للغضب او للعقاب .

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لانها تقدمتها في كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ما تنبيء عنه من سعود او نحوس ، وتستحيل السعود والنحوس الى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب ارباباً علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير .

*

أما الحصة التي ساهمت بها عقيدة فارس في تاريخ الاديان ، وتاريخ قوة الشر على التخصيص ، فهي « الثنوية » او تنازع النور والظلام على سيادة الوجود .

ويظهر ان الثنوية هذه عريقة الاصل عميقة الجذور في البقاع الفارسية وما حولها ، فانها بعد تهذيب الاديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة في افكار بعض الكتابيين ممن ينتمون الى اليهودية او الاسلام ويقيمون في اطراف البلاد التي كانت تحيط بها حضارة ما بين النهرين منذ اربعين قرناً او تزيد ، وقد روى الدكتور يوسف ولف صاحب الرحلة الى بخارى (من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٤٥) ان شيخاً يهودياً يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله

---

(١) « Aacient Near Eastern Texts » by Pritchard

الدرويش ممتحناً : من خلق النار والماء ؟ قال الدكتور وولف : فلما أجبته انه هو الله ، صاح بي قائلا : صه ! لا شيء من ذاك ، لان النار والماء عنصران مهلكان ولا ينبغي لله ان يخلق المهلكات ، وعليك ان تعلم ان الكون يحكمه الهان : احدهما اله الملأ الاعلى وهو رب الخير الذي خلق نوراً لا يحرق وخلق الوردة والبلبل ، وقد تصدى له اله العالم الاسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حرباً لا تزال حتى اليوم حامية الاوار ، فمن عمل خيراً من الناس فهم خدام الإله الأعلى ، ومن عمل شراً منهم فهم خدام الاله الاسفل ، وسوف تحتدم الحرب كرة اخرى فيصعد الاله الاسفل الى السماء السابعة تحلق معه الوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الاله الاسفل ويلقي عصا الطاعة لاله السماء .

واغرب من بقاء هذه العقيدة في موطن الثنوية انها بقيت بين الاوروبيين الى القرن السابع عشر . وكانت لها نحل ومعابد من بلاد البلقان الى العواصم الفرنسية في الشمال والجنوب ، واذا صحت بعض الاخبار ـ مما نشير اليه في الفصول التالية ـ فقد بقيت شعبة منها الى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية ، وتستقبل المصلين في باريس حيث يفربون القرابين الى الشيطان ، ويكررون التلاوات التي كانت ترتل في معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة قرون وتدور خلاصتها على الايمان بسيادة الشيطان على الدنيا ، واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها اله السماء ولا تسري عليها اوامره ونواهيه .

وقد تطور الايمان بالثنوية او هو قد ترقى مع الزمن في القرون الاولى كأنه جذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولا يزال قابلا للنمو في منبت بعد منبت من العبادات الخالية .

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فآمنوا باله واحد يسمونه « زروان » ، وقالوا بولدين له كانا في رحم الغيب ، فوعد اكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال اله الظلام منهما على الخروج اولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من أبيه انجازاً لوعده ، ولم يستطع الاب الا ان يعد ابنه اله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة الاف من السنين الكونية .

هذان الالهـان همـا « اورمـزد » و « اهرمـان » او الـروح الـطيب والـروح الخبيث .

ومن عقائد بعض الثنوية ان الخلائق النافعة من صنع اله النور ، وان الخلائق الضارة او التي لا نفع فيها من صنع اله الظلام .

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون ان الجسد كله شر ، ولكن الارواح العلوية ارادت ان تحارب جنود الظلام فأنبأها الاله الاعظم انها لا تقوى على حربها بغير اجساد كأجسادها ، فان شاءت بقيت على صفائهـا ، وان شاءت لبسـت اجساداً من المادة فكافحتهـا بسلاحها ،وهـذه هي الارواح العلـوية التـي بقي الاكثرون منهم على صفائهم ، ورانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات .

ويعتقد فريق من الثنوية ان آدم من خلقة الشيطان ، ولكن الارواح العلوية تعالج ان تصلحه ، وتقوم اوده ، وتستخلصه من وهدة الطين بقبس من النور تدسه له في وجدانه، فيأنف الحياة الارضية ويتطلع ببصيرته الى السماء .

وجاءت المانوية فانتشرت في بقاع الدولة الرومانية بعد ظهـور المسيحية ، ونافستها اشد منافسة في آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا واوربة ، فامتلأت معاهد الدينين بالكلام عن الشيطان ، واستصوب اناس من آبـاء الكنيسـة أن ينتزعوا شعائر عباد النور ، فجعلوا يوم الاحد ، يوم الاسبوع المختار ، لانه كان مخصصاً لعبادة الشمس(١) وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لانه كان يوماً ينصرف فيه المسيحيون الى سهرات الوثنيين ، لاعتقـاد هؤلاء انه اليوم الذي يقصر فيه الليل ويطول النهار ، فهو هزيمة لاله الظلمة ، ونصر لاله النور .

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون الى اصـول العقيدة الثنـوية ، فحولـوا اسطورة زروان الذي ولد له « أورمزد » الى اسطورة كرونـوس الـذي ولـد له زيوس رب الارباب وسيد الملأ الأعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بلاد بين النهرين ، لأنه سابقة لا تنقطع عما تلاها من أطوار

---

(١) ومن هنا بقي اسم« Sunday » بالانجليزية .

الايمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التي نزهتها الاديان الكتابية بعد ذلك في عقيدة الوحدانية ، وبدونها القوة الكونية التي تمثل فيها الشر مخلوقاً متمرداً على الله .

*

وفي الوعي الديني عوامل ذات بال لا تحسب من الفرائض والشعائر ، ولكنها تحسب من الخواطر التي تخامر النفس وتعمل عملها في تقويم الاخلاق المصطبغة بصبغة الايمان .

من هذه الخواطر التي تستكثر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة « الزردشتية » من اقدم عصورها ، أولهما ان الشر « شك » وانه نبت في الكون لاول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير ؟ والخاطر الآخر ان الشر كذب كما جاء في قصة « يامه » التي تضمنت اقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعاه اورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الامانة واشفاقه من العجز عنها ، فارسله الى الارض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت ، فامتلأت الارض بالاحياء التي لا تفنى ، وامتلأت نفس « يامه » بالخيلاء ، فسولت له ان يناظر الاله بهذه العصمة ، وان يكاذب نفسه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية « يامه » على نفسه وعلى زمرته تسللت إلى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور .

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من اقدم العصور ، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل ، بل دخلاها من طريق الاشكال والرموز التي يلم بها الحس قبل التفكير فيها .

الشيطان
في حضارة اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون الى تحرير موازينهم جميعاً قبل الاطمئنان الى رأي صحيح في أي شأن من الشؤون السياسية التي قامت عليها حضارة اليونان .

ذلك بأن الناقد التاريخي سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين في بعض الاصول وفي كثير من التفصيلات : تاريخ الامة اليونانية الحقيقية ، وتاريخ الامة اليونانية التي جعلها الاوربيون المحدثون عنواناً للفضائل الغربية في مسائل العلم والفن والسياسة والاخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا انفسهم موضع المناظرة والموازنة امام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب في هذه المطالب وهذه المزايا .

وبلغ من رغبة الاوربيين في ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقاً منهم تنكر للمسيحية لانها ثمرة شرقية ، وفريقاً منهم زعم أن المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الاول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الاناجيل كتبت باللغة اليونانية ، وأن كلمة الانجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان .

وقد عمد الغرب الى هذا الاستغلال التاريخي لتراث اليونان لانه احتاج اليه لتدعيم دعوى السيادة والرجحان على أمم الشرق في عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة الى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التي تخول المتقدمين من بني آدم امانة الاشراف على تعليم المتأخرين .

أن أمة اليونان الحقيقية غير هذه الامة « المصنوعة » التي احتال بها الغربيون في عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة الغرور الذي

يساور « الغربي » في مقام المفاخرة وان لم يكن من خدام الاستعمار .

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الامة الحقيقية فضلا في تاريخ الثقافة الانسانية ، فمما لا نزاع فيه أن نصيبها في هذه الثقافة لا يعلوه نصيب ولا حاجة بها معه الى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ، وحسبها أنها أخرجت للعالم سقراط وافلاطون وأرسطو في ثلاثة أجيال متعاقبة مع من أخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين ، وانها تعد من شعرائها أمثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس وارستوفان ، ومن علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الاول الذي تلاحق على مدى ثلاثة قرون في عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم أو يقاربهم في هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن واساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون أحياناً على أولئك النظراء بالكثرة والقيمة .

حسب الامة اليونانية هذا الفخار الذي يقره جميع المنصفين من الشرقيين والغربيين .

فأما انها استأثرت بالقيم الانسانية العليا في الذوق والفكر والخلق فتلك هي الدعوى التي يروجها الغرض ولا يسلمها التاريخ ، فاذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هي المقدمة اللازمة للوصول الى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهي مناجزة يقابلها الشرقيون بما ينبغي لها من التصحيح والتفنيد ، وانها لينبغي لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الاثر السيء الذي تعقبه في نفوس أبناء الشرق ، فتوقع فيها اليأس وتقضي عليها بالمهانة ضربة لازب بحكم الخصائص الفطرية التي لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، في زعم الزاعمين .

لقد حصروا في طبيعة الغربي - من وراء اليوناني - كل قيمة انسانية عالية في مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه في هذه الخصائص بالشرقي ، فخرج الغربي بمزية العقل الذي يطلب العلم للعلم ، ومزية الحكم الذي يقوم على حقوق الشعب ، ومزية الخلق الذي تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعي الانانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقي من هذه الموازنة بالطرف النقيض ،

كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لا يتلاقى طرفاه من أقصاه الى أقصاه .

ونحن نصحح هذه المزاعم في مناسباتها انصافاً للحقيقة ، ومنعاً للضرر الذي يتخلف من آثارها ، وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدي والمنافرة ، ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديماً رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بني آدم اعتزازاً بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار

النار عنصره وادم طينة والطين لا يسمو سمو النار

فليس للغربيين امتياز فطري في طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر الى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون محرومين من طلب المعرفة للمعرفة في قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون ـ مثلا ـ كواكب السماء ، وعرفوا أن الشعرى تظهر في موضع معلوم عند وصول الفيضان الى منف ، فاستخدموا الرصد بعد ذلك في تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات في الثقافة الغربية ، قد رصدوها مئات السنين حباً للمعرفة قبل ان يثبت لهم ذلك الموعد الذي انتفعوا به في تنظيم الري والزراعة .[١] .

وإنما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية في زمن من الازمان لسبب واضح : هو أن هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنع على غيرهم من أبناء الدول الشرقية العريقة ، وهي لم تكن مباحة لهم لمزية أصلية في طبيعة التركيب . . . ولكنها أبيحت لهم لان بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوي وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية ، كما قامت في مصر وبابل ، لكان شأنهم في أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التي تجري فيها الانهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك

---

(١) « Mathematics in Western Culture » by Morris Kline

الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تستأثر بالبحث في أصول الاشياء وحقائق التكوين ، وتتولى شؤون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصور عليها لا يجوز الافتئات عليه ، والا كان المفتئت كالمعتدي على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الامد بهذه الكهانات جيلا بعد جيل وعصراً بعد عصر ، تمكن سلطانها ، وتشعبت دعاواها ، وتلبست معلوماتها بلباس الاسرار والطلاسم ، وابتعدت شيئاً فشيئاً عن نطاق البحث الحر الى نطاق المحفوظات والمأثورات » .

وقد حكم على سقراط بالموت ، وهرب فيثاغوراس قبله من وطنه ، وهرب غيره من الفلاسفة من أثينا ، دون أن تكون في بلادهم تلك الكهانات الراسخة التي طالت بها العهود في البلاد الشرقية . « وحدث للاوربيين ما حدث في الشرق حين قامت في بلادهم الكهانات القوية ، وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث في حقائق الدين وأسرار الطبيعة »[1] .

ودعوى الامتياز الفطري بالحكم الحر أضعف من دعوى الامتياز الفطري بطلب المعرفة حباً للمعرفة .

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلي ألهم اليونان أن يختاروا الحكومة الديمقراطية ـ أي الحكومة الشعبية ـ من كلمة ديموس بمعنى الشعب في اللغة اليونانية القديمة .

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذي سمي بالديمقراطي أو النيابي لانه يجري بالانتخاب لم يبتدىء في أثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدؤه في « اسبرطة » العملية التي تختار النظام لانه أيسر تطبيقاً وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة في اختيار كل خطة تنتظم بها الاجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع .

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ، ولكنها اخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التي تقيم بها القبيلة ، ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التي تشترك فيها القبائل .

(١) راجع كتابنا عن اثر العرب في الحضارة الاوربية

وقد كان الانتخاب في أثينا القديمة مسألة « اجراءات » كما كان في اسبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحداً نال حق الانتخاب لانه حق انساني تناط به التبعات والواجبات ، وانما كانت الطوائف تناله واحدة بعد أخرى كلما اضطرت الدولة الى الاستعانة بها في القتال ، فلم تنله طائفة الملاحين مثلا الا بعد ثبوت الحاجة اليهم في الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس . ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة بأكثر من عشرين قرناً ، فإن عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة ، لان عمال الصناعة ألزم للدولة من غيرهم في معامل الذخيرة والسلاح ، وأقدر على المطالبة والاضراب . ولم تنل المرأة حق الانتخاب الا بعد ثبوت الحاجة اليها في تلك المعامل مع الحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الامريكيون الى تطبيق هذا الحق فعلا الا بعد الحرب العالمية الثانية التي اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعاً للذخيرة والسلاح .

أما حكم الشورى الذي هو تكليف انساني منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ في اليونان ولا في أمة غربية ، بل نشأ في الاسلام في الجزيرة العربية ، ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية .

*

ونأتي بعد بيان الحقيقة في امتياز المعرفة وامتياز الحكم الى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الاله الاكبر أو من نظام الوجود .

ففي الحضارات الشرقية التي أجملنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر » مغضوب عليها لانها تضر وتفسد وتدس الغواية على الانسان ، وخلاصة المعايير الاخلاقية هنا أن القيم الصالحة في جانب الاله ، والقيم الفاسدة أو الخبيثة في جانب « قوة الشر » أو الشيطان .

لكن الامر ينقلب تماماً في معايير الأرباب اليونانيين ، لان « برومثيوس » الذي ينصب عليه غضب الارباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذي هدى الانسان الى سر النار ، وألهمه السعي في طلب البقاء ، وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذي يعيش فيه ، وتمثله الاساطير على قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الارباب ويخيل اليه من أجل ذلك أنه يتعالم عليه .

أما رب الارباب ـ زيوس ـ فهو أشبه ما يكون بالشيطان في الديانات الشرقية القديمة ، وهو في جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لا يبالي شيئاً من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبي الطب لانه يشفي المرضى فلا يموتون ويخسر « بلوطس » في العالم الاسفل ضرائب نقلهم الى الهاوية السوداء .

وتمتلىء الاساطير اليونانية بأنباء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التي كانت تفاجئه في خياناته الغرامية مع نساء الالهة وبني الانسان ، وربما عنفته في بعض هذه المشاجرات لانه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسي » فيهبط الى الارض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيميد » يجعله ساقياً في الملأ الاعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين .

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا في أساطيره الكثيرة نموذجاً للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وان رضي فانما يرضى لخدمة أو وساطة في طعام أو غرام ، وهذه احدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثلها « لوسيان الساموسي » أديب الاساطير المشهور .

ـ أطلقني يا زيوس . حسبي ما قاسيت .

ـ أطلقك ؟ أطلقك أنت ؟ كيف ؟ انك لأولى أن يزاد عليك ثقل الاغلال ، وأن تطبق عليك جبال القوقاز جميعاً ، وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عقاباً بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك أنت الذي أغريت هذه المخلوقات البشرية اللعينة بأن تجترىء على مناوأتنا ، وأنت الذي اختلست سر النار ، وأنت الذي سويت المرأة ، وما بي من حاجة أن أذكرك بما صنعت حين وضعت لي العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعني عن طعامي . فذق اذن جزاءك فانك به لجدير .

ـ وهل تراني لم أصب من ذلك الجزاء ما هو حسبي ؟ ألم الصق هنا بالجبل سنين بعد سنين ، يأكل من كبدي عقابك هذا اللعين الأثيم .

ـ انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذي أنت به حقيق .

ـ تأمل . انني لا أطلب منك الافراج عني سماحة بغير عوض ، وانما أهب لك سراً من الاسرار الغالية التي تعنيك .
ـ آه . انها اذن لحيلة من حيل برومثيوس .
ـ حيلة من حيلي ؟ ولأي غرض ؟ ان جبل القفقاز موجود ، وانك لقادر على الرجعة بي اليه ان كذبت عليك .
ـ قل لي أولا في أي شيء تكون هذه النصيحة الغالية .
ـ أإذا أنبأتك حقاً بشيء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها أيضاً أنني أحس بالنبوءة عن الغيب ؟
ـ بكل يقين .
ـ انك على موعد زيارة لثيتس .
ـ الى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . انني الآن أصغي اليك .
ـ لا تضاجعها يا زيوس . فان بنت نيريس لا تلبث أن تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتليني به الآن .
ـ تعني انني أفقد عرشي ؟
ـ أعيذك من القضاء ، وانما أنبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء .
ـ اذن وداعاً يا ثيتس . وأنت يا برومثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج القريب .

*

ورواية لوسيان لاخبار برومثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية « هزيود » الذي تولى تنقية الاساطير وحاول أن يعرض زيوس في معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة النهم الذي يغضب لأكلة ، ولا عن تهمة الغيرة من ذوي الفطنة والحيلة ، بل ألقى اللوم على المغضوب عليهم لانهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكى وهو يبسط القول في أوائل خلق الكون قصته التالية :

« . . . وولدت كليمين بنت الاوقيانوس ولداً أصمع القلب هو الاطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس المجيد ، وبروميثوس اللبيب صاحب الحيل والاساليب ، وأبيمثيوس الذي كان من مبدأ أمره شراً على الناس الذين يأكلون الخبز ، لانه هو الذي أخذ من زيوس المرأة التي خلقها ، وكان منوتيوس ثائراً

مثيراً فرأى زيوس بثاقب نظره ان يرجمه بصاعقة هبطت به الى أرينوس لادعائه وامعانه في كبريائه . . . وقضى على بروميثيوس ذي البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقيود قاسية لا ترحمه ، وأن يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها في سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمزيقها في الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسر وأنقذ بروميثيوس من عذابه . . . ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب العرش الرفيع في الاولمب وانما أراد نباهة الشأن لابنه هرقليس . . . فنظر بعين الرضى الى فعلته وان يكن غاضباً من بروميثيوس لانه تسامى الى مناظرة الاله الاكبر في الذكاء . . . وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الارباب والبشر وذبح بروميثيوس ثوراً عظيماً ليطعمهم منه . فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وأن يضع اللحم الجزل أمام غيره ويضع أمامه عظماً مكسواً بالشحم يلمع عليه ويخفي ما تحته بلباقته وخبثه ، فلم يلبث زيوس أن صاح به : « يا ابن يابيتس سيد السادة . ما أشد اجحافك ـ سيدي ـ في قسمتك ! » .

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس بروميثيوس مكره وراح يجيبه في ابتسام وصوت خفيض : « خذ من هذه الانصبة جميعاً ما ترضاه » وظن انه يحتال على الاله الاكبر بهذه الخديعة ، ولكن الاله الاكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، وأضمر في قلبه شراً لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الابيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطاً كلما رأى العظم الابيض مدسوساً في خبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الابيض على المذابح المعطرة قرباناً للارباب الخالدين . ويزمجر مرسل الغمام بصواعقه محنقاً اذ يقول لبروميثيوس :

« يا ابن يابيتس . يا بارعاً فوق البارعين . كأنك يا سيدي لم تنس بعد أساليبك في المكر والخداع ! » .

كذلك قال زيوس السرمدي الحكمة في غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار الى الخلائق البشرية الهالكة التي تعيش على

الارض . الا أن برومثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاؤه ، واختلس قبساً من النار في جوف قصبته . واحس زيوس مرسل الصواعق في العلا بلذعة في فؤاده حين لمح النار بين أبناء البشر . . .

ثم مضى هزيود يروي قصة المرأة التي خلقها زيوس شراً للبشر ، وجعل اجتنابها في الوقت نفسه شراً يورث العقم ، وجاء برومثيوس فأغرى الانسان بالنسل مستهيناً بشر الفتنة حذراً من شر الفناء .

وبديه أن تستهوي الشعراء هذه الاسطورة التي تحيط بمأساة البشر بين القوة الالهية التي تحبهم والقوة الكبرى التي تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء أخيلتهم في نظم الاسطورة وايداعها كل ما تتسع له من أحاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر المحيط بالانسان بين السماوات والارضين ، وقد تناولها في العصر القديم شاعر من أكبر شعراء اليونان ، وتناولها في العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الانجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « اسكايلاس » قصيدته بعنوان « برومثيوس المعتقل » ونظم فيها « شلي » قصيدته بعنوان « برومثيوس الطليق » ، وكلاهما قد وضع برومثيوس وزيوس في مكانيهما من الانصاف والاجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليوناني زبانية زيوس نفسه يرثون لبرومثيوس الذي قضي عليه ـ لعطفه على أبناء البشر ـ أن يوثق الى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقي في سبيلهم فيجزيه عطفاً بعطف واحساناً باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الارباب كالمارد العربيد أسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ، ونعى لهم صديق البشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهم وفي قلوبهم غصة وعلى السنتهم نفاق .

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه من القيم الاخلاقية في تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الاوربي على أمم الشرق في تصويرهم لهذه الاصول ، وليس في وسعهم أن ينكروا دلالة الاساطير الكونية على معايير الاخلاق وبواطن الشعور ، وليس في وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر في رواية تلك الاساطير ، ونحسب أن السهو

عن بيان هذه المفارقات في كتاب يوضع عن « الشيطان » يخل بأمانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن الكاتب الشرقي ـ من أبناء هذا العصر خاصة ـ يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو في هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الاباطيل التي تتجاوز الخطأ الى الضرر بالنفوس .

*

ويبدو أن اليونان المتأخرين ـ قبل عصر المسيحية ـ قد استعاروا من الشرق فكرة اخرى عن أصل الخطيئة ، أو أصل الخطايا الشيطانية جميعاً ، فردوها الى الكبرياء ، وأطلقوا على هذه الخلة اسم الهوبري « Hubris » ، وهي كلمة قريبة من دلالات الرجس في اصطلاح الدينيين .

ولكن الكلام في الكبرياء لا يغني عن تعقيب ينفي عن الكبرياء محاسنها ، ولا يبقى لها غير عيوبها التي ينكرها الدين كما ينكرها معيار الاخلاق .

فالكبرياء على الاله الكامل العظيم في صفاته وآلائه كفران لا شك فيه ، وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . أما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء في سبيل أكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس في استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق للحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع في غير موضعه ومغزاه .

الفصل الثالث

* في طريق الاديان الكتابية

* العبرية
* المسيحية
* الاسلام

في طريق الاديان الكتابية

قبل أن ننتقل الى عقائد أهل الكتاب في قوة الشر العالمية نتريث هنا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التي عبرها الانسان في هذا الطريق ، من خطواته الاولى حيث لا تمييز بين خير وشر ولا بين اله وشيطان ، الى غايته القصوى في حضارات الامم القديمة حيث ظهرت ديانة التوراة ، وهي أول الاديان الكتابية في التاريخ .

آمن الانسان بالارواح والاطياف من أول عهده بالدين في الهمجية الاولى ، وآمن منها بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شيء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينهما معنى في مقياس الاخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الانيس والحيوان الضاري ، أو بين الحشرة المأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين أحدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الارواح أو طيف من الاطياف كلما ارتجى نفعه واتقى أذاه .

وخطا في طريق التدين خطوة أخرى حين قسم الارواح والاطياف الى طيب وخبيث ، واحتاج الى الكاهن والساحر ، ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ، ويجزي عنه الطيب بالدعوات والقرابين ، وعمل التخصص عمله البطيء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وان عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور الراعي ودور الصياد وان كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذي يفتك بالاناسي ، والماشية .

ثم خطا الانسان خطوة أخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة ، وبين المنفعة التي تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التي تصدر عل الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه في هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذي يضمر السوء ويتوارى عن النظر ـ أقرب الى الحس والخيال

من الحية التي تزحف على التراب وتندس في الجحور كيداً وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ، ولم يكن في وسعه أن يتوهم شيئاً سواه ، ولهـذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزاً الى أحدث العصور .

وعاش الانسان عصوراً مديدة يعمل الاعمال أو يتركها لانها مأمونة نافعة أو محذورة وخيمة العاقبة ، فلما أخذ يعملها أو يتركها لانها واجبة مطلوبة أو لانها محرمة محظورة ، كانت هذه خطوتـه الاولـى في طريق التمييز بين الواجـب والمحرم وبين الخير والشر في أضيق الحدود .

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة أو شر قبيلة واحـدة ، حتـى تجمعـت القبائل في أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة ، فعمت نظرتـه الـى الشـر والخير ، ولـم تزل تتسـع في عمومهـا حتـى برزت في ذهنـه فكرة « النـوع الانساني » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منهـا وأشـرف جداً في مغازيها وثمراتها وهي فكرة الانسان عن ضمير الانسان ، ولم يكن في الوسع أن يعقل شيئاً عن « الضمير الانساني » قبل أن يعرف ان الانسان نوع واحـد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والاقوام .

وكانت الحضارات الاولى خطوة بل خطوات واسعة في هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحياناً ولا تتقابل دائماً في الاتجاه الى معنـى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشروراً قبل أن تجتمع في خير واحد بمقياس واحد أو في شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بني الانسان .

كانت مسألة العالم مسألة دولة وشريعة ونظام في عرف الحضارة المصـرية الاولى ، فالخير شريعة تستتب عليها الامور ، والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذي استتبت عليه .

وكانت المسألة مسألة كونية في عرف الحضارة الهنـدية الاولـى ، فالـكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ، ولا خير في غير الاعراض عنه والنفاذ الـى ما وراءه ، ولعل المجاز هنا قد فعل فعله في المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فناً قديمـاً في حضـارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور ، وما عداها أو ما دونها من

الحلي الزائف والحلي المبذول ، وكلها كثيرة قديمة في بلاد الهنود .

وكانت المسألة مسألة فلكية في حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل .

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما في الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هي خلاصة الديانات الثنوية في مختلف المذاهب والتأويلات .

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل في تلك الحضارة ، أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية في الصميم ، لان الخير والشر فيها مقسومان بين السعود والنحوس كما سطرت في أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات .

أما الحضارة اليونانية الاولى فالخير فيها مسألة حظ ، والشر فيها مسألة اعتراض لذلك الحظ الذي لا حيلة فيه للمحظوظ ولا للمعترض عليه .

فلم يكن « زيوس » رب الارباب ، لانه أطيب منها أو أعلم منها أو أرفع منها خلقاً أو أشرف منها مقصداً ، اذ انه في الواقع أقل من الاكثرين بين الارباب في جميع هذه الخصال ، وانما « الحظ » وحده هو الذي يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضاً من الاعراض أو مصادفة من المصادفات في الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الاساطير البدائية التي لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التي وضعها نوابغ الشعراء ، ومثلوا فيها مصائر الابطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذي حسنة أو ذي سيئة من المتفائلين أو المتشائمين ، واذا لخص النزاع بين زيوس وبرومثيوس في قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم في كلامهم على السبب والمصادفة ـ أو البخت كما ترجمه الفارابي ـ الا لانهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة في طريق كل تفكير ، وكان ايمان العظماء به قد بلغ من الرسوخ والخطر ألا يقدم أحدهم خطة من خطط السلم أو غزوة من غزوات

الحرب الا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه .

على أننا ـ في هذه العجالة ـ في مقام الحد الفاصل بين الحضارات الاولى والاديان الكتابية من وجهة النظر الى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الالهية التي آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الانساني » وما تلاها من فكرة أرفع منها وأشرف وهي فكرته عن « ضمير الانسان » .

ونحسب أن الحد الفاصل انما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الاله الاكبر ، وهما : صفة السيادة والسلطان ، وصفة الخلق والتكوين .

فالاقدمون قد آمنوا بخلق الله للاكوان ، ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منساقين في ذلك مع عقائد الفطريين الاسبقين الذين كانوا يؤمنون بأرواح لم ينسبوا اليها خلق شيء من الاشياء فضلا عن خلق الكون الذي يحتوي جميع الاشياء . ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط الى عبادة الاله المتسلط ، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان .

أما الديانة الكتابية فقد أبرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الالهية ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير . ويأتي من هذا الفارق شيء كثير .

يأتي منه أن الشر في الحالة الاولى انما يحسب من قبيل الحماقة قبل أن يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه إنه يليق أو لا يليق كما يقال عنه إنه عمل حكيم أو غير حكيم . وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون واسع ، لم تعبره الامم الانسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى في عقائد الاديان الكتابية مما قبل التوراة الى ما بعد الاسلام .

الاديان الكتابية
(١) العبرية

نسميها العبرية لاننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منـذ نشأتهـا في بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية .

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لان النسبة الى يهوذا حدثت بعد موسـى عليه السلام .

ولا يصدق عليها اسم « الموسـوية » لان موسـى قام بالدعـوة بعـد يعقـوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام .

ولا يصدق عليها اسم « الاسرائيلية » لان الاسرائيلية تنسب الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم أجمعين يلقب بالعبري في بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التي دانت بهـا العشائر التي نشأ فيها ابراهيم أصدق من كل اسم آخر في الاحاطة بديانة القوم ، من أوائل تاريخها وفي جميع أطوارها المعلومة ، الى أن عرفت أخيراً باسـم ديانة التوراة .

وينبغي أن نميز العبرية ، في نشأتها الاولى ، من ديانة التوراة كمـا تلقاهـا المسيحيون الاوائل ، وكما انتهت الينا مهذبة في القرآن الكريم .

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الاولى وعقائد التوحيد من قبل ظهورها الى ما قبل المسيحية بنحو مائتي سنة ، فلم تستقم على عقيدة الاله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية الا حوالي القرن الثاني قبل الميلاد .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة انسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات ، وتناط فيها العقيدة بضمير الانسان غير منظور فيه الـى عنصـر أو نسب ، وانما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين .

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الالهي الى الافق الذي ارتفع اليه آخر الاديان

الكتابية وهو الاسلام .

بل كان العبريون الاوائل ينكصون حيناً بعد حين الى شعائر الاوثان والاصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الارباب لرب ابراهيم فلا يعودون الى الوحدانية ـ أو ما يشبه الوحدانية ـ الا بعد تقرير الدعوة من جديد .

ولبثوا زماناً يصفون الاله بالصفات التي لصقت به في الوثنية أو في ديانات الحضارات الاولى ، فكان الاله عندهم يغار من الجنس البشري ، ويشفق من يوم يهتدي فيه الى شجرة الخلود ، ويتوعده بالموت ان أكل منها ، فيقيم الملائكة الاشداء حرساً حولها ، كما روي عن الارباب البابليين في حواشي قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام إنهم يتهمون « يهوا » بالكيد لهم ونصب الفخاخ في البرية للتغرير بهم ، وانه لم يستدرجهم الى سيناء الا لانه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيداً من أرض وادي النيل التي أخرجهم منها .

وكانت فكرة السيادة في عبادتهم للاله غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الاولى ، فلم ينكروا وجود الارباب التي تدين بها العشائر الاخرى ، ولكنهم أنكروا سيادتها ، ودانوا بالولاء للاله « يهوا » وحده ، كما يدين الشعب لملكه ، وهو يعلم بملوك غيره لا تجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة اذا أشرك بينهم وبين ملكه في فرائض الولاء .

ويتضح من مقارنات الاديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها في « الشخصية الشيطانية » كلما تقدمت في تنزيه الاله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذي يصدر من الشيطان .

ولهذا لم يشعر العبريون الاوائل بما يدعوهم الى عزل الشيطان أو اسناد الشرور اليه . لانهم كانوا يتوقعون من الاله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة الى الشيطان وتارة الى الاله كما حدث في قضية احصاء الشعب على عهد داود ، فانه في المرة التي ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل انه هو الذي أغرى داود باحصاء الشعب كما جاء في الاصحاح

الحادي والعشرين من سفر الايام الاول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها في سفر صمويل الثاني فيقولون انه : « حمي غضب الرب على اسرائيل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا . . » .

ولم يكن الشيطان هو الذي أغوى حواء بالاكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هي صاحبة الغواية هنا جرياً على سنن الاقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي وبين الخطيئة الاخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز الى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز .

ولم يذكر الشيطان قط في كتاب من الكتب قبل عصر المنفى الى أرض بابل سنة (٥٨٦ قبل الميلاد) . . ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، فجاء مرة بمعنى الخصم في القضية وجاء مرة أخرى بمعنى المقاوم في الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذي تصدى لبلعام في طريقه ، لانه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم الا حيث قيل في الاصحاح الحادي والعشرين من سفر الايام انه « وقف الشيطان ضد اسرائيل » .

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوي بين الاله وبين عزازيل رب القفار أو الجني الذي يهيمن على الصحراء ، وكان ايمانهم بوجود الارباب الاخرى التي يعبدها غيرهم من الامم بديلا من صور الشياطين ، لانها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » الى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وانما تأتي النقمة اذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الارباب الاجنبيين ، البدلاء من الشياطين .

وقد تمثل الشيطان في صورة الواشي الموغر للصدور في قصة أيوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم الى الحضرة الالهية وجرى سياق القصة على النحو الآتي كما جاء في الاصحاح الاول من سفر أيوب : « وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب وجاء الشيطان أيضاً في وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان في الارض ومن التمشي فيها ، فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ؟ انه ليس مثله في الارض . رجل كامل ومستقيم يتقي

الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجاناً يتقي أيوب الله ؟ أليس انك حميته بحياطتك إياه وحياطة بيته وكل ما يملك من ناحية ؟ . . باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الارض . . . »

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان .

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح المؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر في الادب العربي ان لم تكن هي القصة بعينها منقولة في رواية أخرى ، ونعني بها القصة التي أشار اليها امرؤ القيس حيث يقول في معلقته :

وواد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادي وكلمة العير في هذا البيت بديل من كلمة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار في وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها ، وكان حمار بن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على ابنائه صاعقة في بعض أسفارهم احرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله ، وقال : « لا أعبد رباً أحرق بني » ثم عكف على عبادة الاصنام فأرسل الله على واديه ناراً أتت عليه وجعلته مضرب المثل في الخراب فيقال على هذه الرواية : « اخلى من جوف حمار » .

وأياً كان القول في هذه القصة فلا خلاف على قصة أيوب ولا على نسبة أيوب الى العرب ، ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية في « شخصية الشيطان » . . وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التي لم يميزها العبريون لانهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الاله الذي يعبدونه أو تعبده الاقوام الاخرى عن قبائح الشيطان .

وقد نبهنا الى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الاوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة الى تحريرها في صدد المأثورات العبرية بأقل من الحاجة اليه

في صدد المأثورات اليونانية ، لان الاوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم ، وبين تاريخ العهد القديم ، على اعتباره كتاباً من كتب المسيحية التي يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها ، وينظر اليه بعضهم كأنه تراث ادبي موصول بتراث الدين .

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وانها أسبق الديانات الكتابية في التاريخ أن هذه الديانة سبقت المسيحية والاسلام الى أصول العقائد والعشائر في جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والاسلام شيئاً غير ما جاء من تطور الافكار ولم يكن مجيئه على يديهم في أكثر الاحيان .

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان أنبياء العرب أساتذة الانبياء العبريين في أهم الاصول الدينية وهي مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب . ففي سفر أيوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول ، وقد تتابعت النبوءات في بلاد العرب قبل أن يكون للنبوءة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العرب هوداً وصالحاً وشعيباً وذا الكفل . وجاء في التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضاً ان شعيباً علم موسى وهداه الى سياسة قومه ، وان بلعام كان حكماً بين اسرائيل وخصومها في جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبي « ارميا » يتبين أن المجهول من أخبار الانبياء في بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور في كتب العهد القديم ، لانه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب ، وينادي : أما من حكمة بعد في تيمان ؟

وانما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم في مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولا بد أن يذكر على الدوام ان هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفي هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة الامم التي تقدمتهم في ادراك الصفات الالهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه الكتب أخذ الآخذون ما حسبوه تراثاً اسرائيلياً وهو في حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور .

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الاصالة والنقل في القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا الى ما بعد الاسلام ينقلون عن العرب قصصاً كان موطنها في أرض بابل وأشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالتنبيه في هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا اليها أيام السبي قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة الا بصيغتها العربية بعد عصر السبي بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم في الديانة الكتابية أن يكون القوم معيرين وانهم لا يستعيرون .

ويدل تأخر المصادر التي فصلت أوصاف الشيطان على تأخر القوم في التمييز بين الخير والشر كما ميز بينها أبناء الحضارات التي تقدمت الاشارة اليها . ففي الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للانسان وعن أثر هذه العداوة في خروج آدم من النعيم ، وفيها ارتقاء من وسوسة الحية الى وسوسة شمائيل رئيس الملائكة الذي عمل في القصة عمل ابليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالي القرن الثاني قبيل الميلاد في الكلام على « مشطيم » اسم الفاعل من مادة شط في اللغة العربية يقابله كلمة « مشيطن » في اشتقاق اللغة العربية ، وتحتوي التلموديات في مثل هذا العصر كلاماً عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل في العربية « بلاعول » أي لا معول عليه ولا خلاق له ولا خير فيه . ويحتوي كتاب اخنوخ ، قرابة هذا الوقت ، كلاماً عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة ان الموت نزل على الدنيا من جراء حسد الشيطان . وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابلية كما ذكروا « الشعريم » اي الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أي الشياطين الليلية والكتيب والدبير[1] وغيرها من الجنة والعفاريت التي اقتبسوها بمدلولها فنقلوها بأسمائها ونعوتها .

*

ونعود فنقول ان الديانة العبرية تحملت أعباء التوسط بين الديانات الوثنية

---

(١) اهم المراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الاسطر كتاب « الشيطان صورة » لمؤلفه ادوارد لانجتون Edward Langton

وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان في عقائدها هي أوفق مقياس لسلم التطور الذي ارتقت عليه من أقدم عهودها في التاريخ الى العهد الذي ظهرت فيه المسيحية .

ففي أقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الارضية من انسانية وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخلائق وخلائق الشيطان .

فكان الشيطان يحضر بين يدي الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون الى الارض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الاله نفسه يمشي في ظل الحديقة مبترداً ، ويأكل اللحم والخبز ، ويحب ريح الشواء ، ويغار ويحقد وينتقم ، كما يفعل كل مخلوق ، من مخلوقاته في الارض او في السماء .

وتطورت عقائدهم في الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة في أساطير الوثنيين الاقدمين ، فمنهم ملائكة للآبار وملائكة للانهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد وآخرون للاسماك والحيتان ، ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل في طاعة الشيطان ويتنقل بين الاعمال السماوية واعمال الارض والهاوية كأنها نمط واحد من الاعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة .

وتروي « الزوهار » ان الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لاول مرة ملء السماوات والارضين فتساءلوا مستنكرين : أفي الكون إلهان ؟ فصغره الله وجبل له جسماً من التراب .

وفي ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازي قاد رهطاً من الملائكة الى الارض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمي الجبل بهذا الاسم لانهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان .

ويروى عن أخنوخ انه هو الذي عزر الملائكة المتمرسين بشهوات الارض

وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الارض وأن تعيشوا سماويين لا تأكلون ولا تشربون[1] .

ومن علماء الاساطير العبرية - مثل ابشتين وجرنبوم - من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الاسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط إبليس عن هذه المصادر ومعها كثير من الاوصاف والفعال التي يتميز بها الشياطين .

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهان الديانات البابلية والمجوسية ، ويسمعون منهم أوصاف أهريمان اله الظلام وجنوده ، فينقلونها الى الشيطان ، ويضعون هذا الشيطان شيئاً فشيئاً في موضع العدو المناجز لله والانسان ، ومما اقتبسوه من أولئك الكهان - من الفصل الثالث في كتاب البنداهش « Bundahesh » - أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملأ آفاق الفلك الاعلى والارضين حتى لم يبق فيها منفذ لابرة ، ونفث سمومه فامتلأت حتى هبط اله الخير « أورمزد » الى الارض فرده الى قراره .

ولوحظ في المقارنات بين العقائد أن اختصاص الشيطان بخلائقه التي تنافر الاخلاق العليا انما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أنبياءهم الذين اكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعاً قبل القرون الثلاثة الاخيرة التي سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشيطان بخلائقه المنافرة للخير « عقيدة رسمية » يقرها الرؤساء المسؤولون ، ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذي تعرف مصادره حيناً وينقل من رواته في البيئة التي يشيع فيها بغير مصدر معلوم .

فلما تلاقت العبرية والمسيحية في الزمن كانت صورة الشيطان على ما انتهت اليه يومئذ ميراثاً مشاعاً لا يستند فيه اليهود الى نسختهم من التوراة ، ولا الى أسانيدهم « الرسمية » ، ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولا يمتنع أحد

---

(١) تراجع في كل هذه العقائد مجلدات الاساطير اليهودية جمع جنجبرج
« The Legends of the Jews » by Gingburg

على غير ملتهم أن يقبلها ، لانهـم نقلوهـا كمـا نقلهـا سواهـم من مصادرهـا المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا الى نبي من أنبيائهم المعدودين .

الاديان الكتابية
(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الاناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين اليه على اختلاف المعتقد والنية .

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم ، واسم بعلزبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين إنه رئيس الشياطين .

وتذكر الاناجيل أخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة إنهم صرعى الشيطان ، وترد كلمة الشيطان في الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانية التي تطلق على ابليس « Diabolos » أو مقابلة للكلمة التي تطلق على العفريت والروح المتسلط « Demon » سواء كان شريراً أو غير شرير .

وفي أحد هذه الاخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنها إنها « كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة » فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : «يا امرأة! انك محلولة من ضعفك . . » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا .

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد المسيح قال الفريسيون إنه يحالف رئيس الشياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة في الاناجيل ورواها انجيل متى فقال : « انه أحضر اليه مجنون أعمى وأخرس فشفاه وتكلم الاعمى والاخرس وأبصر . فبهت كل الجموع وقالوا : العل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين الا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت . فان

كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يخرجون ؟ لذلك هم يكونون قضاتكم . ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله » .

وموضع الالتفات في كلام السيد المسيح هنا هذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وأن السلطان الذي لا يكون بقوة الشيطان إنما يكون بروح الله .

وأصرح من ذلك الاشارة الى سلطان ابليس على العالم قصة التجارب التي امتحن بها السيد المسيح في البرية ، وكان إبليس هو الذي يجربه ويحاول إغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفي انجيل لوقا هذه القصة اذ يقول : « إن يسوع رجع من الاردن ممتلئاً من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح في البرية أربعين يوماً يجربه ابليس ، ولم يأكل شيئاً في تلك الايام فلما تمت جاع اخيراً ، وقال له إبليس : إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده ابليس الى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ، وقال له ابليس : لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لانه الي قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد . فان سجدت أمامي يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ، ثم جاء به الى أورشليم واقامه على جناح الهيكل وقال له : إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل لانه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لا تجرب الرب الهك . ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقه الى حين »[1] .

وهذه القصة أوفى ما جاء في الاناجيل عن سلطان ابليس على ممالك العالم وأنها دفعت اليه ليعطي منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهريمان اله الظلام في ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك الا ما يدفع اليه بمشيئة الاله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة في الديانات الكتابية بين اله الظلام

(١) الاصحاح الرابع من انجيل لوقا

وأمير الظلام كما سمي ابليس بعد عهد السيد المسيح .

وآخرة ابليس كما جاء في كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الالهية ، ولا تصعد الى المنزلة التي أنزل بها الفرس الاقدمون اله الظلام في ديانتهم الثنوية ، وفي الاصحاح الخامس والعشرين من انجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهي اليها الملائكة والقديسون وينتهي اليها الشياطين والاشرار : « ومتى جاء ابن الانسان في مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسي مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركي أبي ، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم . . . ثم يقول أيضاً للذين عن اليسار : اذهبوا عني يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته » .

ويقول السيد المسيح فيما رواه انجيل لوقا إن الشيطان يغربل تلاميذه . وقال الرب : « سمعان ! سمعان ! هو ذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة . . » الاصحاح الثاني والعشرون .

ويذكر انجيل لوقا قبل ذلك أن الشيطان يداخل من يوسوس لهم وأنه « دخل في يهوذا الذي يدعى الاسخريوطي . . . فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند » ليسلم المسيح اليهم .

وينفرد انجيل يوحنا بكلام منسوب الى السيد المسيح يصف فيه ابليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك في غير موضع فجاء في الاصحاح الثاني عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم : « الآن دينونة هذا العالم . الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً ، وانا ان ارتفعت عن الارض أجذب الي الجميع » .

وفي الاصحاح الرابع عشر يقول : « . . أن أبي أعظم مني ، وقلت لكن الآن قبل أن يكون . . . لا أتكلم معكم كثيراً لان رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء » .

وفي الاصحاح السادس عشر : « أما الآن فأنا ماض الى الذي أرسلني وليس أحد منكم يسألني أين تمضي . لكن لاني قلت هذا قد ملأ الحزن قلوبكم .

لكني أقول لكم الحق انه خير لكم أن انطلق ، لانه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بي ، وأما على بر فلأني ذاهب الى أبي ولا ترونني أيضاً ، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين » .

وفي انجيل لوقا وردت الكلمة التي شبهت لقراء الاناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الاناجيل بعدة قرون ، ففي الاصحاح العاشر من انجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله : « اني رأيت الشيطان ساقطاً كالبرق من السماء » .

أما غاية ما وصف به ابليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه في رسالة كورنثوس الثانية : « ان كان انجيلنا مكتوماً فانما هو مكتوم في الهالكين الذين فيهم اله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين » .

وانما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى أمامه معابد « مترا » في كل مكان يرحل اليه ، ويسمع أتباع مترا يذكرون اله الظلام واله هذه الدنيا السفلى التي تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة « مترا » بالظفر والغلبة في الدهر الموعود ، وقد أخذ العبريون تقسيم الدهر الى دهرين من أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الاوائل أن يهونوا من شرور اله الظلام في هذه الدنيا ، بل كانوا يسبقون أتباع « مترا » الى تعظيم الفارق بين النور الالهي والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان باله هذا الدهر انما هو من قبيل تحقير الدهر الذي يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الاقدمين في الزراية بأدعياء الربوبية عند الامم الاخرى ، فكان من أساليبهم في انكار ربوبية بعل أن يسموه ـ على رأي الكثيرين من الشراح ـ رب الذباب ورب الزبالة ، ومن ثم اسم بعلزبوب وبعلزبول .

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على المامه بالاساليب اليونانية في التعبيرات ، وسماعه بالآراء التي كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقونها مرة في معرض الطبيعيات ومرة في معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن ابليس في رسالة أفسس : « انه رئيس سلطان الهواء الروح الذي يعمل الآن

في أبناء المعصية » ومنه قوله في تلك الرسالة : « البسوا سلاح الله الكامل لكي تقدروا أن تثبتوا ضد مكان ابليس ، فان مصارعتنا ليست مع لحم ودم ، بل مع أحفاد الشر الروحية في السماوات » .

ويرى اللاهوتيون المحدثون أن أقوال بولس هنا تحتمل الاشارة الى الطبيعيات اليونانية كما تحتمل الاشارة الى التراث العبري في مسائل الروحانية . قال الدكتور هوجو راهنر « Hugo Rahner » في بحثه عن الروح الارضي والروح الالهي في علم اللاهوت القديم : « أن عبارة رئيس سلطان الهواء في كلام بولس الرسول تثير أسئلة شتى في التاريخ الديني ينبغي أن نعرض لها ان أردنا أن نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة في طبيعة الارض الروحية الشيطانية . . افلا يقع في أخلادنا أننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ اليس تصور الروح الشيطاني سلطاناً على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحاً من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ ان التشابه لظاهر وان البحوث التي عرضت لهذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الارجح على ما يبدو أن بولس الرسول انما اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود أن الارواح الشريرة لا تهبط الى ما دون الهواء المحيط بالارض وأنها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وإنما ترمز هذه الصورة في ذهن بولس الرسول الى خصومة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعالم عنده في أساسه إنما هو الانسان ، وهذا الانسان الذي يوصف بأنه أرضي وأنه موثق الى الارض وأنه خاطىء ، خليق ان يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام الى النور ومن الشيطان الى الله » .

*

ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحية الاكبر الذي تتفق الكنائس على اعتماده في العقائد الجوهرية ، ولكن العهد الجديد ينقسم الى ثلاثة أقسام : « أولها » الاناجيل و « ثانيها » أقوال الرسل « وثالثها » أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء في شروح بعض اللاهوتيين المحدثين أن الاناجيل وحي غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال

الرسل وحي وتفسير ، وأن أقوال صحابتهم تفسير بغير وحي ، وقد جاءت في أقوال الرسل وما بعدها تفسيرات في المنزلة الاولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعاً ما جاء عن خطيئة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الاشارة اليه في الاناجيل .

ففي هذه المراجع اول اشارة الى تسمية الحية بالشيطان ، كما جاء في الاصحاح الثاني عشر من أعمال الرسل ، حيث يذكر التنين ويقال عنه « إنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو ابليس والشيطان الذي يضل العالم » .

وفي رسالة يوحنا الرسول الاولى : « من يفعل الخطيئة فهو من إبليس ، لان إبليس من البدء يخطىء ، ولاجل هذا ظهر ابن الله لكي ينقض أعمال إبليس » .

وفي هذه الرسالة أيضاً أن الانسان من الله أصلا ولكن « العالم » كله قد وضع في الشرير » .

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت الى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لا يرتقي الى طبقة الاقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد للترجيح والتفسير ، وسمي بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة في اليونانية لأنه كان من المراجع التي يضن بالاطلاع عليها على غير الواصلين في الايمان والمعرفة .

وعندنا أن الفرق في أوصاف الشيطان بين الاناجيل وما تلاها انما هو الفرق بين الاوصاف السماعية والاوصاف القياسية أو العقلية ، فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » أو دور معلوم في الاديان الكتابية قبل القرن الاول للميلاد ، وإنما كان في الكتب العبريةأو اليهودية واحداً من الملائكة المغضوب عليهم ، أو واحداً من الارواح المتمردة ، فلا يعرف الا بما سمع من أوصافه ، ولا شأن له في ذلك الا كشأن الابطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية » التي تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ، ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس .

أما الشيطان الذي تقرر له « دور » معلوم أمام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر أن ينسب اليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الالوان والملامح والخصائص والتبعات ، ويجوز له كذلك أن ينسب له ما سوف يأتي به بعد أزمنة طويلة في نهاية العالم ومصيره المقدور .

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الارضي في مقابلة العالم الالهي في السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة الى رواية السماع ، وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب اليه كما تنسب الخصائص الى معدنها بحكم البداهة التي لا تحتاج الى عيان أو الى اسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول في رسالته الأولى الى أهل كورنثوس إن رؤساء هذا الدهر ـ أي الشياطين كما جاء في تعبيراته السابقة ـ هم الذين صلبوا السيد المسيح ، ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى ما يصنعون لانهم ظنوا أنهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح الى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الازل بما دبروه ورتبوه ، فقال عن حكمة الايمان وحكمة الشيطان : « اننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله في سر الحكمة المكتوبة التي سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها أحد من عظماء هذا الدهر ، لانهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد » .

فاذا كان الائمة الاسبقون في صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد في الاناجيل ولا في كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التي تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية في كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب .

وينبغي أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا في تطور الاخلاق والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التي شاعت في القرن الاول للميلاد .

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد في العقائد البدائية ، وكان الروح الضار كالحيوان الضار في مقاييس الاخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون أن يلقنها الشيطان غواية آدم . فهي حيوان

صار يؤذي ويخيف وكفى بذلك وصفاً للشرير في العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان في الميزان حتى وجب عقلا أن يكون الشيطان وراء الحية في غواية آدم وحواء ، وحتى وجد في عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لذعة الحية الماكرة ودسيسة الشهوة والعصيان .

*

الا أن المسيحيين الاوائل استرسلوا في حديث الحية لانهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع في « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس في بحوث الفقهاء وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتي عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس الى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية انما ينقل رموزاً وجدانية قابلة للمشاهدة في الحس كما هي قابلة للمشاهدة في الرؤيا ، وليس في الاشياء التقليدية ولا في تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة ، واذا بولغ في تشويهها وتبشيعها وتعظيم ضررها فهي التنين الذي يضيف اليه الخيال من الاشياء والطبائع ما لم يتحقق في الحية المعهودة ، فهو ذو رأسين أو ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه الصورة للشيطان أنها كانت شائعة من أقصى الصين الى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وانها كانت شائعة كذلك في كتب العهد القديم ، وصادفهم خطر التنين الاكبر ، أو خطر الحية الشيطانية في مقر عبادتها بآسيا الصغرى ، فكثرت في رسائل العهد القديم اشارات النساك الى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التي يظهر أنها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم ، وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التي كان أصحابها يتألبون عمداً أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد .

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التي اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية وقيام هياكلها واشتغال اصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين ، وصور اخرى على مثال التنين في جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس انسان ذي قرنين أو

أذنين صاعدتين في مكان القرنين ، وكلما تقدم اللاهوت في وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح انسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله في إيداعه دلائل الشر التي تغني عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان ، ولكنهم ظلوا الى زمن اخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون في هذا الشبه بصورة « الساتير » اليوناني المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور .

أما الصور اللاهوتية فقد أفاض الآباء الاولون في شروحها وفروضها واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه في تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان « Tertullian » المتوفى سنة (٢٣٠ م) وأروريجين المتوفى سنة (٢٥٤ م) أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة في وصف الطبيعة الشيطانية ، واسناد الافعال والنيات التي تلائمها الى الشيطان وأجناده على حسب درجاتهم في السيادة العالية ، وعند ترتوليان أن الشيطان الاكبر يرصد شيطاناً من جنوده لكل انسان من بني آدم وحواء ، وأن أدلة وجود الشياطين عامة متواترة في عقائد المهتدين والوثنيين المضللين ، وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الانسان ويتسلل الى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحي المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ في هذه الشياطين ، ويستطيع أن ينقذ منها فرائسها اذا صدقت نيتهم في طلب الخلاص منها ، وليس المسيحي الذي يعجز عن قهر الشيطان خليقاً عنده بوصف الايمان .

ولا شك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الاولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره ما لم يكن لاحد من معاصريه ، وكان الى جانب ذلك مؤمناً راسخ الايمان تقياً شديد التقوى ، ولم يكن له مطمع في رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ، فقد جب نفسه ليتقي فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ، ويعظ النساء في البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التي تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ، وهذا مع إسهامه في التفرقة بين دواعي الشر التي يوحي بها الشيطان وجنوده ، ودواعي الشر التي ركبت في

طبيعة الانسان وهي شهوات الطعام ولذات الجسد وفي مقدمتها اللذة الجنسية ، ولعله في كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات لم يثبت قدرته على الغواية كما أثبتها على ذلك النحو الرهيب .

ولم يجد أوريجين مشقة في إسناد الشر والخطيئة الى سيادة هذا العالم ، فانه عاش في زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب السيادة هو المحنة التي اسقطت ابليس وجنوده ، وأن « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذي يزهد في المواكب ويأتي كما أتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقاً لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه في تكوين الشيطان أنه ذو جسد يلائم مقامه في الهواء الكثيف المحيط بالارض ويتطلب الغذاء من الدواخين والابخرة والدم الخالص مجرداً من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الالهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها .

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ، ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا ان الطبيعتين تلتقيان في ذرية الملائكة الذين هبطوا الى الارض فعشقوا بنات الناس وقالوا إنهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه .

وللشيطان سبيلان الى غواية الانسان في رأي الفقيه الفيلسوف : أحدهما أن يوسوس له من حيث لا يراه لان طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجري من سريرة الانسان مجرى النفس الذي لا تراه العينان ، والسبيل الآخر أن يستولي عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالامراض والعاهات ، وقد يسلط الاوبئة والطواعين على المدن والاقطار الواسعة ليذودها عن رحمة الله ، وله جنود في كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الاوثان أو يعبدون رباً من الارباب غير الاله الواحد الذي يدين به أتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الارباب والاوثان الا شياطين من جنود ابليس تنتزع أبناء آدم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال .

وكان من عقائد أوريجين أن التمييز بين الخير والشر فطرة في كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء في ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الاكبر إبليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا بما داخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد ، فغلبتهم الشقوة ، وعز عليهم ان يستمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فأقبلوا على الشر وأمامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلست له قيادتهم ، ورفعوا عن أعينهم تلك الغشاوة التي وضعوها عليها بأيديهم ، ولا بد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التي يبتلى بها العالم آخر الزمان .

ولما أراد أوريجين أن يقدر للشيطان مصيره في نهاية العالم لم يتبع اقوال المتنبئين وأصحاب الرؤى ، بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدي الحكمة الحديثة في عصره ، ولم تكن في عصره حكمة أحب اليه من الحكمة الرواقية التي تلقاها اليونان قديماً من الهند ، وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبساً يقربها الى العلم وأدب السلوك .

فقد وجد « أوريجين » في عصره قصصاً دينياً مستفيضاً عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة في آخر الزمان ، وفي هذه القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وإبليس رئيس الشياطين ، وأطوار القتال الذي يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون في باطن الارض أو يقيدون بالاغلال حتى الموعد الاخير ، وتروي هذه القصص أخباراً عن الشياطين والملائكة المطرودين الذين لا يستطيعون الصعود الى السماء ، أو الذين يصعدون اليها فيرتدون عنها خوفاً من الرجوم الالهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو في مغاور الارض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين ، ثم تنشب الملحمة الاخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الاول بألف سنة ، فيذهب أهل النار الى النار ويرتفع أهل النعيم الى النعيم .

أما « أوريجين » فنهاية العالم عنده هي نهاية الدورة الكونية التي اعتقدها الهنود من قبل ، ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم ، وفرضوا لها آداباً من آداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهراً من شوائب الحياة

الارضية ، فيخلص الى الوجود الحق في آفاق عليين .

وستنتهي الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الابدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب في عالم لا موت فيه ، ويتعذر ـ طبعاً وعقلا ـ أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذي ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز الا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتي تباعاً على درجات مترقيات ، ولكنه لا يكون متى أتى الا كما ينبغي أن يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب .

ونكتفي بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه في التعريف بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الاصح لانه قد جعل هذا التعريف باباً من أبواب الدراسة اشتهر في الازمنة الاخيرة باسم « الديمنولوجي » أي علم الشيطانيات ، ولكننا لا ننتقل منه الى ما بعده دون أن نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص . ففي ذلك العهد المريب لم تكن في العالم عقيدة غير المسيحية توحي الى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالامور المغيبة في أدق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها بين ظلمات الحيرة والريبة التي رانت على المذاهب جميعاً ، وتركتها لمعتقديها أشبه شيء بالسلوى التي يزجى بها الفراغ ولا تمضي مع الجد خطوة الا عادت الى اللعب خطوات ، وقد كان أشبه المذاهب بالجد في ذلك العصر مذهب المعرفيين « Gnostics » الذي كان في حقيقته عنواناً لكل مذهب يرد على الخاطر في تلك الآونة ، اذ كانت المعرفة الواناً ، وكانت الوان الوسائل التي تطلب بها لا تقل عن ألوانها ، ومنها ـ فيما نحن بصدده من حديث الشيطان ـ معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لان الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظاً يتاح للجاهل ولا ينبغي لهم أن يتجنبوه ، وقد أباحت طائفة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التي كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والارجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة أوشكت أن تعم القارة الاوربية من أقصاها شرقاً الى أقصاها غرباً في القرون الوسطى ، وبقيت منها ـ كما تقدم ـ بقية الى أوائل القرن العشرين .

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على أسماء اكبر من أسماء القديس أوغسطين ، والقديس توما الاكويني ، ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذي سمى هو نفسه شيطاناً ، وسمى الحبر الاعظم في زمانه بالشيطان .

*

عاش القديس أوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ ـ ٤٣٠) ، وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض في موضوع الشيطانيات ، وذهب في علة سقوط الشيطان مذهباً كمذهب أوريجين ، فقال إنه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه ، فأنزله الله من سماء الاثير الصافي الى هواء الارض الكثيف ، ولا يمتنع عند أوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائماً للتناسل من الاجساد البشرية لان الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الآدميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد أن يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الانسان ، كما زعم الفيلسوف الافلاطوني أبوليوس « Apuleius » الذي كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى أن يقول إن امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الانسان ، فان الحيوان ليمتاز على الانسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر ، والكلب بالشم ، والطير بالخفة ، ولا يقال انها أرفع منه رتبة لرجحانها عليه في هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشري ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء في وعيد السيد المسيح .

وأوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن « مدينة الله » أو عن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التي قد يسيطر عليها الشيطان عنوة أو بالكيد والخديعة ، وفي وسعه أن يتسلل الى الارواح من مسكنه في طبقات الهواء ، او يترصد لها وهي صاعدة الى الملأ الاعلى ، فانها في معراجها لا تني تعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الابرار ،فاذا كانت في حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد في المطامع فلا سلطان للشيطان عليها في معراجها الي عليين ، واذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها

فتلك هي العلاقة التي يقنصها منها الشيطان ! ويعوقها بها من إلصعود ، ويهبط بها الى هوائه أو هاويته حيث يشاء .

ويرى أوغسطين كمن تقدموه وأتوا بعده أن الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الاوبئة والمداواة منها ، وأن الاوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفي وسعها أن ترضي عبادها بقضاء المَطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عزيمة الايمان اذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون سدى في حربهم معها لانهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح .

وأعظم الاعلام في اللاهوت المسيحي بعد أوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الاكويني (١٢٢٧ ـ ١٢٧٤) الذي فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق اليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الارادة التي يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لانه كان في المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية ، وكان امتحانه من ثم أعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الآخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شيء غير نفسه ، وطمح الى مساواة الله في عظمته ومشاركته في وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غراره فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه .

ويسمي الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعاً بالكائنات العقلية أو الكائنات الذهنية ، تمييزاً لها عن الكائنات الحيوانية المولدة من التراب ، ويقول إنها مسلطة على عقول البشر لاستدراجها واستخراج غاية ما انطوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحدث ذلك باذن الله وقضائه ، وقد تكون ذرائعه الكبرى مستقرة في غرائز الانسان ، ويكون الانسان فيها عدواً لنفسه اذا غلب عليه هواه قبل أن يغلبه وسواس الشيطان .

ويجاري الفيلسوف من تقدموه في الاعتراف للشيطان بالقدرة على العجائب والافانين التي تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلسوف الذي يرفض عقله التسليم بالعبث في نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق في طاقة الشيطان ، ولا تعقل الخوارق الا من عمل الاله الذي وضع للعالم نظامه وأجراه عليه ، وانما يستطيع الشيطان إثارة المادة بعناصرها ، فيدمر بها

من تراد له الفتنة ، ولا يتعدى هذه العوارض الى تبديل جوهر المادة او تبديل جوهر الروح ، وكل ما يصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هو خداع لحس الانسان حتى يرى الاشياء على غير صورها ، او تبديل لاشكال تلك الأشياء لا ينفذ الى الصميم .

ولعل القديس توما الاكويني قد قال كلمة اللاهوت الاخيرة في هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأي غير هذا الرأي في تصوير الشيطان او تصوير قدرته على بني الانسان .

*

ويأتي أكبر الاعلام بعده في اللاهوت المسيحي على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لا يغير شيئاً من وصف الشيطان كما يغير الشيء الكثير من وصف الذين استهواهم الشيطان في رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا .

جاء مارتن لوثر في أواخر القرن الخامس عشر ، وعاش الى ما بعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) ، ولم يتغير بين عصر الاكويني وعصره معتقد واحد من المعتقدات التي كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية .

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سراً أو علانية لارواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الاوبئة والآفات واستحقاق السحرة قضاء الموت الابدي اذا ثبتت عليهم ممالأة الشياطين على المؤمنين الابرياء ، وتمتلىء أحاديث المائدة التي نقلت عنه بما كان يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة في زمانه وقبل زمانه ، ومنها أن رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وان رجلا آخر لقيه فكسر له قرناً من قرونه ، وحاول ذلك رجل آخر دونه في الايمان فبطش به الشيطان ، ونصيحة لوثر للمؤمنين أن الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به في مجالسه قصة عن الامبراطور فردريك الذي كان يصادق علماء الغرب ويطلع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة ان الامبراطور دعا الى مائدته ساحراً مشهوراً وأراد أن يناجزه في القدرة فجعل له في يديه مخالب كمخالب

الرخاخ الاسطورية ذات الاجنحة والقوائم والانياب فخجل الساحر ولم يمد يديه الى الطعام . . . وانهم لعلى المائدة اذا بصيحة من الطريق تزعج الامبراطور فينهض الى النافذة ليطل عليها ، فيغنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للامبراطور قروناً على رأسه كقرون الايائل ، فلا يستطيع أن يرتد برأسه عن النافذة وعليه تلك القرون . . .

وعلى جدار من جدران قلعة « وارتبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين انه من مداد الدواة التي القاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على أحبار زمانه ، ولم يبرح لوثر طوال ايامه الى آخر حياته ينادي بأنه في حرب مع الشياطين ، ويحسب القائمين بالسلطان في الارض باسم الدين نوراً على ملكوت السماء .

*

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت في كل وجهة تتجه اليها بالكلام في « الشيطانيات » أو علم « البديمنولوجي » كما عرف في الزمن الاخير .

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لانه كان يدور على السحر والسحرة ومخالفة « المعرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين ، وكانت مجالس التفتيش تعمل عملها في مطاردة السحرة او المتهمين بالسحر لانهم ينظرون في الكتب التي لا يقرها اللاهوتيون .

وانقسم الباحثون في « الديمنولوجي » قسمين متنازعين : قسم اللاهوتيين وهمهم الاكبر أن يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسم العلماء التجريبيين وهمهم الاكبر أن يدفعوا عن أنفسهم تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا في وجود الشيطان أو يجزموا بانكاره لانه لا يظهر لهم عياناً ولا يظهر لهم بالتجربة والبرهان .

غير أن اللغة التي تداولها الناس من قبل القرون الوسطى قد تلقت من « الديمنولوجي » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها أو يسمعها ،

وجرت هذه التعبيرات على السنة المتدينين كما جرت على ألسنة المنكرين أو المتشككين في العقائد الدينية . فلما كان لوثر يقول ـ مثلا ـ عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة في القرون الوسطى إنها « مخترعات » شيطانية ، وإن الشيطان هو الذي يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن أحد يحمل كلامه على المجاز أو يشك في قصده الى شيطان غير شيطان النصوص الدينية الذي يجوز أن يبدو للعيان أو يعمل مع أصحاب تلك البيوت في الخفاء ، ولكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها « بالشيطانية » ونعتوها بالصناعة السوداء او بصناعة الظلام وهم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذي لا يختلفون فيه ويفهمون منها ان تلك الصناعة خلو من الرحمة والعطف ، مظلمة من ظلام الفحم والدخان أو ظلام الغشم والقسوة ، سواء نسبوها الى الشيطان أو جعلوا الشيطان علماً مفهوماً على كل هذه المساوىء والنعوت .

ويغلب على الظن أن سهولة التعبير المجازي على هذا النحو سولت لاناس في القرن التاسع عشر أن يقحموا فوارق اللون والعنصر في أحاديث « الديمنولوجي » ، وأن يزعموا كما زعم الدكتور كارترايت أن الشيطان لم يتكلم في الجنة بلسان الحية ، بل كان كلامه بلسان زنجي أسود على مثال الشيطان الذي كان يصبغ بالسواد في صور القرون الوسطى ، وكأنما أراد كارترايت أن يترقى بالفكرة درجة فوق الدرجة التي وصل اليها الاسقف آدم كلارك في تعليقاته على سفر التكوين « سنة ١٨٢٥ » فجعل الحية زنجياً بعد ان كانت في رأي كلارك قرداً من فصيلة الاورانج أو تانج . . وفي هذه الاونة ـ أو حواليها ـ كان الرحالون يسيحون في أمريكا الجنوبية فيسمعون من أهلها البيض أن الزنجي هو البهيمة الكبرى التي ذكرت في كتاب الرؤيا الابكريفية[١] ويتشكك الكثيرون منهم في نسبته الى حام لانهم لا ينسبونه الى فصائل الآدميين !

*

يعود نقاد الاجتماع المحدثون الى عقيدة الخطيئة وزلة آدم في الفردوس وهبوطه مغضوباً عليه الى الارض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف

---

(١) كتاب « الكبرياء العنصري » تاليف دنيجوال « Racial Pride » by Dingwal .

هذه الاحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلكسنر « Flexner » الامريكي الذي يقول في فصل كتبه عن الملك الفنان : « ان عقيدة القرون الوسطى أن الانسان سيىء بطبيعته من أثر الخطيئة المتأصلة فيه قد وافقت الميول الارستقراطية لانها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد أن الطبقة الوسطى المناهضة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الانسان وانه قد ولد ملكاً وأفسدته النظم التي فرضها عليه الملوك » .

وليس في المقارنة بين العقائد والاحوال الاجتماعية ما يرجح هذا التفسير أقل ترجيح ، لان عقيدة سقوط آدم تشمل الانسان الحاكم وتشمل الانسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها أشد قسوة على الحاكمين من كل عقيدة شاعت في العصور الحديثة ، وتلك هي عقيدة السيادة الشيطانية على الارض وأن سادة هذا العالم شياطين أو حلفاء للشياطين .

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التي تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء أو ملكوت الله ، تكاد المسيحية كلها أن تكون مجموعة في هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الاصيلة ، فقد كان حتماً لزاماً أن تجتهد المسيحية اجتهادها كله في التفرقة الكاملة بين مملكة الارض وملكوت الله الذي بشر به السيد المسيح ، كان ذلك حتماً لزاماً لانها نقلت رسالة المسيح المخلص من اقامة العروش على الارض ـ او تجديد ملك داود ـ الى اقامة الملكوت الالهي في السماء ، وكان ذلك حتماً لزاماً لانها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الارض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم في حمى الله صاحب الملكوت الاعلى ، اذ يكون أصحاب السيادة والطغيان في حمى الشيطان وفي هاوية الارض وما وراء من هاوية الجحيم : « طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض ، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى لانقياء القلب لانهم يعاينون الله ، طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السماوات » .

فرسالة المسيحية في جانب الانسان المغلوب ، وسيادة العالم هي ثمرة الخطيئة التي باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيماً له بل تهويناً من شأن العالم وتحقيراً لغنائمه ومطامعه وشهواته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية في الحضارة الحديثة من أن يقول إنه هدم سيادة الشيطان وانه غلب الخطيئة في معقلها وكفر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية .

وعلى هذا الفهم ينبغي أن تفهم رسالة المسيحية التي بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعي على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو في لبابه تهوين للعالم الذي يسوده ، وتقديس للملكوت الالهي الذي يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من أجل البر وصانعو السلام .

أما رسالة المسيحية في تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهي تفرقة أخرى لا تقل في قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء .

لقد كان الضرر والشر مترادفين في الديانة العبرية أو كالمترادفين ، فالمسيحية هي التي فرقت بين الضرر الذي هو نقيض السلامة والامان والمنفعة ، وبين الشر الذي هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالديانة ، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى .

ان المسيحية هي التي فرقت بين مثال الضرر في الحية الحيوانية ومثال الشر في الروح الخبيث الذي ينفث سمومه في القلب ولا يضير الانسان الا حيث يضار حقاً في أشرف خصال الانسان .

*

وكلمة عابرة تقال في ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التي جاءت بها للتعريف بمعاني الشيطان .

ان الكنيسة الرومانية اذا رفعت احداً الى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التي تنتفي معها القداسة ، وتعهد في هذه الحالة الى وكيل للخصومة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل ..

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامي الشيطانيDiaboli Advocatus تشبيهاً لعمله بعمل الشيطان في إنكار فضائل أيوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان في امتحان الخير ، وانه دور لازم في تقرير كل قداسة ، يخلقه الناس مختارين ولا يصح من أجل هذا أن يقال انه وهم من اختراع الخيال .

الاديان الكتابية
(ج) الاسلام

دور الشيطان في الديانات الكتابية الثلاث مختلف .

واختلافه بينها جوهري يدخل في كيان كل ديانة منها ، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب .

فهو في الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لانه شبيه بغيره .

وهو في الديانة المسيحية دور عامل فعال لا ينفصل من حكمة الوجود كله .

وهو في الديانة الاسلامية دور عامل فضولي مرذول ، يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف .

على مسرح الخلق دور الشيطان في الديانة العبرية دور « النكرة » الذي ينوب عنه كل نكرة مثله ، اذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الاله الذي يعبدونه والاله الذي يعبده سواهم خلاف في الرضى والغضب ، ولا في النعمة والنقمة ، غير الخلاف بين النظراء في السلطان .

أما المسيحية فدوره فيها على مسرح الخليقة دور الشرير في قصة الخلق كله ، اذ كان قوام الخليقة سجالا بين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة الى الخلاص من طريق الفداء .

وليس في الاسلام ذنب يرثه أحد من أبيه أو يورثه لبنيه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تعفي منها ، وشوكة الشيطان لا تحمي أحداً ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من أوزاره ، ولا يداري حماقة الغافل الذي ينقاد اليه .

وفي القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على عملهما بغواية الشيطان :

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » .

وكلما ذكرت في القرآن الكريم غواية ابليس ذكر معها انه ما كان له عليهم من سلطان :

« ان عبادي ليس لك عليهم سلطان » .
ولذلك تقول الشياطين لمن يرجع اليها بذنبه :
« وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين » .
« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين » .

ولا ينفع من ضل أن يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان ، فإن الشيطان ينكره ويبرأ منه :

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك أخاف الله رب العالمين » .
. . . « وقال الشيطان لما قضي الامر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا انفسكم » .

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الانس ، فان الشيطنة هي عداوة الحق حيث كانت : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » .

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر ، الا أنه خداع للحس وفتنة للنفس ، تخيل الى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة في غير وهمه : « . . يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق » .

وفي صورة سبأ عن جنود الجن التي جهلت موت سليمان وهو قائم أمامهم « فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين » .

وانما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس « انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

« يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى » .

« ولا يفلح الساحرون » .

*

وقد ورد في القرآن ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات » .

وفيه ذكر الجن التي تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التي تسترق السمع من السماء . وذكر الجن التي تقارن الانس ، وذكر الجن والعفريت الذي تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها في مجال التكليف عملا قط يسقط عن الانسان تبعته أو يجعل لها سلطاناً عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاذ فيه من شر يأتي به الجن الا وهو كذلك من الشرور البشرية ، أو من الوسواس الخناس « الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » .

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت في قصة آدم وما بعدها من قصص الاولين .

وقد رويت قصة آدم في مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت توبته من عمله أو قوله في بعض هذه المواضع ، وهي جميعاً مآل التكليف الذي يفرض على الانسان : يسأل عن خطيئته وان وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وان كانت بهداية الله .

« واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال اني أعلم ما لا

تعلمون ، وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون . واذ قال للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعاً فاما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

*

وجاءت في سورة الحجر حيث يفاضل ابليس بين خلقته وخلقة آدم : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك ألا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها فانك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فأنظرني الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولأغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط عليَّ مستقيم ، ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين » .

*

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن معنى الشجرة التي أكل منها آدم في الدين الاسلامي ، وقال بعضهم ان القرآن تركنا في حيرة من أمر هذه الشجرة ، ما معناها وماذا جناه آدم وحواء من جراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس في الامر ما يدعو الى التساؤل ولا الى الحيرة ، لولا أن هؤلاء الشراح وضعوا في أذهانهم معنى معلوماً وأرادوا أن يجدوه في القرآن فلم

يجدوه كما أرادوه . اذ لا يخفى على الناظر في القصة أن ثمرات هذه الشجرة هي ثمرات « التكليف » بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الاكل منها وبعد الاكل منهـا الا الفـارق بين الحياة في دعـة وبـراءة والحياة « المكلفة » التي لا تخلو من المشقـة والشقـاق والامتحـان بالفتنـة ومعالجـة النقائص والعيوب ، كلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارهـا تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبدو ذلك جلياً من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصـة في سورة الاعـراف ، وذاك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، أو اعطاء الصورة بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضي القصة على ما يلي :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال أنظرني الى يوم يبعثـون ، قال انـك من المنظـرين ، قال فبمـا أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذؤوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهمـا الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انـي لكمـا لمـن الناصحين ، فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بني آدم قد انزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف في هذه القصة أن خطاب آدم به لا يغني عن خطاب بنيه وأعقابه ، فهو مكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لا تلزمهم وتوبته لا تغني عنهم ، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الاحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون ويموتون .

ويميل الشراح الغربيون الى النقد كلما وجدوا له ندحة في قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل « بابيني » الايطالي صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر ابليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن في تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الالهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغة يفهمون معنى السجود هنا ولا يخرجون به عن معنى التحية والاكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لأنه يريد أن يرجع بعقائد الاسلام الى الاصول الاسرائيلية كما فعل توري « Torrey » في كتابه عن أسس الاسلام من التراث اليهودي ، ولم يكن في التراث اليهودي ذكر لغير الحية في هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعاً في التفرقة بين الضرر والشر أو بين الشر الحيواني والشر الاخلاقي كما قدمنا .

*

وقليل من النقاد الدينيين في الغرب من يفطن للخاصة الاسلامية الاخرى التي تتمثل في قصة آدم مع الملائكة والجان ، فان الغالب عليهم أن يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطاً » ويرتبوا عليها ما يترتب على السقوط الملازم لطبيعة التكوين ، وليس في القرآن أثر قط للسقوط بهذا المعنى في حق كائن من الكائنات العلوية أو الارضية ، فليس فيه شيء عن سقوط الانسان وانما هو انتقال من حال الى حال ، أو من عهد البراءة والدعة الى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شيء عن سقوط الملائكة وانحدارهم من طبيعة عليا الى طبيعة دونها من طبائع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين ما يعزى الى الملك ويعزى الى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام . « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر . . » .

فالملك الذي يعرف السحر لا يخدع به أحداً ، ولا يعلم من يريد أن يتعلم الا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان .

هذه القصة بعينها ـ قصة هاروت وماروت ـ يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن أصولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الاقوال والشواهد لردها الى المصادر الاسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر ، فمن الذين ردوها الى المصادر الاسرائيلية من يرى أن الملكين هما اريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتاب ادريس ، ويستند صاحب كتاب أساطير اليهود الى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسي[1] . . . ويزعم جيجر « Geiger » أنهما الملكان شمهازي وعزازيل اللذان هبطا الى الارض في عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا أنهن « حسنات » كما جاء في سفر التكوين ، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات هايد « Hyde » في تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها الى أصل بابلي كما جاء في القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الاسماء ومخالفته أمر ربه بغواية الشيطان ، وهي القصة التي يحسبها بعضهم من الاخبار التلمودية ، ويقول ابشتين ، وحرنبوم ، إن التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الاسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية .

غير أن هذه المناقشات جميعاً يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذي من أجله استحقت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة في مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة في هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التي ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها في الروايات المتعاقبة .

وجوهر المسألة كله في القصة التي نحن بصددها ان القرآن الكريم لم يذكر قط شيئاً عن سقوط الخليقة من رتبة الى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئاً عن سقوط

(١) صفحة ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جنزبرج Ginsberg

الخطيئة الدائمة وسقوط الخطيئة التي يدان فيها الانسان بغير عمله ، اذ العقيدتان ـ كلتاهما ـ غريبتان عن روح الدين الاسلامي كل الغرابة ، ولا يعرف الاسلام ارادة معاندة في الكون لارادة الله يكون من أثرها أن تنازعه الارواح ، وتشاركه في المشيئة ، وتضع في الكون أصلا من أصول الشر ، وتسقط الخلائق التي ارتفعت سوية بمشيئة الخالق . فقد جاء الإسلام بهذه الخطوة العظمى في أطوار الاديان فقرر في مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التي يدين بها ضمير الانسان ، وقوام ذلك عقيدتان : أولاهما وحدة الارادة الالهية في الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة أخرى بين العامل وبين ضميره وربه .

فليست الخطيئة في الاسلام أصلا كونياً يعاند الارادة الالهية بارادة مثلها أو مقاسمة لها في أقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه من عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية بالتكفير والجزاء ، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الاسماء التي لم يتعلموها ، كانت هدايته الى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الالهية ولم تكن بشيء غير عمله وقوله .

فاذا فهمت العقيدة الاسلامية على هذا الوجه فهذه هي القيمة الروحية التي تجري المقارنة والموازنة عليها كائناً ما كان القول في تشابه الاسماء والقصص ، وتوافق المراجع والاسانيد ، وما من دين قط خلا من الاسماء والقصص التي سبقته اليها الاديان المتقدمة عليه في تاريخ دعوتها ، وليس أكثر من الاسماء البابلية والفارسية في كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعاً في مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هي مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ، ولا خلاف ـ مع فهم هذه المسألة ـ على فضل الاسلام في هذه السبيل .

*

ان الاديان الكتابية لم تتعاقب عبثاً ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها .

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية ، فلبثوا زمناً يخلطون بين

فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ، ولبثوا زمناً أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية في الوجود كله وبين الوحدانية التي تميزهم باله لا يقبل المشاركة من الارباب الاخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة .

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفاصل كبير ، وحققت معنى الخير الروحاني الذي ينفصل من معنى المنفعة والسلامة ، وباعدت بين العالمين ، وتركتهما من بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه في السماوات وهذه في الارضين ، وتكاد الأرضية منهما تبسط يدها الى حوزة الأخرى وتأخذ منها الى حوزتها معقلا يسترد ويستعاد ، ولا يملك الانسان فيه حيلة أمام الاله وأمام الشيطان ، وانما يجيء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الاله .

ثم جاء الاسلام فبسط على الوجود كله وحدة لا مثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الارادة الانسانية حقها وتبعتها وجعلها ظالمة لنفسها اذا سمحت للشيطان أن يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وانما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ أو المسحور ، الا أن يؤثر الضلالة على الهدى ، ويصر على ضلالته بين دواعي التوبة والندم .

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثاً ولم يكن لها في أطوارها سبيل أقوم من هذا السبيل ، ولو نظرنا اليها فرضاً وتقديراً ولم ننظر الى وقائع التاريخ .

*

وكان ما تقدم انما يتبين لنا من العقائد الاسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد أحسن فهمه مفسرون وأساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الاسلامية شيء كما ينصفها في هذا المقام أن نرجع الى المسيئين فنراهم جميعاً قد أساؤوا فهم كتابهم لأنهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سنداً محققاً عند أصحابها الاولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لأنهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الاحاديث .

وليس من عملنا هنا ان نستقصي أقوال المفسرين في شؤون الغيب ، ولكننا

نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده من طبيعة الشيطان وطبيعة الخلائق العلوية كالملائكة والارواح . فأضعف الاقوال ان الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوي الذي يفيد معنى الخفاء ، وأرجحها القول الذي أخذ به الفيلسوف الرازي في تفسيره حيث يقول : « لما ثبت أن ابليس كان من الجن وجب ألا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملائكة .

ولا حاجة بنا الى اسهاب أو ايجاز في نقل أحاديثهم عن الجن وأسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه في هذا السياق .

الفصل الرابع

❋ عباد الشيطان
❋ حلفاء الشيطان

عباد الشيطان

تخلفت ـ بعد الاديان الكتابية ـ نحلة تتسم بالشذوذ المطبق في جميع اطوارها . لانها شاذة في موضوعها ، وشاذة في انتسابها الى أصولها ، وشاذة في تلفيق مقوماتها واركانها ، وشاذة في وسائل نشرها والدعوة اليها .

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان .

وانتسابها الى أصولها شاذ لانها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الاولى والاديان الكتابية .

وجميع مقوماتها وأركانها شذوذ في شذوذ ، لانها تجمع النقائص في شعائرها وتعمل أحياناً على مرضاة الشيطان ومرضاة الاله الاعلى بفريضة واحدة .

ووسائل الدعوة اليها شاذة لانها سرية يبالغون في كتمانها مع امتداد معابدها من آسيا الوسطى الى أوربة الغربية وافريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون في أمرها من الذي يتولى نشرها ، وما بواعثه النفسية أو القومية التي تحضه على نشرها ، وهي مع الاديان الاخرى بين موافقة تأباها تلك الاديان ومناقضة تثيرها عليها .

*

ومن العسير ان توضع هذه النحلة في نسق منتظم مع تطور العقائد في مجموعة الامم الانسانية ، ولكننا نحاول وضعها في مدرجة من هذه الاطوار جهد المستطاع ، مع ملاحظة الاصول الجغرافية والعنصرية .

فمن الراجح المعقول أن عبادة الشيطان تنتمي قديماً الى الشعور بقوة الشر في البيئة التي نشأت فيها واحاطت بها .

ومن الراجح المعقول أيضاً أن الشعور بقوة الشر قد كان على اشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخباثة ، وجعلوا لاله الشر

حصة في الكون مساوية لحصة اله الخير أو قريبة منها ، وتلك هي الثنوية « الزردشتية » منذ أقدم أطوارها .

وينبغي أن نذكر أن الثنوية كانت تفرض لاله الشر في بعض الازمنة سلطاناً اكبر من سلطان اله الخير في العوالم الارضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الارضين السفلى الى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان في العالم الانساني ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين .

قامت هذه العقيدة قديماً في أرض فارس على تخوم السهوب الاسيوية ، حيث لا تعرف العشائر المترحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال في كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرارة ، وفتك السباع والافاعي ، ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن في طريقها ما لم تكن على هوى الشيطان .

ولم يكن هوى تلك العشائر في حياتها الاولى مخالفاً كل المخالفة لهوى الشيطان في عنفه أو في كيده أو ختله أو في اندفاعه مع شهواته واطماعه ، فكانت تنساق لاهوائها حين تزعم انها تنساق لاهواء الشيطان .

في تلك الارجاء تأصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهي عبادة الارواح والشياطين .

ففي بلاد العمار ـ او بلاد الحضارة الفارسية ـ تهيأت الاذهان للعقائد الكونية الواسعة ، فتأصلت الثنوية ، وعلمت الناس ان الشر غالب على الارض ولكنه مغلوب بعد حين ، وان « اهريمان » رأس الأرواح الخبيثة نافذ السلطان في عالم الانسان .

وفي السهوب المقفرة تأصلت الشامانية وشعائرها التي لا تفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيباً هادئاً اذا رضي واستراح الى مقامه واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثاً عارماً يتخبط فريسته فلا تجدي عنده شفاعة الكاهن الساحر أو يثوب الى السكينة بمحض هواه .

لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد .

ونشطت مع المسيحية في مجال واحد عقيدة ثنوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند الى الجزر البريطانية ، وهي عقيدة « مترا » بطل النور الذي استشهد في حربه لاله الظلام ، ووعد عباده بالعودة اليهم بعد حين مظفراً متمكناً من الارض والسماء ما دامت الارض والسماء .

وانهزمت عقيدة « مترا » امام المسيحية .

ولكن هزيمة العقيدة المترية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن احوال العالم في القرون الاولى بعد الميلاد مما ينسي الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان ، ولم تكن المسيحية في دعوتها تنفي غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المسيطرين على الامم لوساوسه ورذائله ، فنجمت من بلاد الثنوية نحلة أخرى تسمى المانوية منسوبة الى « ماني » الذي ولد في بابل الجنوبية حوالي سنة (٢١٦ للميلاد) واستهل دعوته في ابان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثاني « سابور الاول » نصير قوي ايام حكمه ، على امل منه في توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع ماني أن يصمد لاقطاب النحل الاخرى بعد حكم سابور ، فالقي في السجن حيث مات وهو يناهز الستين ، ووسم أتباعه باسم الزنادقة اي الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم إنهم « اهرمانيون شيطانيون » .

الا أن « ماني » كان من المجددين في عقائد قومه وفي ثقافتهم وفي كتابتهم الابجدية ، ومن مساعيه في تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية ، وتنقيح أوزان الشعر والاناشد المقدسة ،وتقريب مذاهب المعرفيين « Gnostiics » الى مذاهب المجوسية والمسيحية ، وتحقيق الخلاص الروحاني من طريق الحكمة والتعمق في أسرار العلوم .

ولم يخرج « ماني » من نطاق الثنوية في آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » او مجوسية ، وقليل منه مقتبس من آراء المعرفيين وعقائد المسيحية في الصدر الاول قبل ان يتوسع فيها الآباء المتأخرون .

فالوجود من أزل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغي على الآخر اذا شاء ، ولكن عالم النور لا يعرف البغي بل يعرفه رب الظلام حسداً ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ، ويأبى رب النور أن يقابل العداء بالعداء لانه بطبيعته محبة وسلام ، وحسبه أن يتجلى حيث شاء فيجعل منه الظلام .

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النوراني يحاول أن يكمن فيه وينتزع منه ما استطاع ، خلق رب النور آدم السماوي وأرسله الى الارض بمزيج من طبيعة الملك العلوي والحيوان الارضي ليلقى جنود الظلام في ميدان القتال ، وكان آدم هذا ـ أو جيومرث كما يسميه المجوس ـ طيباً سليم القلب يحارب شريراً مزوداً بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع في أسر الظلام ، ولم يجد رب النور بداً من الهبوط بنفسه الى الميدان لانقاذ مخلوقه الاثير لديه من غياهب العالم السفلي ، فأنقذه ورفعه الى الشمس حيث يقيم بعيداً عن الارض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين .

الا أن الاله السفلي عرف من تركيب جيومرث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » آخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائراً بين طبيعتيه حتى أشفق الاله السماوي عليه فأرسل اليه المسيح ليدله على أشرف طبيعتيه ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادي منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدي واستبعد روحي » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة الى الجحيم ومعها ذريتها من أبناء الشياطين ، ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء الا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلي بالدمار .

سرى هذا المذهب المانوي شرقاً الى الصين والهند وغرباً الى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الارضي وبقاؤه متسلطاً عليه الى اليوم الاخير .

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا وأوربة الشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن اله المسيحيين ترك الارض للشيطان الاكبر فلا حيلة لها معه غير أن تترضاه وتزدلف

اليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة في تلك الاقطار الى ما بعد القرن الثاني عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » ـ أي النحلة الشيطانية ـ غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون .

ومع المانوية والشامانية نحلة اخرى ـ أو نحل شتى على الاصح ـ تعرف باسم النحل الاورفية « Orphism » وتشترك في المراسم الخفية التي تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم ديونيس « Dionysus » الذي يعتقد اليونان انه ابن زيوس رب الارباب من بيرسفون وأنها حملت به منه.وهو متنكر في صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذي كان أصحاب النحل الاورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزاً للاهواء والآلام .

ويعتقد الاورفيون أن الاله أورفيوس يهدي صحابته في ظلمات العالم الاسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف في الديانة المصرية القديمة .

وظاهر من صور الشيطان التي عاشت بين الاوربيين المشارقة في صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلي الاعظم في حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدي يربونه لهذا الغرض ويصورونه ـ أي ديونيسس ـ في صورة « الساتير » الذي يتزيا بجلد الماعز ، ويلبس قرونها على جبهته ، ويجر وراءه ذنباً طويلا كأذنابها ، ويمشي بقدمين لهما ظلفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان في محافل عباده الاولين .

ومع اليمانوية والشامانية والاورفية ينتشر المعرفيون من بلاد فارس الى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص الى النور من طريق الظلام ، والخلاص الى الطهارة من طريق الرجس ،.والخلاص الى الله من طريق الشيطان ، والخلاص الى المعرفة من طريق الجهالة بمعانيها جميعاً فيما اشتملت عليه جهالة العقل وجهالة الطباع .

هذه فلول العقائد التي تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع

المسيحية في دور النزاع بين بقايا الاديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من القاب الشيطان في بعض اللغات الاوربية الشرقية أن المظالم الاجتماعية كانت بعض أسباب الكفر بالاله السماوي والاقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذي يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكوني الذي هم ضحاياه .

*

ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لانهم كانوا يكتمونها حذراً من خصومهم ، ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التي لا غنى لها عن الظلمة والخفاء ، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال أن عبادات الشيطان كانت متفقة بينها في أماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى وأوربة الغربية ، فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الاقاليم والسلالات واللغات والاحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية اذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات .

الا أن المشهور من نحل العبادة الشيطانية ثلاث ، هي الكاثارية والبوجمولية والالبية ، ويرجح المؤرخون لها أنها أسماء مفترقة لنزعة واحدة تختلف في التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع وحدتها في مصادرها والتقاء مصادرها جميعاً في الرقعة الوسطى بين القارتين الاسيوية والاوربية .

غلبت الكاثارية على العشائر الالمانية ، واسمها مستعار من كلمة « Cathar » بمعنى الطهارة في اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت في أصلها نحلة زهد ورهبانية ثم انحرفت قليلا قليلا الى خليط من الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الاولى .

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها مأخوذ من السلافية بمعنى أحباب الله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة الى عبادة الخفاء « Bogomil » .

وغلبت الالبية « Albigenses » على فرنسا الجنوبية ونسبت الى « البي »

« Albi » التي كان مركزها الاشهر في غرب القارة وجنوبها .

ولم تتفق هذه النحل في شعائرها وعقائدها كما أسلفنا ، ولكنها تتفق في قاعدة مشتركة بينها وهي قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف اليها حواشي الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعاً من إباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التي تخالف بها جميع الاديان الكتابية ، وان لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات .

فمنها ما يحرم الزواج لان الزواج يستبقي النسل في عالم الشر والفساد ، ولكنه لا يحرم الفسق ولا الشذوذ ، بل يدخلهما أحياناً في الشعائر المفروضة لانهما يرضيان الشيطان .

ومنها ما يحرم اللحم والجبن والبيض وكل ما جاء من تناسل من ذكر وأنثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم أنه لا يولد بالتلاقح بين الجنسين .

ومنها ما يزعم أن آدم طلق حواء وتزوج بالربة البابلية التي تسمى ليليت أو ليلى ، وأن حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الانساني خليطاً من الآدميين والمردة وذرية الارباب الوثنية .

ومنها ما يقدس المسيح وينكر الصليب ، ولا ينكرونه لتكذيبهم صلب المسيح ، بل لانهم يقولون : « ان ما من أحد يعبد المشنقة التي خنقت أباه ! » .

واشتهر من عباداتهم عبادة القداس الاسود ، ومحورها صورة الشيطان عارياً وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه ، وتنقل اليهم « البركة » بلمس أعضائه ، وتنهي الصلاة بضروب من الاباحيات كالتي كانت تقترف في عبادات ارباب النسل عند الوثنيين .

وكل جماعة « سرية » ظهرت في القرون الوسطى فهي على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التي سميت باسم الهيكليين والحبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيراً ويلبسون قميصاً يسمونه الكميسية « Camisia » . ويقال انهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التي كانت معقلا للهيكليين ، وكانت

الكلمات العربية شائعة في لغتها منذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك الى اليوم .

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنوع مذاهبها ، هي سيادة سلطان الشر على العالم الارضي خاصة ، وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ، وضرورة « التفاهم » مع الشيطان في أمور هذه الدنيا ، أو ضرورة هذا التفاهم في كل أمر من الامور ، لان اله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بني آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء في طباعهم باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشيطان .

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الاوربيين الغربيين ، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة الى محكمة التفتيش في طولوز (يونيه سنة ١٣٣٥) فقالت إحداهن آن ماري جيورجل « ان الله ملك السماء والشيطان ملك الارض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة ، وينفرد الشيطان بالنصر البين في العصر الحاضر »[١] .

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطاني نبذاً من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه « Michelet » يفهم منها أن هذه العبادات قد امتزجت زمناً بالثورة الاجتماعية وانحلال الاخلاق وفتور الايمان بالدين ، فقد كان القداس الاسود صلاة الى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن في الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع أحد الرجال المندوبين للعبادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محراباً حياً للمعبود[٢] .

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لا شك انها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية أو الوجدانية ، ولكنها استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانية وغارات الهمج وما اقترنت به من السبي والسلب والاباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة

---

(١) القداس الشيطاني « The Splanic Mass » by Rhodes تأليف رودس .

(٢) صفحة ٣٥ من الكتاب المتقدم

المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الارضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات في محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل وأخذتها الكنيسة والدولة معاً بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة ، فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر الا اذا صحت الاشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التي كانت تستتر باسم الماسون فيما رواه الصحفي الفرنسي جوكاند « Jogand » وأثار حوله حملته التي سماها الشيطان في القرن التاسع عشر ، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث في أسانيدها ودعاواها .

أما النحلة التي ينسبونها الى الشيطان ولا تزال لها بقية في العصر الحاضر فهي النحلة اليزيدية التي تقيم في شمال العراق وينتمي أبناؤها جميعاً الى الكرد ولا يعرف أحد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال أحد من علمائهم أو جهلائهم لانهم يحرمون التعليم على عامتهم ، ويجعلونه وقفاً على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الاسرار في هذه الديانة ، فمن كان منهم عالماً بتلك الاسرار فهو لا يبوح بها ، ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى ما يسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها سواء منهم من أباحوا له العلم أو حرموه عليه .

ويرجع بعض الباحثين بالاسم الى يزيد بن معاوية ، ويرجع آخرون به الى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم الى اسم يزدان الاله الاقدم في الملة المجوسية ، وغير بعيد أن يكون الاسم منسوباً الى يزيد الخليفة الاموي ، لأن النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصبياتهم في السياسة وفي الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين ، وكان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التي تؤله « يزيد » في صورة الاله الارضي مقابلة للطائفة الفارسية التي عرفت باسم « علي الهي » لانها تغلو في حب الامام علي رضي الله عنه الى حب العبادة .

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور اله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم في يوم من ايام الاسبوع وندبه الاله الاكبر

لابداع جزء من العالم الاعلى أو العالم الادنى ، وهم يعتقدون ان الله خلقهم من نطفة آدم غير ممتزجة بجسم حواء خلافاً لسائر البشر ممن ينتسبون الى آدم وحواء ، ولعلهم أخذوا معتقدهم هذا من المانوية أو من المعرفيين الذين يروون في أساطيرهم أن آدم طلق حواء فأسلمتها الارباب الى شياطين الجحيم ، وعندهم أن آدم هذا هو آدم الحادي والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المرأة ، وهم اليزيديون .

ويعتقدون بتناسخ الارواح وعودة الاشرار الى الحياة في أجساد الحيوان ، ويحرمون الواناً من الاطعمة والاكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير التعلات التي هي أشبه بأحاجي الاقاصيص ، ومنها تحريم أكل الخس لان قديسهم الشيخ « عادي » مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلي لانه عدو السماء .

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون الى جبل الدروز كما يحجون الى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش أو المصحف الاسود ، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم أن الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالالهام من غير سماع .

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقادهم أن الاله الذي يسمونه « طاووس ملك » نصح لآدم بأكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فأخرجه « طاووس ملك » الى العراء وصعد الى السماء ، ولم يكن لآدم مخرج فأرسل اليه طائراً نقر بطنه فاستراح من أكله الحنطة ، وعاش بعيداً من الجنة المطهرة يأكل هو وبنوه من ذلك الطعام الارضي الى يوم القيامة .

فالذين سمعوا أنهم يعبدون « طاووس ملك » الذي أخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التي تعبده عبادة الارباب .

على أننا نعرض النحل الشيطانية جميعاً فلا نرى نحلة منها تعبد الشيطان

بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وانما يقصدون بتلك المراسم التي يسمونها العبادة أن يزدلفوا اليه بالترضية والمداراة ، وان يتقوا منه الشر الذي لا يقيهم منه رب سواه ، لانه موكل بحكم الارض الى اليوم المعلوم . فهي مصانعة خوف او نقمة على الخير الذي لا ينالونه ، وليس في شعائر هذه النحل اثر واحد يحق لنا ان نطلق عليه اسم العبادة حيث نعني بالعبادة ايمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبلاء في سبيل ذلك الايمان ، فليس في تلك الشعائر كافة علامة على قبول الفداء في سبيل العقيدة الشيطانية ، أو قبول الامتحان والصبر عليه إيثاراً لرضى الاله المعبود ، ولو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبات الدنيا والآخرة ، وكأنما كانت « عبادة الشيطان » تهمة جرت على ألسنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضناً عليهم أن يحسبوا في زمرة « العباد » المؤمنين بالله .

واذا كان الفداء شرطاً من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة شيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيراً أو قليلا في سبيل الشيطان ، فهي مساومة وانتفاع بالواقع الذي لا مهرب منه ، ومثل هذه المساومة لا تسمى بالعبادة الا من قبيل المجاز والتمثيل .

حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الانساني في التهدي الى العقائد العميقة التي تعرب عن نظرة شاملة الى الحياة او الى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس في هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وخياله وبذهنه وحسه ، وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز في وعي الانسان الساذج ، وملكة التجريد والتعميم في تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير .

لو قال قائل في هذا العصر إن الكون كله فكرة ، أو انه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج في قوله هذا الى تعمق بعيد ، ولا ظهر منه أنه يشتط في نزعات التصوف أو نزعات التجريد ، لان الخاصة والعامة في زماننا يسمعون أن المادة كلها ، على اختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها ، إنما هي ذرات تتألف من النواة والكهرب ، وأن الذرة حين تنشق تؤول الى شعاع ، وأن الشعاع هزات في الاثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج في تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التي كانت عنده وصفاً عاماً لكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية ما يتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف .

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة اذا سمع اليوم أن الكون كله عدد ، وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الغني عن التجسيم .

ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرناً أن الوجود كله عدد ، وأن « الكلمة » أصل كل شيء كما قال بعض الفلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع باللوجوس « Logos » لاول مرة ؟ وحين سمع معها او قبلها بالنسب الهندسية التي تتفرق موجودات الكون المادي كلها فلا تتمخض عن شيء سواها .

كان هذا كلاماً أشبه بالتخريف أو هو التخريف عينه ، وظل اناس من المطلعين الى عصر الذرة يسمعونه فلا يصفونه بأكثر من أنه هراء ، ولم يكن قول من الاقوال أبعد في الشطط عند جمهرة الناس من احالة هذه الموجودات الى فكرة خالصة أو الى عدد لا يعرفون معه ما هو المعدود .

وقد كان حقاً من الاعجاز في التفكير ان يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرناً أن يشف تلك الشفافية بهذه الاجسام ذات الاوزان والاحجام .

كان اعجازاً لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس الى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه في الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر الى خطواته القريبة عياناً اذا تذكرنا تاريخ السحر ، وفهمنا منه ذلك التضامن في البديهة الانسانية بين ملكة التشخيص والرمز ، وملكة التجريد والتعميم .

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين أنه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل في القوى العلوية والسفلية عملها .

كان بتلك الكلمة يبطل الاحجام والاوزان ويجعلها في يديه كالهواء أو اخف من الهواء ، وكان يلقي الكلمة أو يجمع العدد ، فيحرك الجبال ، ويزلزل الاوتاد ، ويطير بالاجسام ، وينفذ الى ما وراء الحجاب ، ولا يبتعد منه بعيد أو يتعسر عليه عسير .

ولم يكن أصحاب العقيدة في السحر فلاسفة يجردون الاجسام وينظرون من ورائها الى الحقائق في العقل الالهي أو في عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا أناساً حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمله كل منهم حين يأمر انساناً مثله فيطيعه ، وغاية ما هنالك أن الساحر يأمر بالكلمة أرواحاً واعية ، وان الطبيعة كلها أرواح .

غاية ما هنالك أن الساحر يعرف الكلمة التي تطيعها تلك الارواح ، وانه هو - الانسان الساذج - لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها ، وزلزل الاوتاد كما يزلزلها ، فلا تعمق عنده ولا تصوف ولا تجريد .

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج ان يقول ان الكلمة تفعل الاعاجيب ، وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان ، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها ، ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما « تعمقها » الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذي لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن في البداهة الانسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية في أعلى الدرجات .

**

ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد في تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذي استخدمه علماء العصر الاخير في مراجعة العقائد وضم الأشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق او جليل .

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت الى فارق بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه في العبادة ، وربما كان الساحر والامام شخصا واحدا ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلبا للسحر وحالته وهو يذهب اليه طلبا للصلاة .

فحيثما ذهب اليه يطلب سحرا فهو يحس من نفسه انه يذهب اليه خفية ، ويستر عنده ما يطلبه ، ولا يبوح به لغيره ممن لا يأمنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ، ويعلن ما يفعله وما يرجوه ، ولا يخطر له أنه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام .

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من اعمال الظلام ، وان اختلف الاعوان عليه بين الارواح الخبيثة والارواح الطيبة ، او بين الارواح التي يحكمها الشيطان والارواح التي لا حكم له عليها ، ولا يرجع اليه في تسخيرها .

ومع الزمن ظهر التخصص في صناعة السحر كما يظهر في كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر الى أبيض وأسود ، والى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لا يقدرون على صناعتهم التي لا شك فيها ،

وانما فهموا من هذا الوصف انهم يحتالون في الصناعة ، ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة في الكذب أو الشعوذة من شيطان .

وبقيت « السرية » شرطاً ملازماً للسحر بنوعيه ، وبقيت هذه السرية معنى مرادفاً لمعنى الظلام ، وتدبيراً لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أي وجه يكون : بقي الساحر مخيفاً غير مأمون ، وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ، ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه أن يلعنه ، لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق السحر ، وان لم يكن سحراً من عمل الشيطان .

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة « وأصحاب الجان » جنباً الى جنب في أخبار التوراة من أقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الانبياء لانهم ينكرون انهم أنبياء ، ويخرجون السحرة وأصحاب الجان اذا عرفوا أنهم سحرة وأصحاب جان ، وكذلك فعل شاول قبل موت النبي صمويل ، فلما مات النبي بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبي في محضره ، ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الاولى التي لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وان فصلت بينهما في التجلة والتقديس .

ويقول الاصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل : « . . ومات صمويل وندبه كل اسرائيل ودفنوه في الرامة في مدينته . وكان شاول قد نفى أصحاب الجان والتوابع من الارض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاؤوا ونزلوا في شونم ، وجمع شاول جموع اسرائيل ونزل في جلبوع ، ولما رأى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسأل الرب فلم يجبه الرب بالاحلام ولا بالاوريم ـ أي القرعة الكهنوتية ـ ولا بالانبياء . فقال شاول لعبيده فتشوا لي عن امرأة صاحبة جان فأذهب اليها وأسألها ، فقال له عبيده : هوذا امرأة صاحبة جان في عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاؤوا الى المرأة ليلا ، وقال لها : اعرفي لي بالجان وأصعدي لي من أقول لك ، فقالت له المرأة : هو ذا انت تعلم ما فعل شاول كيف قطع أصحاب

الجان والتوابع من الارض . فما بالك تضع شركاً لنفسي تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول بالاله الحي لا يلحقنها إثم من هذا الامر ، فسألته المرأة : من أصعد لك ؟ فقال : أصعدي لي صمويل ، فلما رأت المرأة صمويل صرخت بصوت عظيم ، وقالت لشاول : لماذا خدعتني وأنكرت نفسك ؟ قال لها الملك : لا تخافي . ماذا رأيت ؟ فقالت المرأة : رأيت آلهة يصعدون من الارض ، ثم قالت : رجل شيخ صاعد مغطى بجبة . فعلم شاول انه صمويل فخر ساجداً على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذ أقلقتني باصعادك أياي ؟ قال شاول : قد ضاق بي الامر غاية الضيق . ان الفلسطينيين يحاربونني والرب يتخلى عني ولم يعد يجيبني لا بالانبياء ولا بالاحلام ، ودعوتك لتعلمني ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألني وقد تخلى عنك الرب وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما أنبأني به وتكلم به على يدي ، وقد شق الرب المملكة وأعطاها لقريبك داود لانك لم تسمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه في عماليق ، فهو صانع لك ما صنعه اليوم ، وغداً يدفع بك وباسرائيل الى أيدي الفلسطينيين ، وغداً تلحق بي أنت وبنوك ويدفع الرب الى الفلسطينيين جيش اسرائيل . فسقط شاول على الارض وغشيه الوجل من قول صمويل ، ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاماً نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة الى شاول ورأته مرتاعاً فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفسها في كفها تلبية لكلامك ، والآن تسمع أنت لصوت جاريتك ، وتأكل من هذا الخبز الذي أضعه أمامك . كل فتكون لك قوى على المسير في الطريق . فأبى أن يأكل . وألح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الارض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل مسمن في البيت فأسرعت وذبحته وأخذت دقيقاً وعجنته وخبزت منه فطيراً وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا . . » .

هذه القصة كنز من كنوز البحث في مقارنة الاديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التي يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والامامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهي التمييز الى حدوده الواضحة .

فها هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل

ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين في مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول الى حيث يلحق بصمويل .

وها هنا تمييز بين الامامة الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب اليه القدرة على تحضير روح النبي بغير مشيئته .

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث أو السحر الاسود ، ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان إنهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لانهم في خدمة شاول وهو مغضوب عليه .

وها هنا استطلاع للغيب يطلب من النبوة ، كما يطلب من القرعة ، أو يطلب من صاحبات الجان والارواح .

غير أن العبريين لم يسبقوا غيرهم في مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر في الحضارة القديمة ، فانقسم الى السحر الابيض والسحر الاسود ، والى عمل الحكمة والمعرفة وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين وأثرين مختلفين ، فتكلمت الاناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح في مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه الى اليوم .

فالسحر يسمى عندهم باسمين : أحدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسمه « الماجي » « Magic » الذي بقي في اللغات الغربية بلفظه القديم .

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة « Witchcraft » ويؤخذ من اسمه هذا انه كان مقصوراً على المرأة منذ كانت المرأة في العرف الشائع أداة الشيطان في الغواية ، وعون الشيطان على كيده وعصيانه .

فقد كان الاقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحي الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالة شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هي على تسخير المفتونين لاغراضها ومشتهياتها ، ويقع في أذهانهم

أنها أقرب الى الخلسة والخداع لانها تعاشر الشيطان في زواج غير مشروع ولا يحسبونه الا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شراً من السفاح الممنوع ، لان السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الانس لا يبلغ في العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التي تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله .

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران في المقصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له أدواته من رصد الكواكب ورياضة النفس ، والروائح الزكية من الطيب والبخور .

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والأذى ، أو سحر الشيطان بعبارة أخرى ، فانه يتوسل الى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريه من الادوات والآلات ، ويقال عن سحرته انهم يلوثون كل طهر ويبتذلون كل قداسة ، وانهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ، ويتقربون الى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطة والهوان ، ويزعمون ان الوضوء الشيطاني أيسر للمرأة من الرجل لانها تستخدم فيه الدم المطرود، ويتعمدون التبشيع والتنفير جهدهم من التخيل فيزعمون أن الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح ، وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهي تمتطي المكنسة المتسخة ، لانهم لا يريدون أن يسلموا لها القدرة على الطيران الا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى أداة من أدوات الاوساخ والارجاس .

*

ومن أصول السحر ، في عصور الحضارة الاولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ، ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب في وقت واحد .

كان التنجيم أصلا من أصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الامام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الافلاك وسريان مشيئتها في الارضين ومن عليها ، فكان الكاهن إماماً يصلي لها ، وعالماً يعرف حسابها ، وساحراً يستطلع أسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب أتباعه ومقاديرهم التي يستنبىء عنها الغيب ، ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها .

وبقي التنجيم أصلا من أصول السحر بعد زوال عبادة الافلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الافلاك وتأثيرها بأمر الله في العوالم السفلية ، واختلف المتدينون في مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوي في كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، اذ ينقل آراء المختلفين فيقول : « ان الذي اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم انما هو القول بألوهية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير في هذا العالم ، فهذا كفر مجمع عليه في جميع الملل والاديان . لان الملل كلها مطابقة على أن المستحق للعبادة والذي بيده التأثير وتدبير الكائنات انما هو اله واحد واجب الوجود متصف بصفات الالوهية والربوبية ، وان كل ما عداه حادث مفتقر اليه على الدوام لا يستقل بنفسه في شيء من الاشياء ولو لحظة واحدة . وأما القول بأنها مؤثرة بقوة أودعها الله فيها ثم تركها تؤثر بتلك القوة في العالم باذنه تعالى بحيث لو لم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ، ومثلوا ذلك بملك يولي شخصاً بقطر من الاقطار فيفوض له الامر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضي الاحكام في ذلك القطر باذن الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعزله عن تلك الولاية ـ فهذا القول قد قاله جمع من المليين ومنهم امام الحرمين ، ولم يرتضه السنوسي بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم الى حد الكفر . وأما من يقول انها أسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم في سائر الاسباب العادية من الاكل والشرب والقطع والاحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد . . . » .

الى أن يقول : « وثاني الشيئين المذكورين اثبات القوابل السفلية الارضية ، لانهم قالوا إن حصول الفاعل المؤثر لا يكفي وحده في حصول الاثر ، بل لا بد معه من حصول القابل ، ولا يكفي أيضاً حصول القابل وحده بل لا بد مع وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زائلة ، لانه ربما حدث في العالم الاعلى شكل غريب صالح لافادة آثار غريبة في مادة العالم الاسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعدم الشرط أو لوجود المانع . . فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ، ومعرفة طبيعة الامور المعتبرة في كون المادة السفلية قابلة لذلك الاثر ، لكان يمكننا ان

نهيىء تلك المادة لقبول ذلك الاثر . . » .

وعلى هذا التأويل بقي سحر التنجيم بعيداً من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين أهل المشرق والمغرب ، حتى ظهر في كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ، ويعتبر السحرة تلاميذ للشيطان في هذه الصناعة لقدرته على الصعود والهبوط بين الافلاك والعوالم السفلية ، وعرفانه بخفايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ أحوالها للتأثر والانفعال بما فوقها .

وقد أورد صاحب الكتاب المقدم أقوالا مختلفة في التعريف بما سماه علم السحر فقال : « . . اعلم انهم اختلفوا في تعريفه لاختلاف المذاهب فيه . فعرفه صاحب (ارشاد القاصد) بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على أفعال غريبة بأسباب خفيه ، وعرفه ابن العربي الفقيه المالكي بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب أليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بأنه ما يغير الطبع ويقلب الشيء عن حقيقته ، ومنفعته عند الاسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع في تحريم العمل به بتاً ، وأما مجرد تعلمه ففيه خلاف بين الائمة ، فبعضهم منعوه وحرموه حسماً للباب كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم أباحوه ، وأغرب بعض النظار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعي النبوة فيكون في الامة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد في ارشاد القاصد . ولتعلمه فائدة أخرى وهي أن يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصاً عند من يقول بذلك » .

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « انه حقيقي وغير حقيقي ، وإن الطرق فيه اختلفت على أربعة مذاهب : احدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهي طريقة أهل الهند ، لانهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية انما تصدر عن النفس الناطقة ، ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية . وهذا المذهب مبني على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم . والمذهب الثاني من المذاهب الاربعة التي للسحر ، طريقة النبط وهي عمل أشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة الى رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار ، وتلك الاشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات ، وتارة تصاوير ونقوشاً كالتعاويذ ، وتارة عقداً تعقد وينفث

فيها ، وتارة كتباً تكتب وتدفن في الارض أو تطرح في الماء أو تعلق في الهواء أو تحرق بالنار ، وتلك الرقية التي يرقى بها تضرع الى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن اجرام الكواكب ، وكتاب (سحر النبط) نقل ابن وحشية يشتمل على تفاصيل تلك الطريقة . والمذهب الثالث من المذاهب الاربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين ، وهو تسخير روحانية الكواكب والافلاك ، واستنزال قواها بالوقوف والتضرع اليها ، لاعتقادهم أن هذه الاثار انما تصدر عن روحانية الافلاك والكواكب لا عن اجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثاني وأهل الطلسمات . والمذهب الرابع من المذاهب الاربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر أسماء مجهولة المعاني كأنها أقسام وعزائم بترتيب خاص . كأنهم يخاطبون بها حاضراً ، لاعتقداهم ان هذه الآثار انما تصدر عن الجن . ويدعون في تلك الاقسام أنها تسخر ملائكة قاهرة للجن » .

وقد اورد « الاوغنستاني » في « رسالة اللؤلؤ والمرجان في تسخير ملوك الجان » امثلة في الآيات ، وجملة أعدادها بحروف الجمل ، وتقسيمات هذه الآيات والاعداد الى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ، ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس ، في زعم أصحاب هذه الارصاد .

*

والمفهوم من مؤلفات الاوربيين في السحر والطلاسم انهم نقلوا جميع هذه النفسيات واقتدوا بالشرقيين في الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكبا راعياً للسحر كأنه خليط من الرب اليوناني القديم والشيطان ، وجعلوه ولياً للشطار والخبثاء وأدعياء النظم وأصحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الامر الى تحريم هذه المعارف السحرية جميعاً وتقسيم المعارف كافة الى قسمين : قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل في عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن ـ كذلك ـ كل سحر

يزعم أصحابه انه من العزائم التي يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع في تلك القرون أن الشيطان يتشكل بأشكال الملائكة والارواح العلوية كما قال بولس الرسول في رسالة كورنثوس الثانية « لان هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك النور ، فليس عظيماً ان كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر » .

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب الى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما اليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت اذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسم لاهلاك المسحور ، ثم صدر في انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضي بالموت على كل من يثبت عليه تعاطي السحر ولو للعلاج وشفاء الامراض ، لانه محالفة مع الشيطان ، وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذه معدودة من البلاد التي لا تخضع كل الخضوع للسيطرة الكهنوتية ، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل في القارة الاوربية ، حيث أحرقت النساء عقاباً على السحر ، وأحرق الاطفال لانهم من ولد الشياطين ، وصدرت آخر هذه الاحكام في منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر في الولايات المتحدة .

وانتهى القرن الثامن عشر والرأي الغالب على أهل الغرب أن السحرة جميعاً حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التي يقرها الدينيون .

الفصل الخامس

* الشيطان والفنون
* شياطين الشعراء والكتاب
* في الادب العربي
* في الحضارة العصرية

الشيطان والفنون

قال أبو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما

رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وربما كان أبو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول : ولكنه في الواقع قول يعم جميع الاقوام ، ويعم جميع أنواع الاحسان في الكلام وفي غير الكلام .

فالعبقرية عند الاوربيين منسوبة الى الجن ، ومعنى العبقري عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة في القدرة والتفوق كائناً ما كان العمل الذي يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس » « Ginius » تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف في الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها في الشعر والنثر ، أو في التصوير والنحت ، أو في الانشاء والتلحين ، أو في العلم ، أو الصناعة ، أو تدبير المال وسياسة الشعوب .

والعبقرية في التعبير العربي الحديث مأخوذة من كلمة عبقر ، موضع يقولون إن الجن تسكنه وإن الصناعات الفائقة كلها تنسب اليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كأن صليل المروحين تطيره صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون ان سكانه أنفسهم موصوفون بالجمال كما قال الاعشى : « كهولا وشباناً كجنة عبقر » .

ويرد بعضهم أن الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية « آبكار » بمعنى الرونق ، وهو بعيد لان اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ، ولا يوجد في الاصل الفارسي ما يوحي بهذه القصة ، أو يوحي بأسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور في هذه المقتبسات .

وتذكر كلمة « عبقري » وصفا للنفاسة بغير نظر الى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء في سورة الرحمن من القرآن الكريم : متكئين على رفرف خضر وعبقري حسان » .

*

ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الابداع بالاعجاز ، ووصف الاعجاز تارة بالدقة التي تخفى أسرارها على غير ذوي الفطنة ، وتارة بالفخامة التي تتعاظم العاملين من غير ذوي العزم والقدرة الخارقة .

يقال ذلك في البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة الى الخبايا والاعماق .

ويقال ذلك في المساعي الكبار التي يضطلع بها المردة الجبارون ، ولا يقوى على هذا الاضطلاع بها من دونهم من ذوي الاجسام المحسوسة .

وحيث تسري الخواطر الى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة لا جرم تنتهي بمسراها الى العوالم الخفية التي لا ترى بالعيون ، ولا تحد قدرتها بما يحد الايدي والاقدام من أجسام بني آدم وحواء .

ولهذا الاستطراد الطبيعي في تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن ، بل على علاقة كل « بالغ » من الاقوال والاعمال بتلك الخلائق المستترة التي لا تحدها نقائص اللحم والدم ، لانها متلبسة في الاذهان بخلقة النار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه .

والعرب تزعم أن شعراءها تستوحي الجن ، وأن كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الأعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن ، وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق أن الشعر منقسم بين شيطانين ، أحدهما يسمى الهوجل وهو موكل بالجيد من الشعر ، والآخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئه وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحمود نائله   كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك وقال : « انهما قد اجتمعا لك في هذا البيت ، فكان معك الهوجل في أوله فأجدت ، وخالطت الهوبر في آخره فأفسدت » .

وكان أبو النجم الرجاز يفخر على الشعراء ويقول إن شياطينهم جميعاً إناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

انى وكل شاعر من البشر   شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وكأنه نظر في ذلك الى فحولة الكلام ، مما اشتهر به الرجز ولم يشتهر به الشعر في زمانه .

ويكون مع الشيطان تابع أو « رئي » كأنه الراوية الذي يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر .

وفي كتاب « آكام المرجان في أحكام الجان » نظم كثير منسوب الى الجن بغير واسطة الانس أو مشترك بين قائلين أحدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك :

قال بعد عنعنة طويلة : « خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادي عوف فعرسنا به فاستيقظت في بعض الليل فاذا أنا بقائل يقول :

ألا هلك النسـاك غيث بنـي فهر
وذو البـاع والمجـد التليد وذو الفخر

فقلت في نفسي والله لأجيبنه فقلت :

الا أيهـا الناعـي أخـا الجـود والفخر
من المـرء تنعـاه لنـا من بنـي فهر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو أخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

لعمـــرى لقــد نوهــت بالسيد الذي
له الفضـل معروفـاً علــى ولــد النضر

فقال :

مررت بنســوان يخمشــن أوجها
صباحــاً عليه بين زمــزم والحجر

فقلت :

متــى ؟ ان عهــدي فيه منــذ عروبة
وتسعــة أيام لغــرة ذا الشهر

فقال :

ثوى منــذ أيام ثلاث كوامل
مع الليل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هذا هاتف ينعي ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقي أحد بشرف أو عزة أو كثرة مال لبقي عبد الله بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الايام لا تبقي عزيزاً   لعزته ولا تبقي ذليلا

فقلت :

ولا تبقي من الثقلين ثقلا   ولا تبقي الحزون ولا السهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة الى قول حسان بن ثابت في المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجني :

ولي صاحب من بني الشيصبا ن فطورا أقول وطوراً هوه

وقد روى صاحب « آكام المرجان » أبياتاً كثيرة من نظم الجن في رثاء عظماء الصحابة وآل النبي ، منها ما نسب الى الجن منفردين به ، ومنها ما اشترك فيه قائلان كالابيات التي رويت في رثاء ابن جدعان .

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين إنهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواسم الادب أن الفرزدق وجريراً ركبا ناقة الى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير في بعض الطريق ، فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

علام تلفتين وأنت تحتي وخير الناس كلهم أمامي
متى تردي الرصافة تستريحي من الادلاج والدبر الدوامي

ثم قال في نفسه : الان يجيء ابن المراغة فيسمع ما أنشدته فيه فيجيبني بقوله :

تلفت انها تحت ابن قين أبي الكيرين والفاس الكهام
متى ترد الرصافة تخز فيها كخزيك في المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وأنشده البيتين الاولين : فلم يلبث أن أنشده البيتين الاخيرين ، فضحك الفرزدق وقال : والله يا أبا حرزة لقد قلتهما قبل أن تأتي . قال جرير : أما علمت أن شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الأصل فيه قائم على اعتقاد طبيعي شائع يخيل الى الناس في شتى الامم أن المعاني الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وأن أسرار الصناعات التي تدق عن نظر العيون ينبغي أن تطلع عليها العيون التي تعيش في عالم الاسرار ولا يدق عن نظرها شيء في حلكة الظلام .

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن القريض ، وبخاصة في الزمن الذي كان فيه الغناء موقوفاً على البيت أو الابيات يختارها المغني من كلام الشاعر في عصره أو في غير عصره .

روى صاحب الاغاني أن الغريض كان يقتبس بعض أصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته ، فأنكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغني لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفاً عجيباً ذعرن منه فقال لهن الغريض : ان في هذه الاصوات صوتاً اذا نمت سمعته وأصبحت فغنيت به ، وأصغين الى الصوت فاذا هو من نغمة ألحان الغريض .

وادعى اسحق بن ابراهيم الموصلي أن الغناء الماحوزي الذي افتن به الناس من فن أبيه انما كان من صنع ابليس . قال عن أبيه : « استأذنت الرشيد أن يهب لي يوماً من أيام الجمعة أنفرد فيه بجواري واخواني فأذن لي في يوم السبت . . . فأقمت بمنزلي وأخذت في اصلاح طعامي وشرابي ، وأمرت البواب ألا يأذن لأحد في الدخول علي ، فبينما أنا في مجلسي ، والحرم قد حففن بي ، اذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان ، وعلى رأسه قلنسوة ، وبيده عكازة مقمعة بفضة ، وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار . . . فدخلني غيظ عظيم لدخوله وهممت بطرد بوابي . . فسلم علي أحسن سلام ، فرددته عليه ، ودعوته الى الجلوس فجلس ، وأخذ في أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بي من الغضب ، فظننت أن غلماني تحروا مسرتي بإدخال مثله علي لأدبه وظرفه . فقلت : هل لك في الطعام ؟ فقال : لا حاجة لي فيه . قلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : يا أبا اسحق . هل لك أن تغنينا شيئاً فنسمع من صنعتك ما قد فقت به عند الخاص والعام . . . فغاظني قوله ، ثم سهلت الامر على نفسي فأخذت العود فجسست ثم ضربت وغنيت ، فقال : أحسنت يا ابراهيم ! . . فازددت غيظاً وقلت ما رضي بما فعله في دخوله بغير إذن واقتراحه علي حتى سماني باسمي ولم يجمل مخاطبتي . ثم قال : هل لك أن تزيد ونكافئك فتعجبت في نفسي وقلت : بم يكافئني ؟ ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياماً كافياً لقوله لي أكافئك . فطرب وقال : أحسنت يا سيدي ! ثم قال : أتأذن لعبدك في الغناء ؟ فقلت : شأنك ! واستضعفت عقله أن يغني بحضرتي بعد ما سمعه مني ، فأخذ العود وجسه فوالله قد خلت أن العود ينطق بلسان عربي فصيح في يده ، واندفع يغني :

ولي كبد مقروحة من يبيعني بها كبدا ليست بذات قروح

الى آخر الابيات . . . .

« فوالله لقد ظننت أن الحيطان والابواب والسقوف وكل ما في البيت يجيبه ويغني معه من حسن صوته ، حتى خلت والله اني أسمع أعضائي وثيابي تجاوبه ، وبقيت مبهوتاً لا أستطيع الكلام ولا الحركة ، لما خالط قلبي من اللذة التي غيبتني عن الوجود ، فلما رآني كذلك أخذ العود ثانية واندفع يغني هذه الابيات :

الا يا حمامات اللوى عدن عودة فاني الى أصواتكن حزين

الى آخر الابيات . . .

فكاد عقلي أن يذهب طرباً ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادني مسراك وجدا على وجد

الى آخرها . . .

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماحوزي خذه وانح نحوه في غنائك ، وعلمه جواريك . فقلت : أعده علي . فقال : لست بمحتاج . قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عيني . فارتعدت لذلك ، وقمت الى السيف فجردته وغدوت نحو أبواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجواري : أي شيء سمعتن عندي ؟ فقلن : سمعنا أحسن غناء ، لم نسمع قط أحسن منه ، فخرجت متحيراً الى باب الدار فوجدته مغلقاً فسألت البواب عن الشيخ الذي خرج فقال : أي شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحد . . . فرجعت لأتأمل أمري فاذا هو قد هتف بي من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحق ! أنا أبو مرة ابليس . . . وقد كنت نديمك اليوم فلا ترع . . . فركبت الى الرشيد وأخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعد الاصوات التي أخذتها . فأخذت العود فاذا هي راسخة في صدري . . » .

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن في الصحراء قديماً جداً لم يتغير ظنهم به

فيما نظمه الشعراء الاسلاميون ، كذي الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن في عقداته   هرير كتضراب المغنين بالطبل

غير أنهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغني شيطاناً مثله لان فن الشعر كان أقدم عندهم من فن الغناء ، وانما كان غناؤهم حداء أو محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغماً شائعاً يغنيه كل سائق يحدو الابل ، فهي طريقة لا محل فيها للافتنان والتنويع ، وكان غناؤه على الاكثر في قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن أنه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها ، فلما ظهر المغنون آحاداً منقطعين لعملهم منفردين بوضع ألحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالاخذ عن الجن في صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الانس في هذه الصناعة ، ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتأصلوا فيها كما تأصل الشعراء ، فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن اجماعاً من وحي البديهة في البيئة بأسرها .

*

وقد روي عن الصناعات العلمية كالطب ، ما روي عن صناعة الكلام وصناعة الغناء ، فأسند صاحب كتاب الهواتف الى النضر بن عمرو الحارثي قصة قال فيها :

« انا كنا في الجاهلية الى جانبنا غدير ، فأرسلت ابنتي بصحفة لتأتيني بماء فأبطأت علينا ، وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها . . . قال : والله اني جالس ذات ليلة بفناء مظلتي اذ طلع علينا شيخ فلما دنا مني اذا به ابنتي . قلت : ابنتي ؟ قالت : نعم ابنتك . قلت : أين كنت أي بنية ؟ قالت : أرأيت ليلة بعثتني الى الغدير ؟ اخذني جني فاستطار بي فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهداً ان ظفر بهم أن يردني عليك ، فظفر بهم فردني عليك . فاذا هي قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كان الجني جعل بينه وبينها امارة اذا رابها ريب أن تدخن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة . ما أنت بإنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه ؟ لو كنت تقدمت اليك لفقأت عينك ، رعيتها في الجاهلية بحسبي وفي الاسلام بديني . فقال له الرجل : ألا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك . ان أبانا سأل لنا ثلاثاً :

أن نرى ولا نرى ، وأن نكون بين أطباق الثرى ، وأن يعمر أحدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : ألا تصف لي دواء حمى الربع ؟ قال : بلى . قال : ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنها عنكبوت ؟ قال : بلى ! قال : فخذها ثم اشدد على بعض قوائمها خيطاً من عهن فشده على عضدك اليسرى . ففعل . قال : فكأنما نشط من عقال . فقال الرجل يا هذا الا تصف لنا دواء رجل يريد ما تريد النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجال ؟ قال : نعم . قال : لو لم يفعل وصفت لك » .

وجاء في كتاب « آكام المرجان » بعد نقل هذه القصة جملة أخبار من قبيلها يتلقى فيها الانس عن الجن علماً من علوم الطب لعلاج بعض الامراض ومنها أمراض لها في عرف الاقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال ، وبعض هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى والتمائم التي تدخل في طب السحر والكهانة .

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز في رأي قوم الا كان لها تفسير من معونة الجن أو المردة ، ويرجعون في هذا التفسير الى الخبر المنقول كما يرجعون الى المجاز والتخيل . فمما نقله الشعراء من أخبار الرهبان ونساك البيع قبل الاسلام قول النابغة عن معابد بعلبك أو تدمر :

الا سليمان اذ قال الاله له ... قم في البرية فاحددها عن الفند
وخيس الجن أني قد أذنت لهم ... يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وجاراه البعيث في قوله :

بني زياد لذكر الله مصنعة ... من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الأنس ترفعها ... مما بنت لسليمان الشياطين

والبحتري يصف ايوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع إنس لجن ... سكنوه أم صنع جن لإنس

فهو هنا يرى بناء فخماً مهجوراً يصح أن يكون من صنعة الانس للجن لانه

خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح أن يكون من صنعة الجن للانس لانه فيما هاله من فخامته أكبر مما تبلغه طاقة الانسان .

ولا يفهم القول بتسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحاً الا مع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغي ألا يلتبس أحدهما بالآخر في هذا المقام .

فالتسخير الذي يشمل بني آدم جميعاً ويشمل القوى والعناصر جميعاً غير التسخير الذي يأتي فلتة من حين الى حين بالحيلة التي يحتالها الشيطان أو يحتالها الانسان ، ولا تبلغ بحال من الاحوال أن تساق مساق التعميم في الكلام على خلق الاحياء وخلق السموات والارضين .

فمن التسخير الذي يجري مجرى النواميس الكونية قوله تعالى في القرآن الكريم « وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه » .

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما في الارض والفلك تجري في البحر بأمره » .

وقوله تعالى : « ألم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » .

وقوله تعالى عن داود وسليمان : « وكلا آتينا حكماً وعلماً وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره » .

ولم يرد في القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والانس والحيوان الا بهذا المعنى ، ومنه ما جاء عن تسخيرها لسليمان « وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون » .

ومنه : « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين في الاصفاد » .

فهذا التسخير الذي يفهم منه أن الانسان قد أوتي علماً يسيطر به على القوى والعناصر وما في الارض ، انما يجري مجرى النواميس الكونية على عمومها ،

ولا يخص به انسان من الناس الا كما يخص بعلم بناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله في غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الانسان .

وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسي والشياطين .

فذاك تسخير تجري فيه ارادة الله وقدرة الانسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد في النواميس الكونية التي يعلمها من يقدر على علمها .

أما التسخير المقصود بالسحر وما اليه فهو الى خرق النواميس أقرب منه الى مجاراتها والعمل بارادة الله فيها ، وانما تخرق فيه هذه النواميس بثمن يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الامور .

ونعود الى عمل الشيطان في الفنون فنلاحظ أن ملكة الخيال تتقارب في رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من انسان واحد ، يتخيل الشيء الواحد في أوقات مختلفات .

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان - ومن نقل عنهم - يتحدثون عن جنيات الفنون التي اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها الى الجان . وقد قيل عن سقراط إنه كان يستمع وحي الحكمة من جني أو شيطان كأنه يستمع الى صوت صديق من الانس يحاوره ويناجيه .

وقصة الموصلي مع ابليس لها نظير من قصة الموسيقي الايطالي جيوسبي ترتياني في أوائل القرن الثامن عشر (١٧١٣) حيث كان نزيلا بأحد الأديرة فجاءه الشيطان في المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحناً أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه ابليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان .

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح في الشرق يضارعهم في اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان » .

والاطباء في القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة في صلواتهم ودعواتهم للمرضى ، فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التي يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمناً لما يخدعونهم به من ظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار .

والحكم علي شياطين الفنون من الوجهة الدينية متقارب في المشرق والمغرب .

فالغالب على شياطين الفنون أنها شياطين قدرة وابداع وليست بشياطين غواية وافساد .

ولكن الفنون قد تستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وابراز معاني الجمال ، كان جرير يفخر بشعره فيقول إنه من رقى الشيطان ، ويمدح الرجل الصالح فيقول ما معناه أن الله عصمه من رقاه :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقياً

فاذا كان الفن من آلات الاصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، واذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند ابليس . وقد قال الامام ابن الجوزي في فصل من كتابه « تلبيس ابليس » وحرم في نهايته غناء التطريب واللهو ، قال في أوله : « وفصل الخطاب أن نقول ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات ، فان أقواماً من الاعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام ، وربما ضربوا مع انشادهم بطبل ، فسماع تلك الاشعار مباح ، وليس انشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفي معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون أشعاراً يحرضون بها على الغزو ، وفي معنى هذا انشاد المبارزين للقتال اشعار التفاخر عند النزال ، وفي معنى هذا اشعار الحداة . . . وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : ان حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت اليكم . . . وقد كان لرسول الله صلى الله عليه

وسلم حاد يقال له أنجشة يحدو فتعنق الابل ، فقال رسول الله : يا أنجشة رويدك ! رفقاً بالقوارير . وفي حديث سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسول الله الى خيبر ، فسرنا ليلا ، فقال رجل من القوم لعامر بن الاكوع : ألا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول :

لاهـم لولا أنـت ما اهتدينا ولا تصدقنـا ولا صلينا
فألقين سكينـة علينا وثبـت الاقـدام اذ لاقينا

فقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا عامر بن الاكوع ، فقال : « يرحمه الله » .

ولنذكر مع كلام الامام ابن الجوزي أنه ألف كتابه للكشف عن تلبيس ابليس فلم يدع طائفة الا كشف منها لوناً من ألوان هذا التلبيس ولم يستثن الحكماء والفلاسفة والمتصوفة والنساك ، فما بالك بأصحاب الفنون وقالة الشعر ، ومنشدي الغناء .

شياطين الشعراء والكتاب

يغلب أن يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء أنفسهم ، وأن يكون الكلام عنه لاحقاً لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقاً شعريا فهو مخلوق خيالي ، أبدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكري الجاهليات الغابرة ، له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه أسلوب السحرة والكهان في نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين أهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى السجع والقافية ، وتخالف كلام الساحر أو الكاهن في سائر أقواله ، ليصح القول فيها إنها من وحي غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر الى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم .

على أن خيال الشعراء يعمل في تصوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشاعر . وشيطان الاديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم صوروه في الصور التي تتمثل للعين ، والصور التي يدركها الفكر وتلم بها أحلام اليقظة . وندر من الشعراء خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل في العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الانسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء في الشعر العربي ما يصلح أن ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الاعراب في رواية الخليل بن احمد :

وحافر العير في ساق خدلجة
وجفن عين خلاف الانس في الطول .

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال انساني منحرف بعض الانحراف أو مشوه في أصل الخلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الانسانية ، ومن ذاك وضع العين بالطول ، وتخيله بعين واحدة في وسط

جبهته ، الى أشباه ذلك من التشويه المقصود لمجاراة الخيال في استلزام المخالفة بين منظر الانسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس ـ السعدي الشيرازي ـ للشيطان الذي رآه في الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع البانة ، وعينين كأعين الحور ، وطلعة كأنها تضيء بأشعة النعيم » . . ولما علم أنه الشيطان أدهشه أن يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ، وسأله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال : « لا تصدق يا صاح أنه مثالي ذاك الذي رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التي ترسمني تجري بها يد عدو حسود . سلبتهم السماء فسلبوني الجمال » .

ولا يعنينا في هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التي اخترعها الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر ، ولكننا نجمع هنا بعض أوصافه التي تقع في روع المتخيل ، أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست هذه الاوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة في جوهرها ، وليس فيها من ابتداع الا والمنطق يوحي به لزاماً في أوصاف الشياطين على اجمالها ، وانما الجديد فيها قدرة الشاعر على ابراز « الشخصيات » وتلوينها بألوانها الخلقية ، وكل هذه الشياطين التي جاءت « مشخصة » في أقوال شعراء الغرب قريب من قريب .

وليس أشهر في « الشخصيات » الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتي وملتون وبليك وكاردوتشي ، من شعراء القرن السادس عشر فما بعده . فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مسحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شيطان كاردوتشي في قصة مسرحية ، ولكنه مثله على مثال الشخصيات السياسية التي تقوم ببعض الادوار على مسرح الحوادث .

ولد كريستفور مارلو « Christopher Marlowe » الشاعر الانجليزي في سنة ١٥٦٤ ، وظهرت في حياته قصة الساحر فوستوس بالالمانية ، ثم ترجمت الى اللغة الانجليزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش الى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما في العلم والفقه ، فأقبل على كتب السحر الاسود يلتمس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة في المتعة التي يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها الى الجحيم .

ويجري الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعاقد بينهما كما يأتي :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر أن أنجز جميع الوعود التي اتفقنا عليها .

فوستوس : اذن دعني أقرأها على الشرائط التالية :
أن يكون فوستوس روحاً في الصورة والهيولى

وأن يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره . وأن مفستوفليس يجيبه الى كل طلب ويحضر له كل مطلوب

وأن يكون في بيته أو مكتبه غير منظور

وأن يظهر لجون فوستوس في كل وقت كما يجب
وأنا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ، أضع جسدي وروحي بين يدي ليوسيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض لهم بعد أربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان ، وأن يحملوه جسداً وروحاً ولحماً ومتاعاً الى حيث يقيمون .

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعاً بدم الساحر بدلا من المداد .

ويظهر مفستوفليس في الرواية باسم ملك السوء حيناً وباسم الشيطان أو باسمه المشهور في أكثر الاحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشيطان مرؤوس لابليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرؤوسيه سبعة شياطين متآمرين هم : شيطان الكبرياء ، وشيطان الطمع ، وشيطان الغضب ، وشيطان الحسد ، وشيطان الشهوة ، وشيطان الكسل ، وشيطان الدعارة .

ويقضي الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعاً بما يهواه من حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن « هيلينا » التي فتنت اليونان الاقدمين ، وباريس ، والتي نالت الجائزة قديماً في مباراة الجمال .

ويغلب على ليوسيفر ـ كما صوره مارلو ـ أنه يضع الامور في مواضعها ، ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ، ويعطي الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس

الساحر العالم من سعي السيد المسيح في خلاصه وينبئه أنه عاجز عن انقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز الى غلبته ورجحان الشر على الخير في حوله وحيلته ، بل يرده الى عدل المسيح وأنه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة ، ولا ينكر الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه ـ على حكم العهد ـ في تقييد يدي الساحر فلا يقدر على رفعهما الى السماء ، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء .

*

ويأتي ملتون (١٦٠٨ ـ ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة وجيزة في التاريخ الزمني ، ولكن الشيطان الذي صوره ملتون أهم من الشياطين « الشعرية » التي صورها من سبقوه ولحقوه في هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التي تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية ، ودراسة الادب والبلاغة ، ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والأحداث السياسية ، ودراسة الاطوار التي تتمثل فيها التقوى ، حيث تتراءى أحياناً على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها .

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتيني في حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذي قاد الثورة على الملك شارل الاول ، وقد عمي في أواخر أيامه ، وشمت به شارل الثاني فقال له : ألا ترى يا مستر ملتون أن الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته في أبي ؟ وكان ملتون مشهوراً بسرعة الجواب ، وأجوبته في قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة في حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع الى الجواب قائلا : وعلى أي ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟

وملتون لم يبدع قصيدته كل الابداع ، بل استعار من جليوم دي بارتاس « Bartas » (١٥٧٨) في قصيدته أسبوع الخليقة ، واستعار من أفيتوس « Avitus » في قصيدته عن الخليقة والسقوط والنفي من الفردوس ، واستعار من القصص الشعبي الذي كان يدور حول مأساة آدم وحواء ، ولكن هذه القصص

جميعاً نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالة صورها وتشبيهاتها واتساعها لتلك الدراسات المنوعة التي أشرنا اليها .

يقول الشاعر دريدن إن الشيطان هو بطل ملحمة « الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الادبيون رأي دريدن في هذه الملاحظة ، فان ملتون قد حول التفات القراء الى الشيطان بما ألقاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لا يعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التي يذمه بها ويستنكر بها فعاله انما تأتي مجاراة للعرف الشائع الذي يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الاعمال والاقوال التي ينسبها اليه أو يضعها على لسانه بروزاً قوياً موفور النصيب من عناية الشاعر واعجابه ، وسر ذلك - مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين - أنه كان ثائراً ، ووجد في تمرد الشيطان فرصة للافصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان في قصيدة ملتون أنه يمثل شارل الاول في بعض الخلال كما يمثل كرومويل في حالات أخرى . غير أنه كان يمثل شارل الاول في الخلال التي يعيبها الشاعر ويضيفها الى خبائث الشيطان ومساوئه ، ويمثل كرومويل في الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفي مجموعة تلك الخلائق التي جعلته يطلب المكان الاول في جهنم ولا يقنع بالمكان الثاني في السماء .

ويلقي ملتون على لسان الشيطان أنه يرثي للملائكة الذين يحاربونه في صف الاله ، وهو الذي غضب لهم وأنف من المهانة التي تلحقهم بتفضيل بني آدم عليهم ، وأنه لولا صواعق السماء لما طمعت جنود السماء في الغلبة عليه . وتخيل ملتون شيطانه في بعض مواقفه كأنه سلطان شرقي يستوي على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه وأعوانه ، وتخيله في أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذي يؤسف على هزيمته ولا تراد له الا لأنه قضاء لا مرد له من الله . وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف الا صورة واحدة تثبت له في جميع مواقفه ، وهي الصورة التي ترضي الشاعر حين يتخذه لساناً ناطقاً بحجج المتمردين ، وحين يتخذه شبحاً يحمله أوزار الطغاة وذوي الجبروت ، فان ملتون هو ملتون في الحالتين ، وان بدا الشيطان في صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ، ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين .

ولعل القول الاصح ان الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفرق بين كرومويل وشارل الاول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما في المطابع الشخصية لا يتقابلان هذا التقابل على طرفي الميدان ، بل يتقاربان تقارب الاشياء والنظراء .

*

وفي هذه الاسطر محل لاديب من معاصري ملتون يقتحمه اقتحاماً بحكم المعاصرة والاشتراك في الحرب الاهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له الى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعني بهذا الاديب جون بنيام « Bunyam » مؤلف رحلة الحاج والحرب التي شنها شداي على ابليس . وابليسه غاصب محتل لمدينة الروح الانسانية يحاصره عمانويل ابن باني المدينة شداي ـ اسم من أسماء الله عند العبريين ـ ثم يستولي عمانويل على المدينة ، ويتغلغل فيها ابليس وجنوده بالمكر والدسيسة ، ويستردها جميعاً ما عدا قلعتها المحصنة وهي ضمير الانسان المؤمن بكفارة الخلاص .

*

أما الشيطان الذي يلي شخصية ابليس في الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فاوست التي الفها شاعر الالمان الاكبر جيتي (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) ، وجعل فيها للشيطان مفستوفليس دورا بين الارض والسماء وبين الخالق والمخلوقات ، غير الدور الذي تقدم في رواية مارلو . فان مفستوفليس في رواية جيتي هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا أو تلميذاً من تلاميذه ، ودوره في هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ، ولا تحده المهمة التي يندبه لها فاوست وأمثاله .

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التي امتزجت بالسوء قديماً ولكنها لا تفتأ تصنع الخير » .

ويصف نفسه مرة أخرى بأنه القوة النافية التي تقول « لا » أمام كل ايجاب .

ويوصف في جميع الاحوال كأنه المفسد الذي يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق ، كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام .

ويقول مفستوفليس للدكتور فاوست ان الوجود كله عبث ، وانه كان من الخير الا يوجد . فيقول فاوست : والآن علمت ما تريد . . انك لم تستطع ان تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فاوست على غرار قصة أيوب في العهد القديم ، وظهر الشيطان في أولها يقول لله انك خلقت العقل للإنسان لتميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونها في الشر والجهالة ، وانني لا أبالي ان اشقي بني آدم فانهم متكفلون دوني باشقاء أنفسهم . ثم يقع الرهان على روح العالم فاوست الذي يئس من البحث والعلم ، وآب الى البؤسى التي لم يستطعم معها مذاقاً للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التي تقدمت في رواية مارلو ، ويأخذه الشيطان الى وكر الساحرة لتعيده باشرافه ـ أي اشراف الشيطان ـ الى الشباب . فيعاف العالم ذلك الوكر ، ويسأل مفستوفليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستوفليس : بلى ! هناك وسيلة اهديك اليها . تذهب الى الغيط ، وتحرث وتكرث ، وتأكل اللقمة التي تجدها ، وتحصر الحياة في أضيق حدودها ، وتأتي عليك الثمانون وأنت في غرارة الشباب .

قال فاوست : لست بهذا . . . قال مفستوفليس : اذن لا مناص من السحر والساحرة ، وسأله فاوست : ولم الساحرة ؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبر طويل لا أطيقه ، ولا بد لكل صناعة من أحكام .

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسي الاعتراف ، فيشتهيها فاوست ، ويروضها له الشيطان ، ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام أمها بجرعة مخدرة ، فتموت الام بالجرعة ، وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ، وفي خلال ذلك يأتي أخوها الجندي فيطلع على سر هذه الفاجعة ، ويذهب الى فاوست ليقتله فيقتله فاوست في مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود الى مرجريت ، ويعلم انها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من السجن فتأبى ، وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها الى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت وتهتف الملائكة : لقد نجت باذن الله !

ويمضي فاوست في تجربة أخرى غير تجربة العشق والغواية ، فيرتفع في

عيني الملك وينال ما يرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، ويطمعه الشيطان في المزيد من الجاه والملك فيعاوده الحنين الى العشق وغواياته ،ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة « هيلينا » من الاموات فيبعثها ويأتي بها اليه ، ولكنها تراوغه اذ يضمها الى ذراعيه ، فلا يجد منها غير جلبابها في يديه !

وكان فاوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه ليذوقن كل ألم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها وأخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك ان ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد في كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التي تلهيه . ويسأل : أين هي السعادة ؟ فيعلم أنه لم يجدها قط في لهوه الاول ولا في لهوه الاخير ، ثم يلوح له أن يستخدم علمه في تعمير الخراب واصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك اذ تحين ساعته وتخرج روحه ، فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها الى الجحيم ، وتتنزل الملائكة من السماء فتنازعه عليها وتقول له انه قد خسر الرهان . لان فاوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه الى النور ومات وهو متجه اليه .

*

وأغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذي ابتدعه خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذي ابتدعه . فانه شاعر في العصر الحديث يدين جداً وصدقاً بالمذهب الثنوي ومذهب المعرفيين « Gnostics » الذي ذهب معتقدوه بذهاب القرون الوسطى .

كان بليك من أتباع المتنبىء السويدي سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من أصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر في خلده بعد أن جاوز الخمسين في منتصف القرن الثامن عشر أنه يتلقى الوحي من عالم الغيب ، فاعتزل وظائف الدولة ، واعلن خروجه على المذاهب المتبعة ، وبشر برسالته التي سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيراً يخالف التفسيرات التي اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر

وطنه وأقام بالعاصمة الانجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢)

ودرج بليك في حجر أسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ، ولكنه انقلب عليه ولم يرجع الى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل راح يستقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره والهامه ، ولم يكن على علم بشيء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لانه لم يدخل مدرسة منتظمة في صباه .

وشيطانه يصح أن يكون فكرة مجردة كما يصح أن يكون روحاً انسانياً أو ملكاً من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح أن يكون عنواناً يضعه الشاعر على كل « شخصية » مفروضة تنتمي الى الشر والخباثة ، وعنده أن الشر كل الشر هو الصرامة في الاوامر والنواهي والتشدد في المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه في الاساطير الغابرة والديانات الاولى وصف العبوس والجهامة واتسم في ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى في الشيطانية على حسب قسوته وصرامته الى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر أو آلهة الظلام . ومن أوهامه التي لا يدري احد أهي أوهام شعر أم اوهام اعتقاد ثابت ـ ان روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها في تصوير السيد المسيح وتصوير ابليس ، وأن الكتب القديمة أدخلت في أذهان الناس أن الانسان ذو حقيقتين جسدية وروحية ، وأن نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وأن الله يعذب الانسان عذاب الابد لمطاوعته بواعث جسده ، ولكنه من الحق الذي يناقض هذا أن جسد الانسان غير منعزل عن روحه لان حواس الجسد هي منافذ الروح الى المعرفة ، وان النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل الا الحدود التي تحيط بذلك النشاط ، وأن النشاط هو الفرح الابدي وما عداه كسل واحجام عن الحياة .

ولم ينشر بليك مؤلفاته لانه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى أنها اليق بالوحي الزوحاني من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة كان يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتوراً في نهايته أو مبتوراً في أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود أن يدونها بعنوان « خطرة مذكورة » ، وفي الخطرة التالية

عن الشيطان والملك يقول :

« رأيت يوماً شيطاناً في لهيب النار يرفع هامته الى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع يا هذا . ان عبادة الله هي تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص أعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون عليه الا اعداء لله . فلا اله غير ذاك » .

وسمع الملك مقاله فازرق ، ثم ملك جأشه فاصفر ، ثم سكن فابيض ، وعلته حمرة وابتسامة ، وقال : « يا عابد الصنم ! اليس الله بالاله الأحد ؟ اليس الله قد تجلى في عيسى المسيح ؟ أليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ أليس سائر الناس حمقى وخطاة وعدما ونكرات ؟ » .

ثم يلقي بليك على لسان الشيطان رداً يقول فيه : « اذا كان المسيح أعظم انسان فأحببه حبك للانسان الاعظم » . . ثم يحكي له الشواهد من أعمال المسيح ناقضاً ما يفهمه الاكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : « لقد كان عيسى فضيلة كله ، لانه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود » .

وكل ما القاه بليك على ألسنة الشياطين فهو من قبيل ما تقدم ، مع التناقض الذي لا يثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالاوامر الصارمة ، والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة إنها تحسب أنها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق أن يغتر هذا الغرور ، وأكثر النتف التي تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان القران بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان في رأيه بالعمل الذي يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثاً بوحي الفطرة الصادقة .

فالشيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء ، أو ينظر اليها كأنها معاني الشاعر في قريحته مطلقة بغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة في الحس أو الخيال .

وبعد شيطان بليك ـ أو شياطينه ـ لا تحفظ تواريخ الادب الغربي صورة

لشيطان شعري عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشي شاعر الثورة الايطالية (١٨٧٠ ـ ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة .

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشي أن تكون نشيد صلاة ، وقد سماها هو نشيداً ونظمها على وزن التراتيل التي تنشد في الصلوات ، وقال فيها إنه لا يحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وإنه يحيي ابليس لانه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لا تهرب مني حين أناجيك . فانني أود أن انطلق اليك بروحي ولا يكفيني أن التقي بك في الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الأخيرة قائلا :

« انك ايها الشيطان العظيم . انك تعبر البحار وتطوي الارضين . انك تنفث الدخان كالبركان وتجوس خلال الديار ، وتمضي حيث تشاء كما تشاء » .

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كردوتشي الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر ـ كما قال ابن وطنه جيوفاني بابيني ـ متأثراً بأستاذه ليوباردي في قصيدته عن اله الشر أهريمان صاحب القضاء النافذ في الوجود كله ، منفرداً ـ في رأي ليوباردي ـ بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته في الزمن القديم أو الزمن الحديث .

ونحن في هذه العجالة يجزئنا ما تقدم في باب شياطين الشعراء التي عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل ما يقال عن إبليس أو عن الشياطين كما يعتقدها أتباع المذاهب منذ القرون الوسطى ، فقد كان أكثر الشعراء يجربون قرائحهم في مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العيلم الزاخر اذا عرفنا أن رجلا مثل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ ـ ١٦٤٥) الملقب بأبي القانون الدولي قد جرب قلمه وقريحته في هذه المأساة ، وكان معاصراً للشاعر ملتون فانتشرت قصائده الى جانب القصائد الخالدة التي نظمها ذلك الشاعر المعدود اليوم في الذروة بين أشعر شعراء العصور .

وبعد زهاء قرنين أوحى اسم هوجو الى سميه الفرنسي الكبير فكتور هوجو

(١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) أن يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائده في خاتمة الشيطان ، ونادى بموته ولحاقه بابليس جاحد ربه بين عقول كالخفاش الذي يخاف النور ، او البومة التي تستهدي الظلام ، والغراب الذي يسلم الفضاء للنسر والعقاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التي لا تبلغ الهدف الا من وراء قناع الموت ! ودون ذلك كله وتنحسر اشواط الابالسة والشياطين .

الا أن هذا المحصول الزاخر لا يزيدنا لوناً من ألوان الصورة في ضمير المؤمن أو في قريحة الشاعر ، وهذا الذي تحريناه في اهمال ما أهملناه والالمام بما أشرنا اليه . بيد أننا لا نستطيع أن نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشاعر الفرنسي بودلير صاحب ديوان « أزهار الشر » وناظم القصائد في الابتهال الى الشيطان « احكم الملائكة الذي سرق منه القضاء ثناءه والذي سجل عليه الطرد والحرمان من لا يزال يخطىء ويغلط » . فان هذا الشيطان عارض نفساني يصور الانعكاس في السريرة المشوهة ، فتتعمد التوجه اليه على سبيل النقمة والنكاية ، وتصلي اليه ليشفق عليها ، كأنها تستجدي الشفقة الالهية ـ عكساً ـ بلسان اليأس والكبرياء .

وفيما عدا شيطان بودلير لا نرى في هذا الفصل موضعاً للشياطين التي تخيلها الشعراء ولم تدخل في عداد الصور الخلقية وخوالج الوجدان في الانسان منفرداً او جزءاً من أجزاء الجماعة . فالشاعر الروسي لرمنتوف خلق في احدى قصصه شيطاناً لا يعدو أن يكون انساناً متنكراً يزاحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الانجليزي بيرون خلق شيطاناً في قصيدته « رحلة الشيطان » لا يعدو أن يكون مخبر صحيفة يروي للقراء ما يروى في المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجري على لسانه كلاماً يجريه بعض الشعراء الآخرين على ألسنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد .

أما الشيطان الذي نعرض هنا ذكره فهو الشيطان الذي يحوم في النفس الانسانية وبين الجماعات البشرية في تقاليدها وموروثاتها ومقاييسها لخيراتها وشرورها ، وهو الشيطان الذي يطيف به خيال الشاعر معبراً عن شعوره ، وان لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التي سميت بأسمائها في الأدب العربي .

هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، او كالشياطين التي يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر في تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكة الرمز والتشخيص ، فهذه الشياطين قوى مشتركة في طبائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون في الاخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقي مكانها متطلباً منا أن نسميها بغير تلك الاسماء ، لانها لا تقبل السكوت عنها ولا تغفلها الحياة ان أغفلها اللسان[1] .

---

(١) اهملنا في هذا الفصل ما كتب على سبيل الهزل في قصص الفكاهة : كقصة رابيليه الفرنسي ، وبن جونسون الانجليزي ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعاً ليبالغا في دهاء الفلاحين او المرابين ، ولم يقصدا الجد في تصوير شيطان معلوم ، او تصوير الخلائق الشيطانية على العموم .

في الادب العربي

يندر في الادب العربي تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشياطين التي حفلت بها ملاحم الشعراء الغربيين وقصائدهم ، لان شعراء العرب لم ينظموا الملاحم التي يتمثل فيها ابطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هذا الشأن الذي أصابه في أدب الغرب شعرا ونثرا . لان الادب العربي لا ينسب الى الشيطان دورا في قصة الخليقة والخلاص كالدور الذي ينسب اليه في عقائد الادباء الغربيين ، فاذا نظم الشاعر العربي ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذي يطرأ على كل سريرة آدمية في ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء .

واذا تخيل المتخيل صفة للشيطان في كلام شاعر عربي فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصفة التي لخصها ابو نواس في خليط من الخبث والحماقة ، لانه :

تاه على آدم في سجدة
وصار قوادا لذريته

ابليس أكرم من أبيكم آدم
فتبينوا يا معشر الاشرار

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لانفسهم ذلك الحوار الذي دار بينه وبين أبي نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد ابليس ان يتوب عن المعاصي ان لم ييسر له ما يشتهيه ، وقد كان ابليس على هذه الصفة عند الشاعر الذي قال فيه :

النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

وذلك هو بشار بن برد الذي كان يتظرف بامثال هذه البدوات ولا يأتي فيها بجديد من عنده ، لان المفاضلة بين العنصرين اقدم من بشار واقدم من كل ما قاله الشعراء المسلمون عن ابليس ، ولم تخطر صفة ابليس على بال احد من المتقدمين في الاسلام الا كان يعلم أن إبليس من عنصر النار .

على أن موضع ابليس من رسالة الغفران لابي العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشعراء الغربيين . فقد ذهب فيها الى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ما هذه يا عبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في الاحقاف في سورة الجن وهم عدد كثير . . ويسأل احد العفاريت عن أشعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بحقيقة الامر . وهل يعرف الانس من النظيم الا كما تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى الخيثعور وانهم من غير ولد ابليس ، وانهم من الجن الذين سكنوا الارض قبل آدم عليه السلام .

ويلقى في جنة العفاريت شاعرا يسمى ابا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيها عن ايام طاعته لابليس :

نحارب الله جنودا لابليـ	س أخي الرأي الغبين البخيس
نسلم الحكم اليه اذا	قاس فنرضى بالضلال المقيس
نزين للشارخ والشيخ ان	يفرغ كيسا في الخنا بعد كيس
ونقتري جن سليمان كي	نطلق منها كل غاو حبيس
ونخرج الحسناء مطرودة	من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس في فصحه	من بعد ما مني بالانقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها	في يدها كشح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشيثا وها	بيل على العاتقة الخندريس

وفي أقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنساء عن شأنها فتقول : أحببت أن أنظر الى صخر ، فاطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار

تضطرم في رأسه فقال لي : لقد صح مزعمك في :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

قال أبو العلاء عن صاحبه : « فيطلع فيرى ابليس لعنه الله وهو يضطرب في الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدي الزبانية ، فيقول : الحمد لله الذي امكن منك يا عدو الله وعدو أوليائه ، لقد اهلكت من بني آدم طوائف لا يعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : انا فلان بن فلان من اهل حلب كانت صناعتي الادب اتقرب به الى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ـ انها تهب غفة ـ أي بلغة من العيش ـ لا يتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . وكم اهلكت مثلك ! فهنيئا لك اذا نجوت ، فأولى لك ثم اولى . ان لي اليك حاجة فان قضيتها شكرتها لك يد المنون . فيقول : اني لا اقدر لك على نفع ، فان الآية سبقت في اهل النار ، اعني قوله تعالى : « ونادى اصحاب النار اصحاب الجنة ان افيضوا علينا من الماء او مما رزقكم الله . قالوا ان الله حرمهما على الكافرين » .

« فيقول ابليس : اني لا أسألك في شيء من ذلك ، ولكني أسألك عن خبر تخبرنيه . ان الخمر حرمت عليكم في الدنيا واحلت لكم في الآخرة ، فهل يفعل اهل الجنة بالولدان المخلدين فعل اهل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة . اما شغلك ما انت فيه ؟ أما سمعت قوله تعالى : « ولهم فيها ازواج مطهرة وهم فيها خالدون » فيقول : وان في الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندي يدا ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلني دون الشعراء وهو القائل :

إبليس افضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الممقوتين .

فلا يسكت من كلامه الا ورجل من اصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا بشار بن برد قد اعطي عينين بعد الكمه لينظر الى ما نزل به من النكال » .

وكل ما جد بعد المعري من كلام يدخل في باب القصة من الادب ، ويذكر فيه الشيطان - فهو تلك القصص التي جمعت باسم الف ليلة وليلة ، واقتبس رواتها ما تداولته الالسنة من اخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم او حبسها في الاغوار والقماقم ، وهي لا تأتي بابتداع او اختلاف او زيادة على ما اعتقده الناس ونظمه الشعراء .

ولم يطرأ على الادب العربي جديد في هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت في اوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع في الاطلاع على آداب الامم والبحث في موضوعات الشعر وتعبيراته عند تلك الامم ، ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعاني المجردة والعناصر الطبيعية وارواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الاحياء .

ونحن في هذا الباب خاصة لا نبحث بحث المؤرخين او النقاد الاوربيين ، وانما نراجع ما أحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف في هذه الاغراض مما عالجناه وانبعثنا اليه بوحي الاطلاع وعدوى الخواطر التي يوحيها .

اول ما خطر لنا ان نقارن بين التشبيهات والمعاني المجسمة في اللغات الاوربية واللغة العربية ، وكتبنا في هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الاساطير ، مما يطلع عليه القارىء في كتاب « الفصول » ومجمع الاحياء ، وأحسسنا الحاجة الى تصوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فاخذنا في وقت واحد في نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات ابليس » ونخصص كل فصل منه لغواية من الغوايات كالعشق الاثيم والسرقة والبغي والطمع وسائر هذه الآثام التي تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالي سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب واساطيره . فاما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التي نظمناها في موضوعه ، واما مذكرات ابليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الاعور ابن ابليس الموكل بالعشق الاثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الاولى الى موضوع القصيدة التي سميناها « ترجمة شيطان » ونشرت في الجزء الثالث من الديوان .

وحوالي هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقري الاستاذ عبد الرحمن شكري كتابه النثري الذي سماه « حديث ابليس » وقال في مقدمته : « قد بدأ يكثر في آداب اللغة العربية البحث النفسي والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل قطرة لا نعرف ان كان وراءها سيل أتي . وهذا الكتاب فيه شيء كثير من البحث النفسي والتساؤل والشك والسخر الذي هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التي في كل نفس ، ففي فصل نصيحة ابليس مثلا ترى تحت السخر المودع في هذا الباب ما ارمي اليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التي تشبه مباول الطرق ، وقد جعلت ابليس ينصح بما ينبغي الانتهاء عنه ».

وقد اطلعنا بعد الحرب العالمية الاولى على محاولات منوعة في هذه الاغراض لم يكن منها ما بلغ في جودته مبلغ العمل الفني خلال ثلاثين سنة او تزيد ، ومنها ما نظم في مصر وما نظم في غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشاعر السوري الاستاذ شفيق معلوف من صفوة ادباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره في الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ ، واعيد طبعه في سنة ١٩٤٩ ، ثم ظهرت قصة « الشهيد » لزميلنا الكاتب الموهوب الاستاذ توفيق الحكيم ، وهي قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ ، وتعد على صغرها من اجود ما كتب في هذا الغرض في جميع اللغات .

اما قصيدة « سباق الشياطين » فخلاصتها ان ابليس جعل لتلاميذه جائزة ينالها من يعرض اعماله ويثبت للملأ من الشياطين قدرته على السبق في التضليل والاغواء ، فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم : شيطان الكبرياء وشيطان الحسد وشيطان اليأس وشيطان الندم وشيطان الحب وشيطان الكسل وشيطان الرياء ، فاستحقها هذا الشيطان الاخير ـ شيطان الرياء ـ ولكنه جرى على عادته فاظهر الزهد فيها وتنحى عن تناولها بعد اشتراكه في المنافسة عليها فخاطبه ابليس :

قال تأباها ولولاك انجلى غيهب الارض فكانت كالنعيم
دونك الدنيا اتخذها منزلا وتول اليوم أبواب الجحيم

وقصيدة « ترجمة شيطان » هي قصة شيطان ناشيء سئم حياة الشياطين وتاب عن صناعة الاغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنده ، فقبل الله منه هذه التوبة وادخله الجنة وحفه فيها بالحور العين والملائكة المقربين . غير أنه سئم عيشة النعيم ، ومل العبادة والتسبيح ، وتطلع الى مقام الالهية لانه لا يستطيع ان يرى الكمال الالهي ولا يطلبه ، ثم لا يستطيع ان يطلبه ويصبر على الحرمان منه . فجهر بالعصيان في الجنة ومسخه الله حجرا فهو ما يبرح يفتن العقول بجمال التماثيل وآيات الفنون ، واستضحك ابليس بين جنده يوم انتهى المطاف بتلميذه الى هذه الخاتمة فقال :

ما أرى هذا الفتى من دمنا ومتى استغوى الشياطين الشرك
أترى شيطانة من قومنا أغوت الاملاك فهو ابن ملك

. . .

فتلاحى القوم ثم استضحكوا ودعا مازحهم شر دعاء
قال : فلتسلكه فيمن سلكوا ايها المولى سبيل الشهداء

والسمة التي يتسم بها ابليس في رسالة الإستاذ عبد الرحمن شكري هي سمة النقد الساخر تسري في الحديث من اوله الى ختامه ، ويدل بعضها عليها كقول ابليس عن اخلاق الانسان والحيوان : « انني ارى في الحيوانات العجم خصالا هي في الانسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والامانة ما ليس للانسان ، وللخيل من الود والولاء ما لا يبلغ بعضه الانسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ما ليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بني ادم لرأيتم ان تزوجوا بناتكم من البغال والحمير والكلاب والقرود لكي يكتسب نسلهن بالوراثة من حميد صفات هذه الحيوانات . . ولا تحسب ان النساء ينزعجن من هذا الزواج فانهن قد الهمن فضائل الحيوانات وهذا تفسير ميلهن الى صغار الكلاب والقرود . . » .

او كقول احد الشياطين : « . . فالتفت ابليس الي وقال : سمعت احد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذي يحصي ذنوب الناس :

مالي أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك : عافاك الله من الناس ، فاني استخدم ريش جناحي كما تعلم في كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت علي ذنوبهم حتى برت ريش جناحي واتلفته وانا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحي ريشة اخرى حتى نفد ريشي ولم تنفد ذنوب الناس » .

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الانسان ، ونصيحة من روح الابد يقول فيها للانسان الذي يخاطبه : « اذهب الى مكانك من الارض ولا تنس الوجود فان احساسك بعظمته فيه معاني العبادة كلها » .

*

ونظم شاعر المهجر البرازيلي الأستاذ معلوف ديوان عبقر مقسما الى قصائد يروي في كل قصيدة منها نبأ عن ولد من اولاد ابليس او بعض الشياطين ، فيقول مثلا عن الشيطان « داسم » ابليس النقائص :

وجاءنا ثاني ، ابناء عزريل
سحنة شيطان ، في منكبي غول
وقال في دهاء ، ويك أنا الكاسي
بالخبث والرياء ، نقائص الناس

*

لما أممت الارض في زورة
استعرض النقائص العارية
الفيتها والناس قد مزقوا
اجسادها في فتنة دامية
فرحت اكسو بيدي عريها
بحلل براقة زاهية

*

فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الاباء ، غلغل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، في عرفهم عزما

ويقول عن الاعور ابليس الشهوة :

وذاك أعور ، أطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال اني انا ، حامي ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارتي في العيون ، حريقة في الدم
انا مثير الجنون ، والفم لصق الفم
ما اتكأ العاشقون ، الا على معصمي

كم ذاق خمري عاشق فالتوى
معربدا في سكرات الهوى
مهدما ببعضه بعضه
وهو على الانقاض يبني السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين قال فيها عن اهل الخلود من ابناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم اجده لذهولي سوى
جماجم أرواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحت العظام ، اعطى الذي اخذ
لم تظفر الايام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنما احلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الامل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسعدها خيال موفق في كثير من تشخيصاته وما ينطبق به لسان الحال من تلك الشخوص المخيلة .

*

وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان في الادب العربي الحديث تتم من جانبها الفني بقصة « الشهيد » للاستاذ توفيق الحكيم ، لانه اعطى الشيطان

دوره المحتوم في مسرح الكون ، وجعله كما هو في الواقع دورا لا حيلة فيه له ، ولا لأصحاب الاديان الذين يلعنونه ويستنكرونه . ولكنه يلجأ اليهم ليتوب على أيديهم فلا يدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحي لا يملك أن يتصرف في عقيدة الخطيئة والخلاص ، والرباني اليهودي لا يملك ان يتصرف في مكان شعب الله المختار بين الامم التي اضلها الشيطان على اعتقاده ، والامام المسلم لا يملك ان يتصرف في التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح ابليس يائسا : « وجودي ضروري لوجود الخير ذاته . . . نفسي المعتمة يجب ان تظل هكذا لتعكس نور الله » ويبكي ابليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط الى الارض مستسلما « ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء . . رددت صداها النجوم والاجرام في عين الوقت كانها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : انا الشهيد . انا الشهيد » .

ومن الحق أن نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان في الشعر العربي ، لم نثبته مع الصور السابقة لأنه من ألوان الرأي لا من ألوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الاهمال في هذا المطلب لأنه رأي يبديه صاحبه في حقيقة الشيطان .

ذلك هو رأي الاديب العراقي الكبير جميل صدقي الزهاوي ، ومجمله أن الشيطان هو الانسان الذي يخدع غيره لغاية من غاياته :

لا يخدع المرء انسانا لغايته
الا اذا كان ذاك المرء شيطانا

وأما الشياطين والعفاريت فقد حدث الكتاب الكريم في ذكرها ، وأخطأ المفسرون كما قال في حساب الملكين :

غير أني أرتاب من كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن في الكتاب من خطأ كلا ولكن قد اخطأ التفسير

فهذا المطلب على حداثته في الادب العربي قد احيط من جوانب متعددة .

وهو ـ ولا شك ـ لا يساوي نظائره الاوربية في استفاضتها ، ولكنه يساويها في طبقتها اذا أسقطنا من أدب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة ، وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التي لم يخلقها ابتكار الشعراء والأدباء .

في العصر الحاضر

اذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الافكار والعقائد ـ جاز لنا أن نقول إن الحضارة العصرية أكثر الحضارات ايماناً بوجود الشيطان وعمله الدائم في النفس البشرية والبيئات الاجتماعية . فان كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات في كتابة الاوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقي ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول في العصر الحاضر .

ولكننا سنرى مسألة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الاحصاء الآلية : طريقة الحكم على الافكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علماً على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغوياً لا تؤديه كلمة أخرى في مدلوله . لأنه يؤلف في كلمة واحدة بين الاعمال الشيطانية بجملتها ؛ ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الأذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذي انتقل من ألفاظ الاعلام الى ألفاظ المعاني والصفات .

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مأمون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد كانت الكلمة في اللغة السريانية علماً على رب يزعمون أنه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه انكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ، ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان في مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير عن الجشع ومطامع الاشرار .

وبهذا المعنى المجازي تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الاوربية الحاضرة، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية ، كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون في عمله وفي مدى قدرته ، وكلهم في العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع في القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل .

وقد ظهر في باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التي يقابل بها وصايا الله ، فجمعها في ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، وألا يعطي المرء شيئاً بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفرداً ولا يدعو أحداً اليه ، وأن يقتر على أهله ، وأن يحتفظ بالفتات من مائدته والاسمال من كسائه ، وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة . . . وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية ، وانها اليوم لفضائل العصر الذي يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والانانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان في حضارة العصر لا يقصدون جميعاً هذا المعنى المجازي ولا يقصرونه جميعاً على الصفات دون الاعلام والاسماء . فان أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم ـ كما أسلفنا ـ يسمعون باسمه فلا يتخيلونه على الصورة التي كانت تسبق الى خيال السامع قبل بضعة قرون .

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنون الى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ، وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه الى الشيطان من ايحاء وتلقين ، وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواسعة التي كانت له في القرون الوسطى ، فانها انحسرت شيئاً فشيئاً حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة الى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول الى حالة كالحالة التي حصره فيها الاسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان .

*

ويؤول الشيطان على هذا في القرن العشرين الى مصيرين : مصيره في

مجال العقيدة الدينية وهو الى النقصان ، ومصيره في مجال العبارة المجازية وهو الى الزيادة ، وعلى الناظر في العبارات والأساليب أن يطيل النظر في هذا المصير الاخير . أليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟ أليست هذه اللفظة الواحدة : لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها في التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد » .

*

من الذين زادوا في عدد الشياطين المجازية من كتاب العصر الحاضر تولستوي حكيم الروس الكبير . فقد أضاف الى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية ، وشيطان التعصب الديني ، وشيطان الاستعمار ، وشيطان الحرب والاستبداد .

ومن الذين زادوا في عددهم الى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف . . . فان شيطانه الذي أقامه في الضواحي رجل كان طفلا يتيماً تركه أبوه لزوجة سكيرة ، تحبسه في الدار يهلك جوعاً وعرياً وتذهب لتسكر وتعربد في الطريق ، فاذا شكا اليها الطفل اليتيم اذ ترجع الى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح . فكبر في الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير أمه من خلق الله . . . فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق .

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الانجليزية المعروفة ماري كوريللي ، والشيطان عندها في قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظوراً من قفاه لا من وجهه ، وسائراً الى الوراء بدلا من مسيره الى الامام .

ومن الذين زادوا في عددهم سليل بيت العلم بين الانجليز الدوس هكسلي كاتب القصة والمقال وأدب العلماء وعالم الادباء ، فانه أخذ « اسيدي » شيطان القرون الاولى فنسخ منه ألوف النسخ بين الآدميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه في وضح النهار . . . اذ كان من بلواه

أنه لا يغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم في وهج الظهيرة ، ومع شمس الصحراء التي يهرب منها الانس والجان .

كان « أسيدي » هذا شيطان الحلم في اليقظة الذي سلطه ابليس على رهبان الصعيد في عصور المسيحية الاولى ، وكان من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الاحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون في ظلال الصوامع بين نيران القيظ في الصحراء . فاذا حلموا كسلوا ، واذا كسلوا شكوا ، واذا شكوا آل بهم الشك الى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة واليأس من الصحيح والباطل على السواء .

وينقله الكاتب من القرون الاولى الى القرن التاسع عشر ثم الى القرن العشرين ، ويقول في تفسير نقلته « اننا لا نزعم أن (أسيدي) من مخترعات القرن التاسع عشر . فان السآمة والخيبة واليأس وجدت قديماً ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلي الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلي بها الآن . . . غير أنها في العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ، ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم . . . وهذا الذي طرأ عليها انما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ . . انما هو إخفاق الثورة الفرنسية وذلك الاخفاق الذي يربي عليه في الضجيج والابهة وهو سقوط نابليون . فقد غرس كلاهما (اسيدي) في قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح الى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هذه الصناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والاسى ، واطلع الناس فرأوا ان الحرية الدستورية التي طالما كافحوا من أجلها عبث لا يغني شيئاً مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعباً آخر من ضروب الرعب التي خيبت الآمال في القرن العشرين ، وزيد عليها من دواعي السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن ورأء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا في البعد عنها تفاهة لا تطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة حنيناً الى سآمة الريف . . . وكأنما كانت هذه المضجرات في انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الاولى » .

ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيراً مجازياً عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ، وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلي فيا المنسا به من كتاباتــه آنفــاً وفي كتابــه الــذي الفــه عن شياطــين لودن The Devils Of Loudun... ومـن قرأ هذا الكتـاب علــم أن هكسلي قد أراد ان يكشف عن خبيئة من السوء في هذا الانسان الذي يلعن الشيطان لم يهبط الى ما دونها أخبث الشياطين .

فالقصـة التـي حققهـا الكاتـب من مراجعهـا التـاريخية احـدى المبكيات المضحكات من مآسي التاريخ التي حفلت بها صفحاته في القرون الوسطى ، وكان فيهـا مظلومـان مكذوب عليهمـا كذبـاً لا يخفـى علـى أحـد في الزمـن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه .

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبات في بلدة لودن بالصـرع واتهامهـن بالتجديف والبذاء والتفوه في نوبـات المـرض بكلام يخجلن منـه كلمـا أعيد عليهن بشيء من التلميح وهن مفيقات ، ولو حدثت هذه الاصابة في العصـر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم أنهن مصابات « بالهستيريا » أو بالفصام الذي تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذي تولى البحث في أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن في خلال النوبة وخجلهن بعد الافاقة منها الا أن المتكلم بالبذاء أحد غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاماً من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان .

وسنحت الفرصة لاتهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الاسقف « جرانديه » عدو الكردينال ريشتيه ذي الحول والطول في بلاط باريس ، فاتهم بالفسـوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت احداهن أنها فريسـة للشيطان باغراء الاسقف الساحر ، فرمته بالتهمـة كمـا أوحـي اليهـا ، وقـرر المحققون انهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسـان تلك الفريسـة ، فتقررت ادانة الاسقف بشهادة الشيطـان ، وحـكم عليه بالاحـراق وهـو بقيد الحياة .

ولما قيل لهم إن الشيطان أبو الاكاذيب لم يعسر عليهم ان يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشيطان الى الصدق بين يدي أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين .

وتمشي السخرية مع الفجيعة جنباً الى جنب في هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث في بعض محاضر التحقيق أن يقول الشيطان إن السيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق ديوث تخونه امرأته مع الاسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائباً عن الجلسة ولا يلتفت الى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذي يقرر فيه اعتماد الصدق في كل ما جاء فيه ، ويضحك ولاة الامر ملء أفواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود الى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه في تمليق الكاردينال ، ويفتتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ما قولك في الكاردينال العظيم حامي حمى الديار الفرنسية ؟ فيجيبه الشيطان مقسماً باسم الله : انه سوط عذاب على أصدقائي أجمعين . ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول له الشيطان : انهم زمرة الهراطقة . ويسأله الرئيس :و وما هي مآثره الاخرى ؟ فيجيبه الشيطان : إنها هي انقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله وحرصه على سلام المسيحية وولاؤه للملك لويس . . .

وبعد العناء المضني في جمع هذه الاوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها الى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون أعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة الى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الاوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآري المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الروماني العريق ، وما تصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الاموال الاوغاد ـ كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الابرياء واحراق الاحياء ، والهبوط الى الهاوية في أهبة الصعود الى السماء .

*

ومن المفكرين الذين لهم خطر في كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصري كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب في موضوعات الفلسفة

الدينية، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتي في العصر الحاضر، والكاتب الآخر جيوفاني بابيني صاحب كتاب حياة المسيح وأديب المذهب الكاثوليكي المرضي عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين.

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان أستاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة واقصاء بني آدم عن حظيرة الرضوان، ومعظم هذه الاساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنها بواعث شر وجهل في الطبيعة الانسانية، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشيطان الى سريرة الانسان فيقول الشيطان الاستاذ ـ مثلا ـ لتلميذه إنه خليق أن يتنبه الى خطأ جسيم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشيطان. اذ الحقيقة أن الانسان باق في الحظيرة الالهية ما بقي في نفسه موضع للسرور، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذي يلحق باللغو والتهريج، وينبه الاستاذ تلميذه الى الاقلال من العناية بإغوائه المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات، فان المتدين الذي لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غني عن الاغواء ولا حاجة بالشيطان الى فرط العناية باغوائه، وعلى الشيطان التلميذ ألا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع أنفسهم ومع غيرهم، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل على الرذيلة وهي في عنفوانها، وليس من عمل الشيطان أن ينشر الالحاد لان الذي ينكر وجود الله ينكر وجود الشيطان، وانما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الامل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات في خلائقه ومقاديره، وأقوى الحبائل في رأي الاستاذ الشيطان أن ينفصل الانسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته، فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضي متعلق بالاباطيل ودواعي القنوط والكراهية، وعلى الشيطان الناشىء أن يذكر أن الكراهية هي المهمة في المذاهب «المستقبلية» دون عناوينها ودعاويها، فلا فرق بين الشيوعية والفاشية والاباحية على اختلافها ما بقيت نفس الانسان خلواً من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون في نظر الانسان صفراً من العجائب وشتيتاً متشابهاً من المألوفات والمتكررات.

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحياناً كلما نظر الى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره في هذه الامور مطابقاً لتفكير المتدين في كل دين .

والكاتب الكاثوليكي جيوفاني بابيني يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين في جملة الاعداء الذين تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد في نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . وزوال الشيطان انما يكون بزوال شره وارتداده عنه الى الخير والصلاح .

ورأيه هذا مخالف لآراء الاكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فان آراءه الاخرى في الكتاب تحسب له اذا حسب هذا الرأي عليه ، وفيها شرح للعقائد الدينية ، وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ، ويقنعون به من الكاتب في زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالميين الذين يعلنون عقائدهم في غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين .

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالديمنولوجي) « Demonology » أو مباحث الباحثين عن الشيطان في العقيدة الدينية وفي التعبيرات المجازية في القرن العشرين .

فالمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا ويحصرونها في أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة التي كانت لها في عقائد الاولين .

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغي الشخصية الشيطانية البتة ، ويحل محلها عوامل الوعي الباطن التي يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الاسماء . . وهذا الفريق مسبوق الى رأيه في جملته دون تفصيله ، فقد ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند في رأيها الى قول النبي عليه السلام : إن الشيطان ليجري

من ابن ادم مجرى الدم في العروق ، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول .

والفريق الآخر على رأي هكسلي الذي تقدم ذكره ، وهو أن العقل والعلم لا يمنعان وجود الشيطان كما جاء في الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول : « هل توجد الشياطين ؟ وان كانت توجد فهل كانت حاضرة في جسد الأخت جين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطاني فلست أرى في القول به سخفاً أصيلا ، ولا أجد شيئاً من التناقض في فكرة ترى امكان وجود الارواح غير الانسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا الى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الانسان والحيوان ، واذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد ـ وهي شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا ـ فلا بد من الايمان بعوامل مفكرة مستقلة على الاغلب الاعم عن المكان والزمان والمادة .

وهذه هي زبدة « الديمنولوجي » في صفحتها الاخيرة من آراء المتدينين والمفكرين في القرن العشرين .

خاتمة

تمت في هذه الصفحات رسالة موجزة في موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان والعقائد يدور حول تصوير « قوة الشر » من عهد القبائل البدائية الى منتصف القرن العشرين .

والمقارنة بين الاديان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختامه ، وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الاخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضاً ، أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره الى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد .

ونحن نختم هذه الرسالة ، والاجزاء الاخيرة من موسوعة أرنولد توينبي « Arnold Toynbee » تصدرها المطبعة من المجلد السابع الى المجلد العاشر ، وفي نهاية الجزء السابع منها تعقيب عل الظاهرة الغامضة التي كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية في القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة الى فريقين : فريق يرى أن الانسان تلقى الهاماً بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الاجناس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الانسانية تتقارب في وحي البديهة وتستلهم شعوراً واحداً بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضي زمن طويل قبل أن تتحد النتائج بين الفريقين ، لأن الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التي تخفيها ، وما تجلوه منها اضطراراً أو اختياراً يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز .

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان إنه شيء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الاقوال بين علماء المقارنة

وقرائها على ابتدائها في خطواتها الاولى وانتهائها فيما انتهت اليه الى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار .

ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن أعماقها بعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك في خطواته الاولى أو على أبواب النتائج التي لا تفتح الا بين التردد والانتظار .

لكن الفائدة المبكرة التي خلصت للعقل الانساني من بواكير البحث في العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظر الفلكيين .

فها هنا حشد من العقائد والأخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانساني في نحو مائة قرن يدركها التاريخ .

ما هي في أرقام الحساب أو أنابيق المعامل أو تجارب الطبيعة أو مناظر الفلكيين ؟

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة !

وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بأدعياء العلم جميعاً أن يبدأوا بالنوع الانساني في تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هذا البرنامج وتربية غير هذه التربية .

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الانساني قبل مائة قرن ، وليأخذوا في تعليمه الابجدية من هذه الدروس .

ولنفرض أولا فرضاً مستحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه اليوم خرافة وما يسمونه تحقيقاً وما يسمونه دراسة منطقية أو علمية .

وليبدأ النوع الانساني في هذه المدرسة بفلسفات الاخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها .

وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها .

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء .

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين فماذا نقول ؟

نقول ان هذا في الحق هو حديث الخرافة الذي لا يعدو الالفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين .

لكن النوع الانساني ترك هذه الاكاديمية قبل مائة قرن ، وأمعن في طريقه الذي هداه اليه القدر ، وأعدته له الفطرة .

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعنة ،وان أعلم العلماء اليوم لا يستطيع أن يقيم من الفوارق الحية المحسوسة بين خلق وخلق فارقاً واحداً كالفارق الذي نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهية والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الارضية والخلائق الجهنمية .

ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعباً بالالفاظ أو تظرفاً بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لأنه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبيريستعيرونه من المدرسة النفعية والمدرسة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومدارس روح الجماعة وتضامن الهيئات والبيئات ، وما اليها من الفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئاً وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون ، وغاية ما تبلغه أنها تأتي الى محصول القرون بعد زرعه ونمائه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ، ولا تأمن بعد ذلك ان تضل بين تلك العناوين التي كتبتها بيديها !

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذي سيخطىء لا محالة ، كما يخطىء كل واضع لأمر من الامور في غير موضعه ، وكل من يقيس شيئاً وهو يجهل كيف يقاس .

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر الى التوسع في هذا الموضوع الشاسع العسير ، موضوع المقارنة بين الاديان .

فالغريزة في كل رجل وامرأة ، وفي كل ذكر وأنثى من الحيوان ، تسفه كل من

يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها .

وهذا حنان الآباء والامهات لغو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لأن حنان الآباء والامهات يقول لهم ان طفلهم دون غيره يساوي كل من عداه ويفوقهم في حق البقاء ، ويجب أن يزولوا جميعاً اذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها .

وليضرب صاحب القياس الحسابي على هذا الحنان بالخط الاحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأي في رأسه وبين الحنان في صدر كل والد ووالدة ، من الانسان والحيوان .

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

أحق ذلك الدين أو باطل ؟

انما الخطأ أو الباطل هو الذي نسقطه ونلغيه ، فها هنا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل في مقياس صاحب الحساب وصاحب الانبيق .

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقاً يرى الاشياء كما تكون في جو الاثير على بعد من الارض والجاذبية الارضية ، ونتحدث أمامه عن اللون الاحمر واللون الاخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والاصداء والنغمات ، فماذا عليه لو صاح بنا : على رسلكم يا هؤلاء اللاغطين . ان ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام .

انه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وأدعيائه ، واننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التي يحيط بها العيان وتسمعها الآذان ، فاذا كانت الطبيعة الانسانية لا تدرك هذه المحسوسات الا بهذه الالوان والاشكال فكيف نطلب من الاديان أن تخاطب الطبيعة الانسانية بأسلوب غير أسلوبها، وهي تتحدث عن الغيوب الخفية وعما وراء المادة ووراء الزمان والمكان .

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التي دان بها الانسان منذ جهالته الاولى فهو ـ لا ريب ـ واجد فيها كثيراً مما يعاب ويفرط في المعابة . لكن السؤال الفصل هنا

لا يكون : هل تعاب القيم الوجدانية أو لا تعاب ؟ بل يكون : هل توجد هذه القيم الوجدانية لانسان ناقص ينمو ويكبر ، أو توجد لانسان كامل معصوم من نشأته الاولى ؟ ان عقيدة تصلحها عقيدة بعدها كالمعرفة تصلحها معرفة تليها وتقوم عليها ، لا هذه تسقط العلم ولا تلك .

اننا فرضنا في مستهل هذه الخاتمة أن أدعياء العلم تسلموا النوع الانساني منذ مائة قرن ليرشدوه الى طريق غير الطريق الذي اتبعه في التمييز بين الخير والشر والقداسة واللعنة ، فلندع هذا الفرض البعيد ولنستغن عنه بما بين أيدينا من « الديانات العلمية » التي ارتضاها « الانبياء العلميون » في القرنين الاخيرين بعد اختبار العقائد والمذاهب والفراغ من أوهام الخرافات والاساطير ، ولننظر في الديانة التي سموها الديانة المادية الاقتصادية وقرروا فيها أن احتكار الفلوس هو الذي يخلق الاديان والافكار ويقوم القيم ويرفع الطبقات ، وأنه اذا جاء الوقت الذي ينقضي فيه احتكار الفلوس زالت الطبقات وخلا المجتمع من السادة أبداً سرمداً بغير انتهاء .

ولم يمض على قيام هذه الديانة جيل واحد حتى سمعنا علماً من أعلامها يأسف ويأسى ثم ينعى على زملائه أنهم يختارون لادارة المعامل وتنظيم الحكومة أذناباً من المقربين اليهم ويقصون عنها ذوي الكفاية والغناء في العلم والعمل والسابقة المذهبية ويبقى في نفوسهم بعد الغاء الاحتكار باعث يرفع ويضع بغير مقدار الا أن يكون مقدار الاثرة والايثار .

وهؤلاء المتدينون « العلميون » هم الذين يصدقون مع هذا أنهم حكموا على المستقبل ، ورسموا للنوع الانساني طريقه في نظام المجتمع وبواعث الاخلاق أبد الآبدين ودهر الداهرين ألوفاً من السنين ، لا بل ملايين من القرون بعد ملايين .

وكل ما صدقه عجائز الخرافة من عهد الكهوف الى اليوم يطير هباء أمام هذه الخرافة التي استقر عليها أدعياء العلم والنبوءات العلمية . وكفى بهذه المقارنة تعجيزاً لمن يتطاول به الغرور فيخال أنه يصحح العقائد بمقاييسه ومقاييس علمه المزعوم .

وسيبقى أناس يتعوذون من ابليس يوم يضحكون من خرافة « المادية الاقتصادية » كيف كانت وكيف جازت على العقول ، ونحن نقول في أول هذه الرسالة إن ظهور ابليس في عقائد الناس كان علامة خير لأنه علامة التمييز بين الشر ونقيضه ، فنقول في ختامها إن بقاءه بعد المادية الاقتصادية علامة خير أخرى ، لأن الكون الذي يبقى فيه ابليس ملعوناً أشرف من الكون الذي لا يميز بين القداسة واللعنة ولا يعرف شيئاً يلعنه ، اذ كان لا يؤمن باله غير الفلوس ، وساء ذلك من اله ، وتعالى الله عما يشركون .

عباس محمود العقاد

فهرس كتاب
مجمع الاحياء

الصفحة

فهرس كتاب
الانسان الثاني

فهرس كتاب
هذه الشجرة

فهرس كتاب
إبليس

دار الكتاب المصري
طباعة - نشر - توزيع
٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
ت: ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي: (٢٠٢) ٣٩٢٤٦٥٧
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي: ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
TELEX No: 23081 - 23381 - 22181 - 22481 - ATT: MR. HASSAN EL - ZEIN
FAX: (202): 3924657 CAIRO - EGYPT